Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

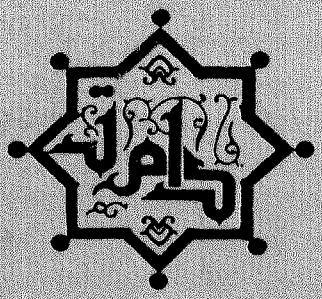

دائرة المعارف التونسية

الكراس 4/1994

Bibliotheca Alexandrina
0011704B

بيت الحكمة - قرطاج

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

دائرة المعارف التونسية

عدد خاص

في تاريخ إفريقية

أ. د. محمد الطالبي

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون « بيت الحكمة » . قرطاج . تونس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

أ. د. محمد الطالبي

في تاريخ إفريقية

أعلام ـ مواقع ـ قضايا

مجموعة من مقالات صدرت في « دائرة المعارف الاسلامية »

ترجمة
الاستاذ محمد العربي عبدالرزاق (و) الاستاذ رياض المرزوقي

تحظى « دائرة المعارف التونسية»
بتوصية بالنشر من وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة » . قرطاج : تونس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجمهورية التونسية
وزارة الثقافة

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

أمانة التحرير
* **الأستاذ عبد الوهاب الدخلي**
التصميم والاشراف الفني
* **فتحي اللواتي**
التوثيق الفوتوغرافي الفني
* **رضا الزيلي**

- تصدر «**دائرة المعارف**» تباعا في كراسات مرتبة موادها ترتيبا أبجديا ومفصلة محتوياتها ضمن أقسام ثلاثة : أعلام ومواقع وقضايا.
- لا يتحمل المجمع «**بيت الحكمة**» أية مسؤولية مادية أو أدبية إذا وقع اعترا على النص.

المدير المسؤول
رئيس المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
« بيت الحكمة »

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون
«بيت الحكمة»

دائرة المعارف التونسية

الكراس 1994/4

* سحب من هذا الكراس في طبعته الاولى : 5000 نسخة

* جميع الحقوق محفوظة للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون /
«بيت الحكمة» - قرطاج - تونس

صورة الغلاف

* لوحة فنية تشكيلية من معرض «المفردة التشكيلية»
مركز الفن الحي لمدينة تونس - 1988.

التركيب الفني المطبعي : محمد المهذبي
المطبعة : شركة فنون الرسم والنشر والصحافة - القصبة - تونس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تكريم

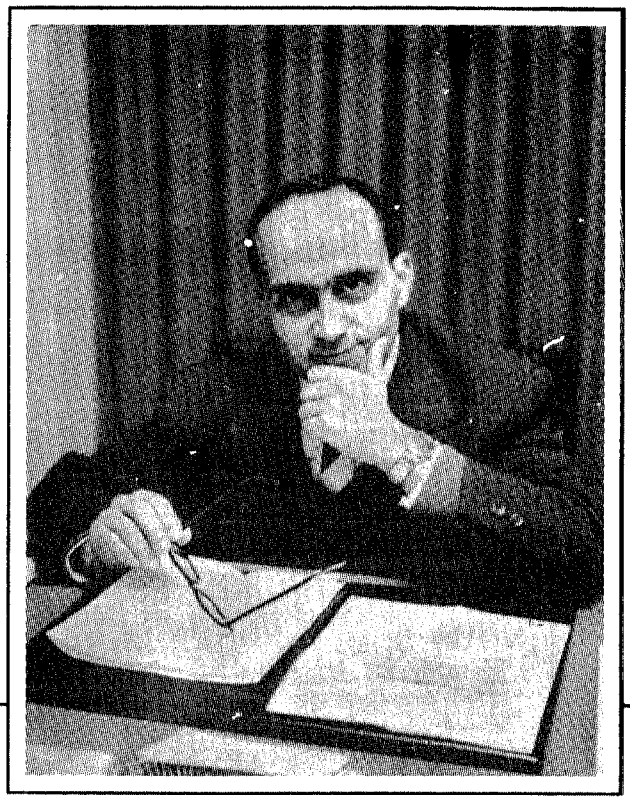

أ. د. محمد الطالبي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تمهيد

من البديهي اليوم التأكيد على أهمية دوائر المعارف في حوصلة المعرفة البشرية التي تزداد تشعبا يوما فيوما.

لذا رأينا بعض الدول وبعض المؤسسات تعتني بإصدار دوائر معارف عامة أو مختصة تمسح بعض الميادين أو ما يهم بعض الثقافات أو بعض الجهات.

ويتنزّل مشروع «دائرة المعارف التونسية» الذي صدر منه حتى الآن ثلاث كراسات [1] ضمن المشاغل الرئيسية للمجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون. وقد حظي باهتمام القرّاء بجميع فئاتهم فخصّصت له المقالات النقدية المطوّلة في كثير من الأحيان [2]، وبقطع النظر عن قيمة الأحكام والآراء الواردة في هذه المقالات، فإنّها أثبتت أنّ هذا المشروع أساسي بالنّسبة إلى الثقافة التونسية «إذ لا يوجد شعب يعتزّ بهويّته وثقافته وتراثه الإنسانيّ إلاّ ولديه دائرة معارف بلغته تعكس رؤيته للماضي والمستقبل وتقدّم كل المعارف الإنسانيّة وتحافظ على تراثه الفكري».[3]

ومن أهمّ ما نشر وله صلة متينة بالثقافة العربية «دائرة المعارف الإسلامية» التي أشرف على إصدارها والتحرير فيها جمع من المستشرقين الكبار منذ سنة 1913 عندما بدأت الطبعة الأولى في الصدور وانتهت سنة 1934.

ووعيا بقيمة المشروع رأى بعض العلماء العرب والمسلمين منذ البداية أهميّة ترجمة هذه الدّائرة إلاّ أن هذه الترجمة لم يصدر منها إلا ستة عشر جزء وانقطعت لأسباب مختلفة، وكان من جملة الأسباب التي زهدت في الترجمة أن طبعة ثانية مزيدة ومنقحة من هذه الدائرة قد بدأت في الظهور منذ سنة 1954 ووجب الاتجاه إلى ترجمتها إن كان لا بد من ترجمة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولم يجد المشروع مؤسسة تقوى عليه لأنه يتطلّب عملا طويل النفس واتجهت الكثير من البلاد العربية والإسلامية ومؤسساتها إلى مشاريع مختلفة تمتّ بصلة متينة أو بعيدة إلى دوائر المعارف.

وراودت فكرة ترجمة «دائرة المعارف الإسلامية» المسؤولين عن «بيت الحكمة» ومجلسها العلمي ومجلس إدارتها منذ سنة 1985. وللتاريخ يجب أن نذكر أن الأستاذ محمد الطالبي كان من المتحمسين للفكرة وراسل في ذلك رئيس «بيت الحكمة» الأسبق الأستاذ أحمد عبد السلام.

ولئن لم تتوفر إلى الآن أسباب تجسيم الموضوع برمّته فإنّنا رأينا في نطاق التّهيئة لمادة «دائرة المعارف التونسية» التي نسعى إلى بلورة معالمها أن نبدأ بترجمة المقالات المتعلقة بالبلاد التونسية من «دائرة المعارف الإسلامية»، بل ورأينا في بداية هذه المرحلة أن نبدأ بما كتبه أستاذ من أساتذتنا الأجلاّء الذين لهم فضل السّبق والريادة في التأليف الموسوعي هو الدكتور محمد الطالبي [4]، وهو من أبرز العرب المسلمين المحرّرين فيها وجل كتاباته تتعلق بالبلاد التونسية، وهو من المتمرّسين بالكتابة في دوائر المعارف. ونرجو أن يكون أسوة حسنة لبقية محرري مقالات «دائرة المعارف التونسية» من حيث الضبط والتحقيق والشّمول والدّقة والقيمة العلمية.

وهذا النوع من التأليف يقتضي المنهج العلمي الصارم في تناول المسائل والقضايا والإيجاز والتركيز في عرضها، وهي مقتضيات رسّختها الموسوعات المتنوّعة التي نشرت في شتّى أقطار العالم. وقد رأينا ونحن مازلنا في طور الإعداد للمشروع النّهائي الكبير لدائرة المعارف التونسية «دامت» أن نجمع أربعة وعشرين نصّا من تأليف الأستاذ الطالبي نشر ثلاثة وعشرون منها في «دائرة المعارف الإسلامية» (الطبعة الجديدة) أمّا مقال «القدّيس لويس في تونس» فقد صدر ضمن تأليف جماعي في تاريخ الحروب الصليبيّة[5].

وأملنا أن يجد الباحثون التونسيون وخاصة منهم أصحاب الاختصاص في المسائل التي تتناولها هذه المقالات (أعلام ـ مواقع ـ قضايا)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المادّة العلمية النافعة، وأن يكون هذا الجزء مرحلة من مراحل تهيئة الإنجاز الكبير الذي نرومه وهو «دائرة معارف تونسية» شاملة تهتم بأبرز الأعلام والمواقع والقضايا محرّرة من قبل علماء تونسيين أو غير تونسيين مشهود لهم بالتضلع في المادة التي يكتبون فيها حتى تكون مادة هذه الدائرة غذاء علميا نافعا لكل المهتمين بالثقافة التونسية.

ولا يفوتنا أن نشكر كافة الذين ساعدونا على إنجاز هذا الكراس:

ـ الفقيد كلود كاهين (بصفته مؤلفا مشاركا لمقال «الحسبة»)

ـ المترجمان الأستاذان محمد العربي عبد الرزاق ورياض المرزوقي

ـ المستشار في ميدان الخرائط المثبتة في قسم المواقع: الأستاذ عبد المجيد الذويب، المتفقّد العام للتعليم الثانوي بالجمهورية التونسية (سابقا).

---

1) «**عن بيت الحكمة**»: الكراس 1/ 141,1990ص+ الكراس 2/ 150,1991 + الكراس 3/ 164,1992 ص.

2) يراجع بصفة خاصة : مقال الأستاذ جمعة شيخة : «دائرة المعارف التونسية» مالها وما عليها، من أجل دائرة معارف متميزة شكلا ومحتوى، الصباح 7 ماي 1991: ومقال الأستاذ الحبيب عباس: المنهجية العلمية في الكراس الثاني لدائرة المعارف التونسية، الهداية س 17 ع 3، ص ص 78ـ 87.

3)مصطفى نبيل: نحو موسوعة عربية شاملة «الهلال» ـ يناير 1989،ص 19.

4) راجع خاصة «إلى الأستاذ محمد الطالبي في عيد ميلاده السبعين» منشورات كلية الآداب 1993.

5) صدر عن دار لوسوي باريس ـ 1988 ـ ص ص 72 ـ 79.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مختصرات

وردت في مقالات «دائرة المعارف الإسلامية» المترجمة المنشورة في هذا الكرّاس الخاصّ مجموعة من عناوين النّشريات والمجلّات مختصرة رأينا خدمة للقارىء غير المتخصّص إيرادها مرتّبة ترتيبا أبجديّا وأثبتنا أمامها العناوين الكاملة مع ترجمتها العربية:

— Annales E.S.C. (=Annales, Economie, Société, Civilisation).	ـ حوليات الاقتصاد والاجتماع والحضارة.
— Bull. Arch. : (= Bulletin Archéologique).	ـ نشرة الآثار.
— B.E.O. (= Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut Français de Damas).	ـ نشرة الدراسات الشرقية الصادرة عن المعهد الفرنسي بدمشق.
— B.S.O.A.S. (= Bulletin of the School of Oriental and African Studies).	ـ نشرة معهد الدراسات الشرقية والإفريقية.
— C.T. (= Cahiers de Tunisie).	ـ كرّاسات تونسية.
— I.A. (= Index Arabicus).	ـ الفهرس العربي.
— I.C. (= Islamic Culture).	ـ الثقافة الإسلامية.
— I.Q. (= The Islamic Quarterly).	ـ الفصليّة الإسلامية.
— J.A. (= Journal Asiatique).	ـ المجلّة الآسياوية.
— J.E.S.H.O. (= Journal of the Economic and Social History of the Orient).	ـ المجلّة الشرّقية للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي.
— J.Sem.St. (= Journal of Semetic Studies).	ـ مجلّة الدراسات السامية.
— M.M.I.A. (= Maǧallat al-Maǧmaʿ al-Ilmīʾal Arabī).	ـ مجلّة المجمع العلمي العربي
— R.G.A. (= Revue de Géographie des Alpes).	ـ مجلّة جغرافيّة منطقة الألب.
— R.I.E.E.I. (= Revista del Instituto Egipcio de Estudios Islamicos en Madrid).	ـ مجلّة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.
— R.S.O. (= Rivista degli Studi Orientali).	ـ مجلّة الدراسات الشرّقية.
— R.T. (= Revue Tunisienne).	ـ المجلّة التونسية.
— S.I. (= Studia Islamica).	ـ دراسات إسلاميّة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعـــلام

النـص	ترجمـة	الـصفحة
(أ) إبراهيم الأوّل	رياض المرزوقي	14
(أ) إبراهيم الثاني	رياض المرزوقي	21
(أ) ابن خلدون	رياض المرزوقي	24
(أ) ابن الرقيق	رياض المرزوقي	44
(أ) ابن شدّاد	رياض المرزوقي	46
(أ) ابن عاشور (آل .)	رياض المرزوقي	48
(ح) حسّان بن النعمان الغسّاني	رياض المرزوقي	51
(د) الدبّـاغ	العربي عبد الرزاق	54
(كـ) الكاهنة	رياض المرزوقي	56
(كـ) كسيلة	رياض المرزوقي	62
(م) المعزّ بن باديس	العربي عبد الرزاق	66

مواقـــع

(إ) إفريقية	العربي عبد الرزاق	80
(خ) خمير	العربي عبد الرزاق	90
(ق) قابس	العربي عبد الرزاق	98
(ق) قسطيلية	العربي عبد الرزاق	116
(ق) قفصة	العربي عبد الرزاق	122
(ق) قوصرة	رياض المرزوقي	133
(ق) القيروان	العربي عبد الرزاق	137
(كـ) الكاف	العربي عبد الرزاق	163
(م) المهدية	العربي عبد الرزاق	171

قضايـــا

(ح) الحسبة	العربي عبد الرزاق	180
(ل) القديس لويس في تونس	العربي عبد الرزاق	192
(م) مشارقة	العربي عبد الرزاق	200
(م) مغاربة	رياض المرزوقي	205

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أعلام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

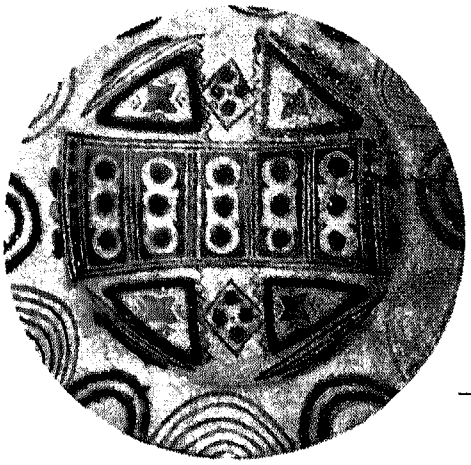

ابراهيم الأول

[184-196 هـ / 800 - 812 م]

إبراهيم الأول بن الأغلب بن سليم بن عقال، مؤسس دولة الأغالبة الإفريقية، كان تميميا من عشيرة بني سعد بن زيد مناة. وقد استقر هؤلاء، بفضل الفتوحات الإسلامية، بصفة مبكّرة جدا في خراسان، حيث واجهوا خاصة المهلّبيين الذين سيلقاهم إبراهيم فيما بعد في مصر ثم في إفريقية.هكذا ولد الأغلب، جدّ الأغالبة ومانح اسمه لهم، بمرو الرّوذ. وقد اعتنق دعوة العباسيّين، وكان من أكثر أبطالهم حماسة إلى جانب أبي مسلم الخراسانيّ. واتّصل لأول مرة بالمغرب في خدمة العباسيّين، ضمن جيش ابن الأشعث. وقد عيّنه ابن الأشعث حاكما على الزّاب (144هـ/ 761 م)، أي منطقة الأوراس جنوب جهة قسنطينة الحالية. وفي سنة 148 هـ / 765م، أطرد جيوش ابن الأشعث قائدهم، وعوّضه الأغلب بالقيروان وتحت أسوارها لقي حتفه خلال إحدى حركات التمرّد العديدة التّي لم تكف عن إغراق البلاد بالدّم .

وانسحبت أسرته إلى مصر. وكان عمر إبراهيم آنذاك عشر سنين. فبدأ بتلقّي دروس متينة في الفقه، وكان من ألمع تلامذة الليث بن سعد (المتوفى 179 هـ / 795م). ولكن كان عليه، وهو سليل أحد مشاهير قواد الجيش العباسي، أن يتبع تقاليد أسرته. فانضمّ إلى جند مصر، وشارك حتما في الانتفاضات التي كانت تهزّ البلاد.وشارك بصفة خاصة،سنة 174 هـ/ 790م، في نهب بيت المال، ليأخذ مقدار رزقه، « لم يزد على ذلك شيئا » حسب تأكيد البلاذري. وتسبّب هذا التصرّف في طرد الوالي المهلّبي له من مصر،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وإرساله إلى الزّاب في الاقامة الجبرية، وكان يحكم الزّاب آنذاك مهلّبي آخر، أي عدو تقليدي لأسرته .

إلاّ أن ابراهيم، بفضل الاضطرابات التي لم تنفك تهزّ إفريقية،دعم مركزه بالزّاب حيث مازال ذكر أبيه حيّا. وتعلّم خاصة كيف لا يخرج عن الشرعيّة. وعرف، وقد أنضجته التجارب، تجنّب الانتفاضات، وتوصّل، بفضل شغور الحكم بالزّاب، نتيجة لهذه الانتفاضات، إلى الاضطلاع بسلطة حقيقيّة فعلية. وفي سنة 179 هـ / 795 م، حوّل هرثمة الذي قدم من بغداد لإعادة النظام والشرعيّة في البلاد، هذه السلطة الفعليّة إلى تنصيب قانوني. ومن المرجح أن إبراهيم، بعد سنتين، رقّاه الرّشيد، وقد رضي فيما يبدو عن خدماته، من خطة مساعد الوالي إلى والي الزّاب العائد إليه مباشرة بالنظر.
وسرعان ما وضعت انتفاضة جديدة مفاتيح القيروان بين يديه. وفي رمضان 183هـ/ اكتوبر 799م، أطرد تمّام، والي تونس التميمي - وهو من عشيرة بني مالك بن زيد مناة، المعادية لبني سعد بن زيد مناة- ابن العكّي من القيروان. فسارع إبراهيم، من الزّاب، بإنجاد الشرعيّة، وأعاد للوالي الشرعيّ حقوقه. وفي الواقع، لم يلق هذا الرجوع الى الوضع الثابت < statu quo ante > موافقة الخلافة ولا موافقة الأفارقة. فدعي إبراهيم إذن، لأسباب مختلفة من السياسة البغداديّة والإفريقية، إلى تعويض ابن العكّي، وبواسطة اتفاق مالي ملائم، حمل الرشيد على منحه رتبة الإمارة الوراثيّة. وهكذا، ارتقت افريقية، دون صدمة، إلى وضع إمارة مستقلّة .

إلاّ أن هذه الولادة بغير كبير ألم لم تجنّبه الصعوبات. فقد كان على إبراهيم الأول أن يقاوم عداء أوساط الفقهاء والجند. واضطر إلى أن يتحمّل إهانات كثيرة وأن يبذل كنوزا من الاعتدال، والحيلة والنشاط لتدعيم نظامه. وبمجرد تولّيه الحكم، أسس، على ميلين جنوبي القيروان، قصرا محصّنا، العبّاسية [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]، وسينقذ هذا القصر المزوّد بفرقة حراسة عتيدة زنجيّة، أكثر من مرة الدولة. وقد اندلع التمرّد الأول بتونس (186 هـ / 802م)، ثم كان دور طرابلس في التحرّك (189 هـ / 805 م). لكن أخطر انشقاق كان انشقاق الجند الذي لم يهزم إلاّ بفضل المعونة المرسلة من الخليفة في الوقت المناسب. ولمّا توفي إبراهيم الأوّل (21شوال 196هـ / 5 جويلية 812م)،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان ابنه وخلفه عبد الله محاصرا في طرابلس .

وخلف إبراهيم الأول ذكرى أمير مثقّف، حازم، عادل. ويذكر النويري أنه « كان فقيها، عالما، خطيبا، شاعرا. وكان أيضا رجل رأي وحزم ... لم يحكم إفريقية قبله أمير أعدل في سيرته، وأمثل في سياسته، وأرفق بالرعيّة، وأحزم في تصريف الأمور» .

البيبليوغرافيا :البلاذري، **فتوح**، ط. بيروت ، 1958، 326 ــ 328 ابن الأبّار، **الحلّة**، تحـ ح. مؤنس، القاهرة، 1963، 93 ــ 101؛ ابن الأثير، **الكامل**، ط. القاهرة- 1938 - 1939 V 96 ، 104، 121، 141، 156- 157، VI، 63؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ ج . س . كولان-G. S. Col in وأ. ليفي بروفنسال .E. Lévi Provençal ليدن Leyde، 1948، I، 90-95 ؛ ابن خلدون، **العبر**، ط بيروت، 1958، IV ، 417- 421 ؛ ابن الخطيب، **أعمال**، في مائوية آماري II Centenario Amari ، 434- 436 ؛ النويري، **نهاية**، تحـ . وترجمة إلى الإسبانية ج . ريميروG.Remiro، غرناطة، 1917- 1919 ، II، 60- 65 ؛ م. فوندير هيدن M. Vonderheyden، **بلاد البربر الشرقية تحت حكم دولة بني الأغلب** La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benoû'l- Arlab، باريس، 1927؛ م. الطالبي، **الإمارة الأغلبية** L'Emirat aghlabide ، باريس، 1966.

شجرة انساب الدولة الاغلبية

[1]

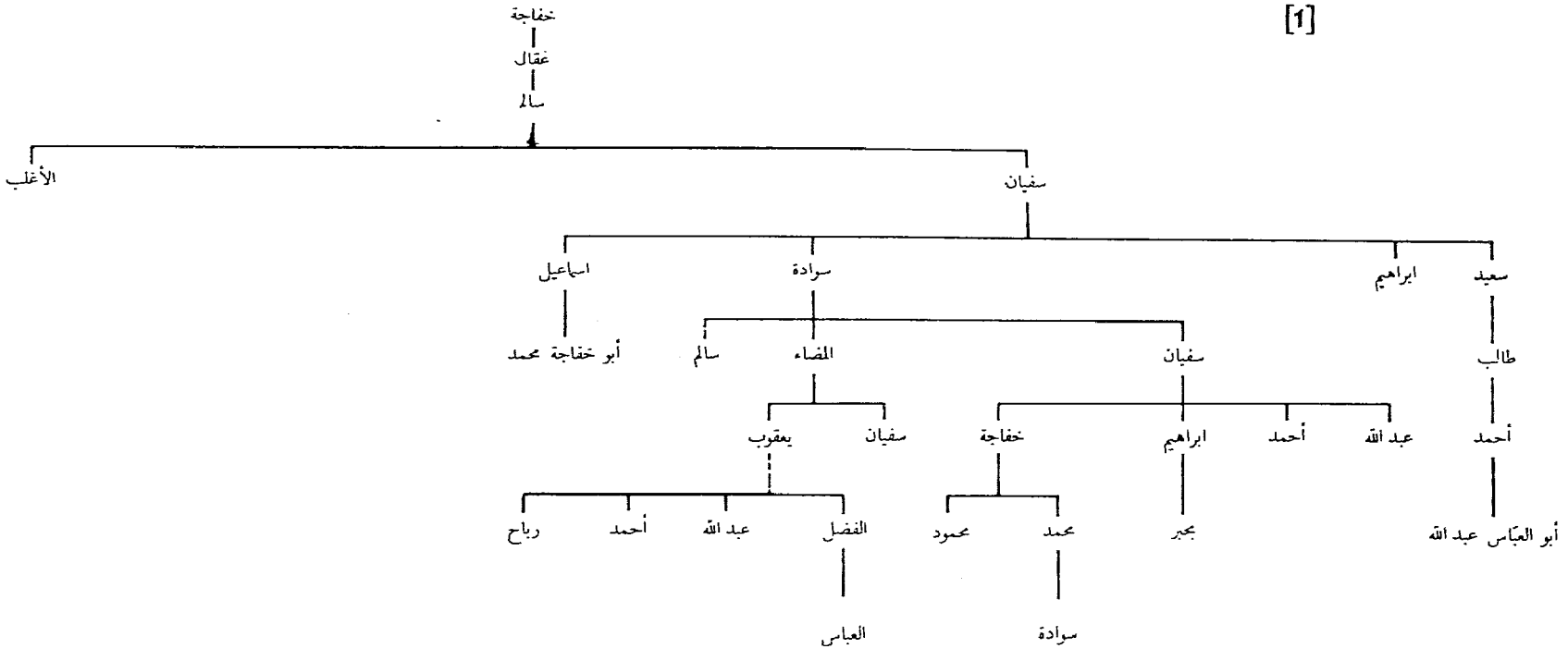

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

شجرة انساب الدولة الاغلبية

[2]

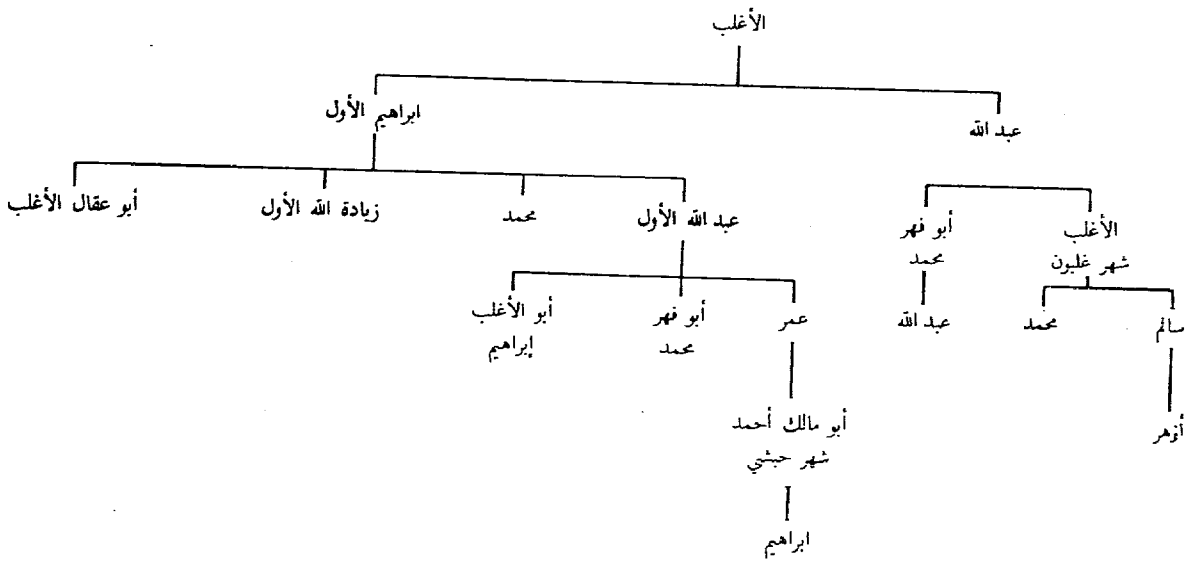

شجرة انساب الدولة الاغلبية

[3]

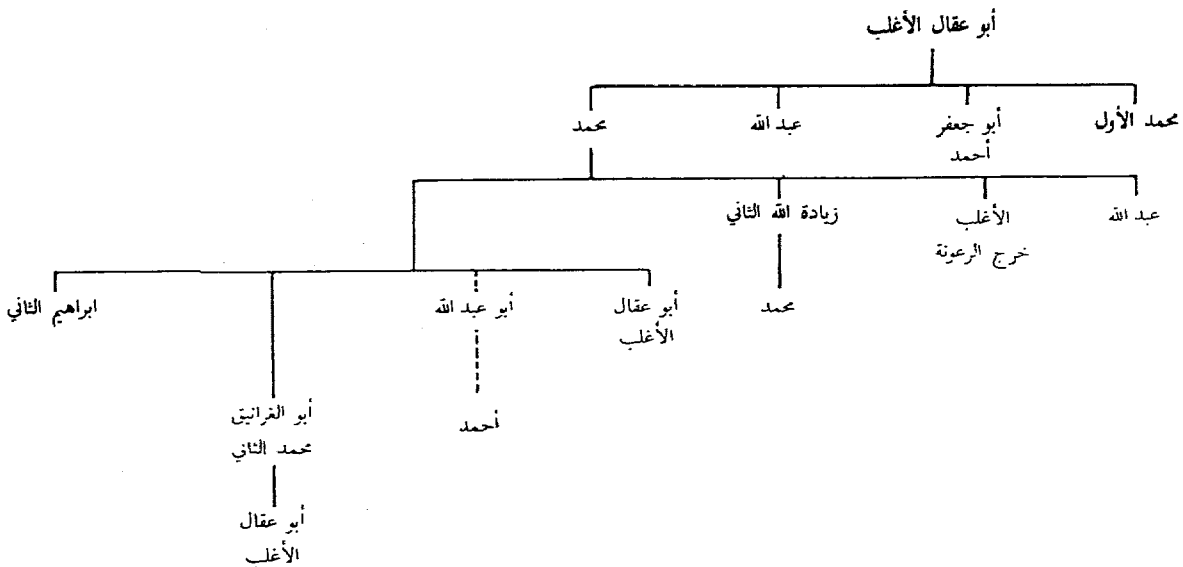

شجرة انساب الدولة الاغلبية

[4]

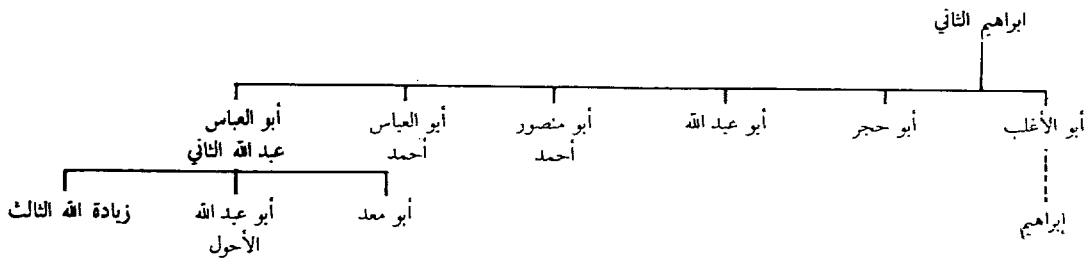

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

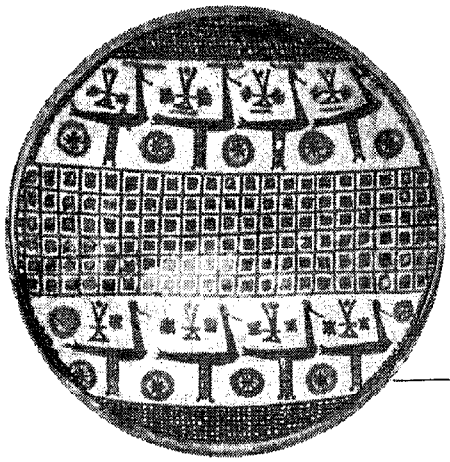

ابراهيم الثاني

[235 - 289 هـ / 850 - 902 م]

إبراهيم الثاني بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن إبراهيم بن الأغلب، ولد في 10 ذي الحجة 235هـ / 27 جوان 850 م، وكان، بعد إبراهيم الأول، أبعد الشخصيات أثرا في البيت الأغلبي، وقد تميّز على حدّ السواء بخصاله الاستثنائية، وجرائمه التي لا تصدق بيسر. فلماّ رفعه الحماس الشعبي إلى الحكم، على حساب الوريث الشرعي الذي مازال آنذاك طفلا، وكان هو الوصيّ عليه، افتتح عهده (261 هـ / 875 م.) بقرارات عادلة، وادارية حكيمة. ولتحقيق هذه الغاية، لم يتأخّر أمام اجراءات غير شعبيّة ولكنّها منقذة، مثل سحب القطع النقدية التي لا قيمة لها، والتي طغت على المعاملات، من التّداول، ممّا كاد يحدث انتفاضة خطرة بالقيروان (ثورة الدراهم). وعرف، في هذه المناسبة، كيف يبرهن على تحكّمه في نفسه، وكيف يتجنّب، مع المحافظة على قراره، إسالة الدماء .

لكنّه لم يعتّم، تحت تأثير الاضطرابات العقلية التي اشتدت عليه شيئا فشيئا، أن نصب، بكامل الوعي، الاستبداد المطلق للأمير دستورا للحكم، وبالإفراط في استخدام هذا الحقّ، أن يسفك الدّم بصفة واسعة. وارتكب، بالتأكيد، تلبية لحاجات سياسته، وكذلك بصفة مجانيّة، جرائم كثيرة، ونسب إليه عدد أكبر منها. وهكذا اتخذ في عين الأجيال اللاّحقة شكل وحش، وبقيت منه خاصة ذكرى بطل شرير لسلسلة من الحكايات السوداء ، الضحايا فيها هي بناته، وابناؤه ، وخدمه، وغلمانه، وجواريه، وغير هؤلاء كثير. وللدعاية الإسماعيلية، في هذا الرسم المرعب الذي صوّره

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

له أغلب الإخباريين ، دور كبير دون شكّ، وقد كانت نشطة بصفة خاصة في آخر ملكه.

ولم يخل استبداد إبراهيم الثاني من إثارة ردود فعل عنيفة. فانتفض البربر في البداية (268 ـ 269 هـ / 881 ـ 883 م.)، وهم أكثر تعرّضا من غيرهم، من شمال المملكة إلى جنوبها، وعوقبوا بقسوة. فحملت أجساد الضحايا ملء عربات كاملة، وقذف بها في قبور مشتركة. وبعد اثني عشر عاما (280 هـ / 893 م)، حان دور كبار « الاقطاعيّين » لدخول الحلبة. وكانت علّة هذه الانتفاضة سياسة استعباد كبار القوم التي يمارسها الأمير، وأشهر ضحاياها مقاتلو قلعة بلزمة الفخورون، وهي قفل جبل كتامة، ومنه انطلقت الحركة التي ستطيح بالأسرة الأغلبية. وقد تملّك إبراهيم الثاني الخوف، فقد ظنّ في البداية أن تمرّد الجند الكبير الذي كاد يذهب بعرش زيادة الله الأول، تكرر. وانتصر، في الواقع، بيسر على أعدائه الذين لم يحاولوا حتى توحيد قواهم. ثم دخل في خلاف مع بربر نفوسة (283ـ 284 / هـ 896- 897م)، وأباد صفوفهم تماما. وإثر ذلك، تظاهر بغزو مصر، بعد أن أمر بقتل ابن عمه حاكم طرابلس، بقسوة كبيرة ـ ومصر انطلقت منها حملة أبي العباس بن طولون المجهضة على إفريقية ـ وذلك قبل أن يسلك من جديد طريق تونس .

وبعد بضع سنوات (289 هـ / 902 م.)، تخلّى عن الحكم لابنه عبد الله الثاني الذي وقعت دعوته من صقليّة، وسار، يحيط به أهل البصائر، وهو يلبس مرقعة الزهاد التائبين، يبحث عن الشهادة ويلقاها تحت أسوار كنسته Cosenza (17 ذو القعدة 289 هـ / 23 اكتوبر 902 م). وقيل إن الأمير الذي نشر وصوله الرّعب في كامل إيطاليا الجنوبية، كان يعتزم لا أقل من السير لامتلاك بيزنطة عبر رومة. لقد كان ملكه ملك القوّة والجنون. وتبعا لتفاقم الداء الذي كان يدمّره، تراجع من الأفضل إلى الأسوء، وبأخطائه أعدّ انتصار الفاطميّين .

البيبليوغرافيا : ابن الأبّار، **الحلّة**، تحـ ح . مؤنس، القاهرة1964، 164، 165، 171 ـ 174، 179 ـ 181، 185، 187، 266؛ ابن الأثير، **الكامل** ، ط . القاهرة، 1938ـ1939، V، 5 ـ 7، 36، 39، 67، 82، 91

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

103؛ ابن عـــذاري، **البيان**، تحـــ ج . س . كـــولان G. S.Colin وأ.ليفي بروفنسال E.Lévi - Provençal ليدن Leyde ، 1948، I، 115-134؛ ابـــن خلدون، **العـــبـــر**، ط. ـــ بيروت، 1958، IV ، 434 ـــ6 43؛ ابـن الخطيب، **أعمـال**، فـــي مائويـة آماري Centenario Amari، II، 439 ـــ 443 ؛ النويري، **نهايـــة**، تحقيـق وترجمة اسبانيّة ج. رميرو G.Remiro ، غرناطة، 1917 ـ 1919، II ، 82 ـ 92؛ الشماخي، **سير**، ط.القاهرة، 1883 ـــ 1884، 215، 229، 237، 267 ـ272، 275، 320؛ القاضي النعمان، **افتتاح الدعوة**، نشرة بصدد الإعداد ف.الدشراوي ، تونس*؛ م. فوندير هيدن M.Vonderheyden، **بلاد البربـر الشرقيّة تحت حكم دولة بني الأغلب** La Berbérie Orientale sous la dynastie des Benou'l- Arlab ، باريس ،1927؛ م. الطالبي، **الإمارة الأغلبية** L'Emirat aghlabide باريس ، 1966.

---

* صدر سنة 1975 (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن خلدون

[732 ـ 808 هـ / 1332 ـ 1406م]

ابن خلدون، وليّ الدين عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن أبي بكر محمد بن الحسن (732 هـ / 1332 م - 808 هـ / 1406 م)، من أقوى شخصيات الثقافة العربية الإسلامية زمن غروبها. ويعتبر عامة مؤرّخا وعالم اجتماع وفيلسوفا. وبهذا العنوان، كانت حياته وآثاره موضوع دراسات لا تحصى،وتعرضت لأكثر التأويلات تنوّعا،ولربّما أكثرها تباينا.

I. ـ **الرجل**. إن حياة ابن خلدون ثلاثية، شغل مرحلتها الأولى (20 سنة) الطفولة والتكوّن، والثانية (23 سنة) مواصلة الدراسة والمغامرات السياسية، والثالثة (31 سنة) حياة عالم و مدرّس وقاض. وقد دارت المرحلتان الأوليان بالمغرب الإسلامي، وكانت الأخيرة بين المغرب ومصر.

في تونس ـ ولد ابن خلدون بتونس في غرة رمضان 732 / 27 ماي 1332، في أسرة عربيّة يعود أصلها إلى حضرموت، استقرّت منذ بداية الفتح الإسلامي بإشبيلية (ابن حزم، **جمهرة** نشر أ . ليفي بروفنسال E. Lévi-Provençal ، 430) حيث قامت بدور سياسي هام. ثم غادرت هذه المدينة إلى سبتة، قبيل الاسترجاع المسيحي للأندلس. ومن هناك، وصلت الى إفريقية واستقرّت بتونس في عهد السلطان الحفصي أبي زكرياء ـ (625-647 هـ / 1228 ـ 1249م). ووالد جدّ ابن خلدون، أبو بكر محمد بن الحسن الذي ترك لنا رسالة في أدب الكاتب (انظر أ. لفي بروفنسال [E.Levi Provençal في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أرابيكا Arabica، II، (1955)، 280 ـ 288)، وقد تحصل على خطة المالية في عهد أبي إسحق (678 - 681 هـ / 1279 - 1283 م). ووضع المغتصب ابن أبي عمارة حدّا لعمله وحياته بالأمر بخنقه بعد أن استولى على أملاكه، وعرضه للتعذيب. وشغل ابنه محمد بدوره عدة خطط ببجاية وتونس على حدّ السواء، وتوفي سنة 737 هـ / 1337 م، بعد أن تخلّى عن الحياة السياسية إثر سقوط ابن اللّحياني (711-717هـ / 1311 ـ 1317) وبقي ابنه محمد، أي والد مؤلّفنا متعقّلا،بعيدا عن السياسة،يحيى حياة الفقيه والأديب(التعريف10-15)

وتمكّن بذلك من أن يضمن لابنه عبد الرحمن تربية فيها عناية. وتابع هذا الابن كذلك دروس أشهر الشيوخ في تونس، وقد خصّص لهم في ترجمته الذّاتيّة (**التعريف**) تحاليل مطوّلة. وتلقّى بهذه الصفة تكوينا كلاسيكيّا، يعتمد أساسا على تلقي القرآن، والحديث، واللّغة العربية، والفقه. وجعلت غزوة بني مرين (748 ـ 750 هـ/ 1347 ـ 1349 م) باقة كاملة من الفقهاء والأدباء تتوافد على تونس مع السلطان أبي الحسن. وقد كان ذلك انبهارا للشابّ ابن خلدون الذي تمكّن بهذا، وخاصة بتتلمذه للأبلي، من تلقّي مبادىء الفلسفة، والقضايا الكبرى في الفكر العربي الإسلامي. إلاّ انّ القدركان يهيء له أيّاما قاسية ، فقد انتهى الاحتلال المريني في الفوضى والدمّ. وممّا زاد المأساة حدّة، أن الطاعون الأسود العالمي الرهيب الذي ظهر في منتصف القرن، وانطلق من الشرق ،قد كانت له فتكات سوداء في البلاد، وأودى بأبويه. وكان عُمُر ابن خلدون يومئذ 17 سنة. وطيلة حياته، سيحتفظ من ذلك بذكرى قاسية تنعكس في مقاطع عدّة من **التعريف والمقدمة**. وقدكانت تلك أول صدمة في حياته لها تأثير لا يمحى على اللّون والتوجّه اللذين سيتصف بهما فكره فيما بعد. ومن جهة أخرى، خلف رحيل العلماء المرينيّين فراغا ثقافيا كبيرا بتونس. ويبدو أنه من ذلك الحين، لم يفكّر ابن خلدون الشاب إلاّ في مغادرة تونس إلى فاس التي كانت حينذاك ألمع عواصم المغرب الإسلامي. وقد كان كما يذكر لنا (**التعريف**، 55) متعطّشا الى الدراسة، وحوله شقيقه الأكبر محمد عن مشروعه، ولكن لم يكن ذلك لمدة طويلة .

في بلاط فاس ـ لم يبلغ ابن خلدون بعد العشرين، عندما عهد إليه الحاجب القوي ابن تفراجين، قرب نهاية 751 هـ / 1350م. ، بخطة العلامة لدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

السلطان أبي إسحق. وقبل، مع إبطان أفكار الإفلات كما يبدو (**التعريف** ، 56). ومكّنه غزو إفريقية، على يد أمير قسنطينة، أبي يزيد (753 هـ / 1352م)، من الفرصة التي كان يحلم بها : فبفضل الهزيمة، هرب من سيّده، ولجأ لبعض الوقت الى إبّة، ثمّ التحق بتبسّه، فقفصة، قبل أن يبلغ بسكرة حيث قضى الشتاء لدى أصدقائه بني مزني، وهكذا بدأت المرحلة الثانية من حياته، وهي في الآن نفسه فترة دراسة ومغامرة، بارتداد، وسيتكرر ذلك في المستقبل، ويحكم أغلب الذين انكبوا على حياته وآثاره عليه حكما قاسيا. وفي الواقع ، هل علينا أن نأسف له إلى هذه الدرجة ؟ لقد كان ابن خلدون يرفض الغرق في الوحل الذي كان يترقّبه في بلاد إفريقية، وكانت آنذاك في انحلال كامل، وكان بلاطها إلى ذلك بعيدا عن أن يكون مدرسة للإخلاص وحسن الإخلاق .

وأثناء ذلك، لقي السلطان المريني أبو الحسن حتفه (752 هـ / 1351م)، في ختام مغامرة تعسة، وترك مجال المغرب الأقصى مفتوحا أمام ابنه أبي عنان الذي لم ينتظر إلى ذلك موت أبيه ليأخذ مكانه بفاس. وبدا أن السيطرة المرينيّة تأكّدت من جديد. فاستولى أبو عنان على تلمسان (753هـ/ 1352 م)، وأعاد بجاية إلى حكمه. ومن بسكرة، عرض عليه ابن خلدون خدماته. وفي طريقه إليه، لقي الحاجب المريني ابن أبي عمرو الذي سمي حاكما على بجاية، فحمله إلى إقامته الجديدة، حيث بقي بعض الوقت (حتّى نهاية شتاء 754 هـ / 1353م)، قبل أن تقع دعوته إلى بلاط فاس. وانضمّ بصفة رسمية الى مجلس السّلطان العلمي، وبعيد ذلك، التحق بكتابته، دون حرص كبير كما يبدو، « إذ كان لم يعهد مثله لسلفه»، ولنفهم من ذلك : أنّ هذه الخطّة كانت دون مكانته. ولنلاحظ مدى الطموح الذي تكشف عنه هذه الفكرة لدى شاب كان عمره آنذاك لا يكاد يبلغ 23 سنة. وواصل إذن التعلم خاصة، وقد خاب أمله قليلا أو كثيرا، وكتب في ذلك (**التعريف**،59) : « وعكفت على النظر، والقراءة، ولقاء المشيخة، من أهل المغرب، ومن أهل الأندلس، الوافدين في غرض السفارة، وحصلت من الإفادة منهم على البغية ». وفي الجملة، كان تعطّشه للعلم مازال بعد يغلب على اهتماماته السياسيّة. لكن هل انغمس حينذاك، منتهزا مرض السلطان، في مؤامرة تهدف إلى تحرير أمير بجاية القديم، أبي عبد الله وإقراره على مملكته القديمة ؟ إن مؤلّفنا يدفع عن نفسه التهمة، ويتحدث عن مكائد، وحسد، ومداخلة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(**التعريف**، 67). وعلى كلّ، فقد ألقي في السجن، حيث بقي عامين (758- 759هـ / 1357-1358 م)، حتى وفاة أبي عنان وكانت هذه الوفاة مناسبة اضطراب، وصراع مسلّح بين المطالبين بالعرش، وخيانة، وسفك للدماء. وقد شارك ابن خلدون الذي أطلق سراحه، في ذلك، حسب قواعد اللعب السياسي لذلك العصر. فقد كان الارتداد عملة رائجة. واستخدم ابن خلدون تلك العملة بنجاعة، فوجد نفسه يعينّ في شعبان 760 / جويلية 1359م. في كتابة السر والترسيل للسلطان الجديد أبي سليم، وحتى يؤدي دوره بصفة أفضل، ويدعّم مركزه، فقد جهد في أن يصبح شاعرا للبلاط (« أخذت نفسي بالشعر» **التعريف**، 70) ، وينقل لنا مقطوعات طويلة من إنتاجه المدحي. لكن بلا جدوى، إذ أن نجمه أفل. وبعد سنتين تخلّى عن الكتابة إلى قضاء المظالم.ثم جاءت اضطرابات جديدة بسلطان جديد. فأبدل ابن خلدون معسكره في الوقت المناسب، واعتبر أنه حرم من ثمار النصر. فعبرّ عن سخطه، وخلق لنفسه أعداء، وبعد صعوبة كبرى، تحصّل على الإذن بالانسحاب إلى غرناطة (خريف 764هـ / 1362م) .

في بلاط غرناطة. ـ في رمضان 760 هـ / أوت 1359 م، أطردت ثورة في القصر محمّد بن الأحمر من العرش. وهكذا، وجد نفسه منذ محرّم 761 هـ / ديسمبر 1359م ، لاجئا بفاس مع وزيره الشهير ابن الخطيب. وعقدت بين ابن الخطيب والشاب ابن خلدون، منذ ذلك الحين، صداقة ستصمد فيما بعد، رغم الغيوم التي لا يمكن تجنّبها، أمام صروف الزمان، وفي جمادى الثانية 763هـ/ أفريل 1362 م، استعاد محمد بن الأحمر عرشه، وابن الخطيب مركزه القديم، ونتج عن الصداقة المعقودة بفاس أن ابن خلدون المرغم بدوره على أن يبحث عن ملجإ في الضفّة الأخرى من المتوسط، استقبل بغرناطة بأكبر التشريف، وفي نهاية 765هـ / 1364م ،بُعث إلى إشبيلية، مكلّفا بمهمة عسيرة لتحقيق السّلام لدى بطرس القاسي Pierre le Cruel. وينبغي أن نسجّل هذا الاتّصال بالعالم المسيحي وقد كان آنذاك في أوج التحوّل.ولمّا رجع، غمره الأمير النصري بالعطايا (**التعريف**، 85) .فاستقدم ابن خلدون عندئذ زوجته وأبناءه من قسنطينة. وللأسف، شعر ابن الخطيب ببعض الاستياء أمام نجاح صديقه الشاّب، وفضّل ابن خلدون ألاّ يلحّ في هذا الشأن (ربيع 766هـ / 1365 م).

في بلاط بجاية. ـ والحق أن فرصة فريدة سنحت له آنذاك لإشباع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

طموحه. فقد استعاد صديقه أبو عبد الله محمد، الذي قد يكون شاركه في مؤامرته بفاس، مملكة بجاية. فعرض عليه خطة الحجابة، وكانت آنذاك أهم خطط الدولة، وعهد بالوزارة إلى شقيقه الأصغر يحيى. وقام ابن خلدون في الآن نفسه بتدريس الفقه وبالوعظ. وكان ذلك انتصارا زائلا. فمن السنة الموالية، عاد أمير قسنطينة، أبوالعباس، إلى الهجوم، وألحق هزيمة ساحقة بابن عمه أبي عبد الله محمد الذي بقي على أرض المعركة. وسلّم ابن خلدون الرافض لمواصلة القتال، مثلما اقترح عليه، باسم أحد أبناء المتوفى القصرّ، المدينة للمنتصر (شعبان 767هـ/ ماي 1366م) وانتقل إلى خدمته. ولم يكن ذلك لمدّة طويلة. فقد شعر ابن خلدون بانقلاب الريح. فاستعفى في الوقت المناسب و لجأ أولا إلى العرب الذواودة، ثمّ لدى أصدقائه بني مزني ببسكرة، بينما قبض على شقيقه الأصغر يحيى. وأجاب السلطان أبا حمو الذي عرض عليه في رسالة بتاريخ 17 رجب 769 / 8 مارس 1368م (**التعريف**، 102 - 103)، خطة الحجابة بتلمسان، بالرفض اللّطيف، واكتفى بأن بعث إليه بأخيه يحيى المسرّح في الاثناء. ويفسرّ ذلك بقوله :

طريق العزلة. ـ « كنت نزعت عن غواية الرتب، وطال عليّ إغفال العلم، فأعرضت عن الخوض في أحوال الملوك، وبعثت الهمّة على القراءة والتّدريس » (**التعريف**، 103) . وبتعبير آخر، أيعاود وهذا أثر الفأس ؟ حاول ابن خلدون إذن أن يحيى حياة الأدباء ببسكرة. وتبادل الرسائل الطويلة، المرصّعة بزهور البديع، مع صديقه ابن الخطيب (**التعريف**، 103ـ130). غير أنّ شيطان الدّسائس لم يستطع التخليّ عنه. فشجع ضدّ أبي العباس، تحالف السلطان الحفصي بتونس، وسلطان تلمسان ابن عبد الواد أبي حمو. وتحوّل، إثر ذلك، إلى ضابط تجنيدلدى السلطان المريني أبي فارس. وتعدّدت تنقلاته، محاولا أن ينشىء من غبار القبائل قوّة قادرة على دعم سلطة تتمتع بقوّة حقيقية. لكنّ الأحداث كانت، في كلّ مرة، تشوّش حساباته. فقد كان المطالبون المتنافسون كثيرين للغاية . ومن هنا ،كانت له سلسلة من حركات الارتداد ربما ليست هي في أصلها سوى محاولات غير ناجعة لإيجاد الجواد الجيّد القادر على الفوز في السّباق. لكنّ هذا الجواد كان مفقودا في سباق المغرب الإسلامي في القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م. ومن جهة أخرى، بدأ أصدقاؤه بنو مزني يستاؤون من نشاط ضيفهم الباعث على الشكّ. فحاول ابن خلدون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرّة أخـرى أن يفلت من إغراءات السّياسـة، فلجأ إلى ربـاط أبي مدين. وكتب أنه كان (**التعريف** 134) « مؤثرا للتخلّي والانقطـاع للعلم لو ترك لـه » . ولم يكـن من طبـعه أن يبـقى كـذلك لمدّة طـويلة، فأفضى بـه السعي إلـى فاس (774 هـ / 1372 م) إذن، بعـد بعض المحن في المغـرب الأوسط. واستقبل، فـي البدايـة، استقبـالا حسنـا، ثم قبـض عليـه، وأطـلق سراحـه إثر ذلك، وسمـح لـه، في نهايـة الأمر، بأن ينسـحب إلى إسبانيـة الإسلامـية ربيع (776 هـ /1375 م)، حيث ذهب « قصد القرار والانقباض، والعكوف على قراءة العلم » (**التعريف**، 226). وللأسف، فإن أمله قد خاب مرّة أخرى. إذ أصبح شخصية سياسية ذات ماض ثقيل الى درجة تـوحي بالرّيبة، وكان من ذلك الحين محكـوما عليه بأن يؤجر خـدماته وأن يوحي بمشاعر مختلطة لا يبعـد عنها الشكّ أبدا. غير أنه، في الظاهر، لم يكن يطمح إلى غير السّلام لاستخراج نتائج تجربته الصاخبة وتنظيم أفكاره .

في **قلعة ابن سـلامة**. عـاد ابن خلـدون إلى المغـرب، بعد أن أنـذر فعليـا بمغادرة مملكة غرناطة، وإثر بعض الصعوبات، استقر مع أسرته بتلمسان (غـرة شـوال 776 هـ / 5 مارس 1375م). وفي هـذه الأثناء، خـُنـق صديقـه، الوزيـر ابن الخطيب في سجنـه بفاس، وقـد حاول عبثـا إنقاذه (**التعريف**، 227)، مما أكسبه عداوة أمير غرناطة. فهل رأى في ذلك إنذارا ؟ بـدا، على كلّ، أنه مـنذ ذلك الحـين، قـرّر بصفة ثابتة الاكتفاء بالـدراسة والتـدريس، لكنّ سلطان تلمسـان قبل أن ينسى الماضي ــ وقد وقف ابن خـلدون بالتـداول معـه وضـدّه ـ بخلفيـة استخدامه مـن جديد، فعهد إليه بمهمـة لدى الذواودة. وتظاهـر ابن خلدون بالقبـول، لكنّـه بمجرّد أن غـادر تلمسـان لجأ لدى أولاد عـريف، واستقبله هـؤلاء استقبالا ملكيا وتدخّلوا لفـائدته لـدى سلطـان تلمسـان الـذي سمح لأسرتـه باللحـاق بـه. ولمدّة أربـع سـنوات (776 - 780 هـ / 1375 - 1379م)، عاش ابن خلدون بقلعة ابن سلامة، على بعد 6 كلم جنوب غربي فرنـدة الحالية، في مقاطعة وهران (**التعريف**، 228). وكان ذلك منعـرجا حاسما في حياتـه. فقد ألّف، وهو سجين بـرجه العاجـي لأوّل مرة بصفة جـديّة، **المقدمة** « على ذلـك النحو الغريب الذي اهتدى إليه في تلك الخلوة » (**التعريف**، 229) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من جديد في تونس ــ ثم أصبحت ضرورة الحصول على وثائق أشمل تتأكد أكثر فأكثر، لمتابعة العمل. وكان عُمر ابن خلدون آنذاك 37 سنة. ففكّر في العودة الى تونس، وقد غادرها في سنّ العشرين، تونس « حيث قرار أبائه، ومساكنهم، وآثارهم، وقبورهم »، حسب تعبيره (**التعريف** 230). فراسل وتحصّل على الترخيص من محيي الدولة الحفصية، أبي العباس (771- 796هـ / 1370-1394م)، وقد كان له معه خصام منذ أكثر من عقد سابق في بجاية. وهكذا «ألقى عصا التسيار » (**التعريف**، 231) بمسقط رأسه، في شعبان 780 هـ / نوفمبر ــ ديسمبر 1378 م. وواصل في تونس مهنته الجديدة في التدريس والعلم، وأتمّ بها تحريرا أوّل لكتابه **العبر** الذي أهدى نسخته الأولى، مصحوبة بمدحة طويلة أملتها الظروف (**التعريف**، 233- 234)، إلى السلطان، لكنّ نجاح تدريسه ــ وقد اعتبره البعض هدّاما ـ وحظوة السلطان كوّنا له أعداء كثيرين. وجعلته دسيسة، روّجها ابن عرفة الشهير، يخشى شرّ العواقب. فخيرّ أن يغادر المغرب الإسلامي حيث يتبعه ماضيه الثقيل بصفة أكيدة في كلّ مكان، وكانت التعلة الحجّ، فمنحه السلطان ترخيصا، وكان أحد المراكب على أهبة الإقلاع إلى الاسكندرية، فركبه ابن خلدون في 15 شعبان 784 هـ/ 24اكتوبر1382م (**التعريف**، 245) .

في القاهرة. لقد كان وصول مؤلّفنا إلى عاصمة المماليك انبهارا حقيقيا بالنسبة إليه، فتدفّق الطلاّب على دروسه بالأزهر. وسرعان ما سمّي مدرسّا للفقه المالكي، وكان هذا الدرس شاغرا، بالمدرسة القمحية، وبعد وقت قليل، سمي كذلك قاضيا مالكيا أكبر (جمادى الثانية 786 هـ / جويلية- أوت 1384م)، وعندئذ بدأت محنه، فقد غرقت أسرته التي سمح لها بالالتحاق به إثر تدخّل السلطان الظاهر برقوق، في عرض الإسكندريّة، وفي نفس الوقت، تسبّب تشدّده ودسائس أعدائه الغاضبين لمنح وظيفة من أهم وظائف الدولة إلى « غريب » في فقدانه لخطّة القضاء (جمادى الأولى 787هـ / جوان ـ جويلية 1385م). وفي سنة 789هـ / 1387م. سمّي بالمدرسة الظاهرية، وهي حديثة البناء، ثم عهد إليه، عند رجوعه من الحجّ، بتدريس الحديث في مدرسة صرغمتش، وقداحتفظ لنا ابن خلدون بدرسه الافتتاحي بحذافيره (محرّم 791هـ / جانفي 1389م) وهو مخصّص لموطأ مالك (**التعريف**، 294 ـ 310)، وفي الآن نفسه، وضع على رأس خانقاه

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بيبرس، أهـــم «الأديـرة » الصوفيّـة بمصر. ثمّ إثـر أربعـة عشر سنـة خصّصت للتدريـس وحـــده، وقـــع الاتجّـاه إلـــيه من جديـد ليشغـل خطة القضـــاء (15 رمضـــان 801 هـ / 21 ماي 1399 م). وعـــزل مرّة أخرى (محرّم 803 هـ/ أوت سبتمبر 1400 م) وبعد بضعـة أشـهر (ربيع الثاني 803هـ/ نوفمبر ـ ديسمبر 1400 م)، اضطرّ إلى أن يتّبع، وكان ذلك بالقـوّة أكثر مما هو عن طيب خاطر، النـاصر الذاهب إلى نجدة دمشـق التي يهددها تيمـورلنك المستولي بعـد على حلب. ولعب ابن خلدون الذي بقي فـــي المدينـــة المحاصرة ــ وقد تخلّ عنها الناصـــر بعجـــلـة إذ كان يشكّ في قيام مؤامـــرة بالقاهـرة اثـنـــاء غيابه ـ دورا ما في استسـلام المدينة، بأمـان خداع، واحتفظ لنـا بروايـة مفصّلة لمقابلاته مع القائد المغولي (**التعريف**، 366 ـ 383). وليس من المستحيل أنّـه تخيل فيـه رجل القـرن المتمتّع بعصبيّـة كـافيـة لإعـادة تـوحيـد العـالم الإسـلامي وإعطاء توجّه جديد للتاريخ (**التعريف** 372 ، 382). وفي النهاية، عـاد إلى القاهـرة، إثر تحريـر وصف للمغرب لتيمـورلنك وبعد أن شهـد فظائع الحرق والنهب بدمشق ، وتخلّ حتى عن ثيابه لقطّاع الطريق، وعلى الرّغم من موقفـه المتورّط تجاه القائد المغولي (**التعريف**، 378) فقد استقبل استقبـالا حسنا في البـلاط. ولأربع مـرّات أخـرى سيسمّى قاضيـا أكبر، ويخلـع بالتوالي. وتمّت آخر تسمية لـه، وهي السادسة، في شعبان 808 هـ/ جانفي / فيفري 1406 م، قبل أسابيع من وفـاته في 26 رمضان 808 هـ / 17 مارس 1406م .

وخلال إقامة ابن خلدون بالقاهرة، لم يقطع صلته بالمغرب الإسلامي. فقد حافظ على زيه المغربي، وهو بـرنس داكن. وحاول أيضا أن يشجع تبادل الهدايـا بين سلاطين مصر وسـلاطين المغرب وأن يـوجد منـاخا للتفـاهم (**التعريف**، 335 - 346). وأرسـل نسخـة مـن كتـاب العبر الى السلطـان المريني أبي فـارس (796 - 799 هـ / 1394 - 1396 م)، وواصل مـراسلـة أصدقائه، واحتفظ لنـا بصفة خاصة، بمقاطع طويلـة، نثرا وشعـرا، مـن الرسـائـل التي وجههـا إليـه الشاعـر الغرنـاطي الشهيـر، ابن زمـرك (**التعريف**، 262- 274) .

إن حياة ابن خلدون قـد وقع الحكم عليها أحكاما متنوعة، وبصفـة عامة، بصرامـة نسبية. فبـالفعل، لا شكّ يحوم حـول تصرّف مفكّـرنا الطـائش،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النفعي، المتعالي، الطموح، الملتبس. وهو، إلى ما ذكرنا، لايخفي ذلك، ويعرض بنفسه في وضح النهار، في كتاب **التعريف**، هذه التغييرات المتتالية للاتجاه. أهو التقلّب ؟ أم الانعدام المحيّر للوطنية ؟ لقد كان ينبغي، لكي تكون هذه الأحكام صحيحة بدقّة، أن يوجد وطن. بينما، لم يكن هناك وطن بالفعل. ولم يكن يوجد على الاطلاق حتى المفهوم، ولن يدخل الفكر الإسلامي إلاّ بفضل الاتصال الحديث جدّا بأوروبا. ولم يكن يتصور أنه توجد خيانة غير الردّة. ولم يكن الوفاء مفهوما كذلك إلاّ في إطار العلاقات بين الرجل والرجل، وكان أكابر القوم يضربون، يوميا، المثال على الخيانة. وكان يعفى عن الخيانة، إلى ذلك، بيسر تبعا للمصلحة- أو لم يكن ابن خلدون بالتداول عدوّا لهؤلاء و أولئك أو خادما لهم ؟ ــ كما كان المرء يقتل غدرا أو بلا سبب، و ببساطة كاملة قصد التوقّي. وكانت الصراعات التي تمزّق المغرب الإسلامي في عهد ابن خلدون سلسلة من الإجهاضات بلا أفق ولا عظمة. فينبغي أن نحكم عليه إذن حسب مقاييس عصره، لا حسب مقاييسنا .

وكان ابن خلدون، إلى ذلك، مثلما يبرهن عليه في مقدمته، جلي الرؤى بصفة مدهشة. وبالطبع ، كان تصرّفه يمليه الطموح، والتعلّق بالسلطة، وطعم المغامرة، وربّما انعدام كامل للقلب في ميدان السياسة. ولكن، هل كان ذلك كلّ شيء ؟ يمكن الشكّ في الأمر. وبالفعل، قد يكون رغم كلّ شيء من الغريب أن منظّر العصبية لم يتصوّر، وربماكان ذلك في غموض قليل أو كثير، مشروع إحياء الحضارة العربية الإسلامية التي يعلم انهّا - وهو يذكر ذلك بوضوح ــ في صلب الاحتضار. فيمكن ألاّ تكون مغامرته سوى تنقيب غير مجدّ وبارد عن عصبية قوية إلى درجة لإنقاذ مركب الإسلام من الغرق. وتسمح بعض العلامات بإبداء هذا الافتراض. لكنّ ابن خلدون لايذكر لنا شيئا بصفة صريحة. ولا يمكنّنا كتابه **التعريف**، وقد أبديت في شأنه، إلى هذا، أحكام مختلفة، من أية مساعدة. ومثلما لاحظنا ذلك من قبل، فهو لايسمح لنا بالدخول في حياة الرجل الخاصة، إذ أنّه يرسم لنا فقط ملامح الشخصية. ولذا علينا ان نرضى برؤية نوايا الرجل العميقة تفلت منا إلى الأبد .

II ـ **الآثار** ـ عرف ابن خلدون خاصة **بمقدمته وكتاب العبر**، لكنّ له آثارا أخرى لم تصلنا كلها. لقد حاول، في حوالي العشرين من عمره، تحت تأثير

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الآبلي، أن يلخص جمع الرّازي اللاهـوتي الفلسفي المعنون **كتاب محصل أفكـار المتقـدّمين والمتأخـرين من العلماء والحكماء والمتكلّمين** (ط. القاهرة، 1905)، وهـو جمع يكثف كل التراث الثقـافي العربي الإسـلامي في شأن موضـوع العقيدة وأصدائه الفلسفيّة. وهـذا الملخّص، المعنون **لباب المحصل في أصول الدّين** (ط. تطوان 1952، مخطوط بخطّ المؤلف مؤرخ في 29 صفر 752هـ / 27 افريل 1351م، الإسكوريال رقم 1614)، يبينّ اتجاها في الفكر لن يفارق ابن خلدون فيما بعد مطلقا .

ونـذكـر، من جهـة أخـرى، أنّ ابن خلـدون ألحّ، عـديـد المرّات، في كتـاب **التعريف**، من بيـــــن أمـــــــور على الطـابع الـدّراسي المجـدّ لإقامتـــــــــه بفاس وغرناطة. فخـلال هذه الفترة، أي ما بين 752هـ/ 1351م و 765 هـ / 1364 م، وهو التاريخ الـذي انتهى فيه كتاب **الإحاطة** لابن الخطيب وإليه ندين بالمعلومات التي تلي، ألّف خمسة تصانيف : .

1. **شرح متن البردة** للبوصيري
2. **ملخّص في المنطق**
3. **مقالة في علم الحساب**
4. **ملخّصات عدّة لآثار ابن رشد**، دون أن نذكر للأسف ماهي!
5. **شرح على قصيدة لابن الخطيب في أصول الفقه**. وجميع هذه الآثار اليوم مفقودة، ويبـدو إضافة إلى ذلك أنها نسيت بسرعة من زمـن مؤلفها نفسـه. ولا يـذكـرهـا ابن خلـدون حتى في كتـاب **التعريف**، ويبـدو أن المترجمين له من المصريّين لا يحملون أية فكرة عنها .

وهذه الأعمال تنتمي من جهة أخرى إلى نوع لاهوتي فلسفي تقليدي، بما في ذلك علم العـدد الضروري للفقه. ولاشيء ، إلى هذا الحدّ، يسمح بتـوقّع انّـه سيعـرف لـدى الأجيال الـلاّحقـة بصفتـه المؤسّس العبقـري للعلم التاريخي وعلوم أخرى أيضا. وسيتم تفتق العبقـرية في قلعة ابن سلامة، في نقطـة انصهـار العلـوم التقليديـة التي سـاهمت في تكـوين عقلـه، مع الحصاد الثريّ للتجارب السياسية التي جعلتـه، بالتراكم المرّ للاجهاضات والمآزق، يعي معنى التاريخ وعبره العميقـة وحينذاك بدأ، في سكـون قلعة ابن سـلامة الجليـل، عمل فكّ رموز المغـامـرة الإنسـانية الأخـاذة المثيرة للحيرة، ولهذه المغامرة دون شكّ عظمتها، لكنّـه تفحّص بؤسها منذ قليل.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وهكذا، حصل تحوّل حقيقي. فقد أصبح الفقيه العادي الذي كان يمكن أن يكونه ابن خلدون على كلّ حال، مؤرّخا عبقريا، وربّما مؤسّس بعض العلوم التي ستكشف أنهّا من بين أكثر العلوم الإنسانية العصرية إثمارا. وأول دفعة من مقدمته - وتحوي أساس تفكيره — لكتاب **العبر**، وكذلك أقسام واسعة من هذا التاريخ نفسه، قد تمّ تحريرها بين 776هـ/ 1375م و 780هـ/ 1379 م في أثناء عزلته. ولم ينقطع إثر ذلك، إلى نهاية أيامه، عن تنقيح هذا الأثر الأساسي، وخاصة المقدمة. ويبدو **التعريف**، وهو ترجمة ذاتية تتوقف في ذي القعدة 807هـ/ ماي 1405م (ط .الطنجي، القاهرة، 1951)، **وشفاء السائل**، وهو مؤلّف في التصوّف كتب في أواخر حياته (ط . الطنجي، إسطنبول، 1958، وط .ا.ا .خليفة، بيروت، 1959) في شكل عملين أدنيين مقارنة مع أثره الرئيسي، وتقتصر أهميتهما الأساسية إذّاك على إضاءته. ونلاحظ في هذا الصدد أن مشكل صحّة نسبة **شفاء السّائل**، ولها من الأهمية مالها بالنسبة إلى تاريخ فكر المؤلّف، لم يقع بعد حلّها بصفة نهائية اليوم .

ويمجّد المؤرخ العثماني نعيمة (المتوفّ 1128 هـ / 1716 م) ابن خلدون في مقدّمة كتابه ويقدم تلخيصا لأفكاره. (قام بأول ترجمة تركية لقسم من المقدمة شيخ الإسلام بيري — زاده محمد في 1143 هـ / 1749م (انظر الفهرس العربي ‹I A ؛ فصل ابن خلدون Ibn Haldùn، العمود 740 ب). وأحدث الترجمات، وهي كاملة، قام بها زاكر كادري أوغن Zakir Kadiri Ugan، في مجلدين، اسطمبول، 1954). إلاّ أن فضل اكتشاف ابن خلدون وثراء مقدمته يعود إلى أوربا، أي إلى دار بولو d'Herbelot (المكتبة الشرقية Bibliothèque Orientale، 1697)، وسلفستر دوساسي Silvestre de Sacy (مختارات أدبية عربية Chrestomatie arabe 1806)، وفون هامر بورغستال‹von Hammer-Purgstall (Uber den Verfall des Islams ...، 1812)، وخاصة كواترمار Quatremère الذي قام، سنة 1858، بالطبعة الأولى الكاملة للمقدمة - وقد طبعت كذلك في نفس السنة بالقاهرة على يد نصر الهوريني عن مخطوط آخر يتضمن خاصة الإهداء الى السلطان أبي فارس (796 — 799 هـ / 1394 — 1397 م) بفاس -، ودوسلان De Slane الذي قام بعد بعض السنوات بأول ترجمة لها إلى اللغة الفرنسية (**المقدمة** Les Prolégomènes، باريس 1863 - 1868). ومن ذلك التاريخ، لم تكفّ الطّبعات والدّراسات عن التكاثر، في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشرق والغرب، شاهدة بالاهتمام المتزايد الذي يبعثه الفكر الخلدوني، وقد بلغ عددها هذه السنوات الأخيرة حدّا جعلها تحتاج إلى الضبط البيبليوغرافي الذي قام به هـ . بيريس H. Pérès وو.ج فيشال W.J. Fischel. وتوفّر آخر الترجمات، وهي ترجمة فر.روزنتال Fr.Rosenthal، مزية أنها انجزت عن مخطوط اسطنبول (عاطف أفندي، 1936)، وقد أثبتت فيه بخط ابن خلدون ملاحظة تشير إلى أن المؤلف«راجعه علميّا».ونلاحظ أيضا الترجمة البرتغالية التي قام بها كوري Khoury في3مجلّدات (ساوباولو، 1958 -1960)،والترجمة الفرنسية (قيد الطبع) التي قام بهاف،مونتاي.*V. Monteil وبالطبع، أثار **كتاب العبر**، التاريخ العالمي نفسه، اهتماما أقلّ. وأول المهتمين ، نوال ديفرجي Noël Devergers قام بنشر مقاطع مستمدّة من العبر وترجمتها تحت عنوان **تاريخ إفريقيا تحت حكم الدولة الأغلبية وصقليّة تحت السيطرة الإسلامية**-Histoire de l'Afrique sous la dynastie des Aghlabites et de la Sicile sous la domination musulmane، باريس 1841. ونشرت بعد سنوات قليلة ، ترجمة أخرى جزئية قام بها دوسلان De Slane ، تحت عنوان **تاريخ البربر والدّول الإسلامية بإفريقيا الشمالية**-Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentionale (في 4مجلدات، الجزائر، 1852-1856) متبوعة بنشرة للمقاطع المترجمة (في جزأين، الجزائر، 1863). ثم نشرت طبعة بولاق الكاملة (في 7 مجلدات، 1868) ومن ذلك الحين، تتابعت كذلك الترجمات الجزئية. إلاّ أننا مازلنا ننتظر الطبعة النقدية الحقيقيّة للمقدمة والعبر. والطبعة الأخيرة، طبعة بيروت، (1956-1959) ـ التي نحيل عليها ـ هي طبعة تجارية إلاّ أنهّا مزودة بفهارس نافعة .

والنقد الموجّه عامة إلى **كتاب العبر** هو أنه لم يحقّق وعود المقدمة وهو نقد واضح جليّ. لكن لم يكن من الممكن أن تتم الأمور على غير هذا. فلا بشر يقدر وحده على كتابة تاريخ عالمي حسب مقتضيات المقدّمة. لكن يوجد ماهو أخطر. إذ يبرهن ابن خلدون في كتابه أحيانا عن انعدام عجيب للمعرفة، مثال ذلك ما يتعلق بالموحّدين وعقيدتهم. « وفضلا عن ذلك، لم تكن التواريخ الدقيقة نقطة قوته، فالمعطيات الزّمنية تتناقض غالبا عبر كتابه، ويضطر المرء إلى أن يفضل في عديد المرّات، تلك التي توفّرها كتب أخرى، أكثر تواضعا، وأكثر اختصارا بكثير » « (ر. برونشفيغ R.Brunschvig **الحفصيّون** Hafsides II، 392).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إلاّ أنّ كتاب العبر، بالترتيب الذّكي للأحداث، وعمق الرواية واتساعها، يبقى رغم كلّ شيء، حسب رأي أفضل اختصاصي، استعمله أكبر استعمال، أداة عمل لا نظير لها، وخاصة « بالنسبة إلى القرنين القريبين أكثر من مؤلّفنا، وهما الثالث عشر والرابع عشر » (ر.برونشفيغ، المرجع المذكور II، 393). ونلاحظ أيضا أن هذا الكتاب، وغالبا ما يكون مخيّبا للآمال عندما يتعلق الأمر بتاريخ المشرق،له قيمة بصفة عامة خصوصا بالنسبة إلى المغرب الإسلامي، وبالأخصّ إلى البربر.

لكن الآية الحق، ذات القيمة العالمية، التي أنتجتها ريشة ابن خلدون ، هي **المقدّمة**. وهي، في ذهن مؤلّفها، ومثلما يدلّ عليه عنوانها إلى ذلك، مدخل إلى عمل المؤرخ. ولهذا، قدّمت لنا بصفتها موسوعة تأليفية للمعارف المنهجية والثقافية الضرورية للمؤرّخ ليتمكّن من إنجاز عمل علمي حقّا. وفعلا، كانت اهتمامات ابن خلدون في المنطلق، أبيستمولوجية بالأساس. وسيدفع، خطوة خطوة، أثناء تأمّله في منهج التاريخ ومادّته، وبكامل الوعي، إلى ابتداع ما يسمّيه « علم مستنبت النشأة » (63)، وسيبرز هو نفسه بصفته حاويا بصفة صريحة إن قليلا أو كثيرا نقط انطلاق عدة اتجاهات في البحث تفضي إلى فلسفة التاريخ، وعلم الاجتماع، وعلم الاقتصاد، وعلوم أخرى أيضا .

ويبدأ ابن خلدون، في مقدّمة **المقدّمة** (1 - 68) بتعريف التاريخ — الذي يوسعه إلى دراسة مجمل الماضي الإنساني، بما في ذلك المظاهر الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافة ـ واستخراج فائدته، ونقد انعدام الفضول والمنهج لدى سابقيه، ووضع قواعد نقد جيّد سليم. ويتركز هذا النقد أساسا، إذا تركنا جانبا فحص الشهادة، على قانون المطابقة (61 - 62)، أي قرب الأحداث المذكورة من الحقيقة ومطابقتها لطبيعة الأمور، وليس ذلك سوى جري التاريخ وتطوّره. ومن هنا، كانت ضرورة بروز القوانين التي تحدّد اتجاه هذا الجري. ويذكر لنا أن العلم القادر على إضاءة هذه الظاهرة، هو علم العمران « وكان هذا علم مستقلّ بنفسه، فإنه ذو موضوع وهو العمران البشري والاجتماع الإنساني » (62) .

وكل ما يتبع ذلك، أي صلب المقدّمة نفسها، ليس سوى العرض المفصل لهذا العلم الجديد المستقل الذي تفطّن إليه المؤلف حدسا. ويحلّل ابن خلدون، انطلاقا من هنا برهنته ـ على عكس ما يمكن أن يكون البعض

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ظنّوه ـ حسب هندسة محكمة، وهو إلى ذلك يشير بوضوح إلى خطوطها الكبرى ويفسرها (68) قبل أن ينطلق في عرضه. وهذا العرض يتوزّع على ستة فصول كبرى، تنقسم بدورها إلى عدد كبير من الفقرات ذات الطول المتنوّع، وغالبا ما يتمّ تحديد ذلك حسابيا .

الفصل I : في العمران البشري على الجملة. ويرسم فيه ابن خلدون ملامح دراسة للوسط وتأثيره في الطبع البشري، واتنولوجيا، وانطروبولوجيا .

الفصل II : في العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل. ويدرس عامة المجتمعات القريبة من البدائية .

الفصل III : في الدّول والممالك والخلافة والمراتب السلطانيّة، ويدرس مختلف أصناف الحكم، والدّول، والمؤسسات .

الفصل IV : في البلدان والأمصار وسائر العمران الحضري ، أي الأشكال المتطورة أكثر، وربّما المتصنّعة أكثر للحضارة .

الفصل V : في المعاش ووجوهه من الكسب والصنائع، ويدرس الصنائع ومجموع الأحداث الاقتصادية .

الفصل VI : في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه، ويدرس العلوم والآداب، ومجموع الظواهر الثقافية .

ويبينّ هذا التخطيط، بوضوح، أن ابن خلدون دفع في مقدمته إلى الاهتمام بجملة الظواهر الاجتماعية. والمحور الذي تنتظم حوله الملاحظات، والموجّه لبحوثه، هو دراسة مظاهر ذبول الحضارات وانحطاطها، أي أعراض الأدواء التي تموت من جرائها الحضارات وطبيعتها. ومن هنا كانت الروابط المتينة للغاية والتي تجمع بين المقدّمة وتجارب مؤلّفها السياسية. وفعلا، فقد كان لابن خلدون شعور تنبّئي واضح بأنه شاهد على تغيير عملاق في مجرى التاريخ. ومن هنا كانت ضرورة القيام بتقويم الماضي الانساني واستخلاص العبر منه. ويقول ابن خلدون إن التغييرات، في بعض الأوقات المتميّزة من التاريخ، تصل إلى حدّ الشعور بأن المرء يشهد « خلقا جديدا، ونشأة مستأنفة، وعالما محدثا. فاحتاج لهذا العهد من يدوّن أحوال الخليقة والآفاق » (53). وهذا « العالم المحدث » كان ابن خلدون يعلم (866) أنه في حالة مخاض على ضفاف أخرى، وكان يعلم كذلك أن الحضارة التي ينتمي إليها تحيى أيامها الأخيرة. وقد رغب،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لاستحالة إمكان تجنّب الكارثة، أن يفهم الأحداث على الأقلّ، ومن هنا كانت ضرورة تفكيك آليات التاريخ .

وفي عمل التفكيك هذا، كانت الأداة الأساسية له هي الملاحظة. وقد وقع الإلحاح حديثا على المظهر الواقعي لفكره. فابن خلدون، المتمرّس بمصادر المنطق والملتجىء إليها، وخاصة إلى الاستقراء، يحذر كثيرا من العقل النظري. وهو يقبل أن العقل هو بالتأكيد أداة مدهشة، لكن في إطار حدودها الطبيعية فحسب، وهي حدود البحث في الواقع وتأويله. وقد حيرّه مشكل المعرفة عميق الحيرة ودفعه، في النهاية، في آخر نقد جذري، إلى رفض الفلسفة. « وبوضعه لتطابق العقلي العالمي مع الواقعي الفردي موضع شك، وضع ابن خلدون موضع شكّ، بنفس العملية، كامل بناء الفلسفة النظرية السابقة ». (ن . نصار N. Nassar، **فكر ابن خلدون الواقعي** La pensée réaliste d'Ibn Khaldùn؛ 66). وهكذا اختار ابن خلدون، بعد أن أنهى، بصفاء كبير، مأساة الفلسفة العربية الإسلامية، التوجّه الى مذهب تجريبي معينّ، لاستكشاف الواقع واستخراج معناه، وهذا المذهب لا يرفض « اللّجوء إلى أصناف التفسير العقلي المتولّدة عن الفلسفة » . وفي الجملة، لا يطرح ابن خلدون التنظير التقليدي للفلاسفة الذي يتورط في الطريق غير النافذة للخلافات والمجادلات، إلاّ ليعوّضه بتنظير آخر أوثق في مساعيه وأخصب في نتائجه، لأنه متصل مباشرة مع الواقع الملموس .

وهذا التنظير الإيجابي الجديد الذي يعرضه علينا، ويعطينا مثالا له في **المقدّمة**، يجري حسب حركة جدلية لاحظها عدة باحثين (انظر خاصة الكتب الحديثة. إ. لاكوست Y. Lacoste ون. نصار N. Nassar) وفعلا، فانه لا يمكنه النّفاذ إلى قلب الواقع ، ووصف الصرّاعات، والنّزاعات ، والتّوترات، والإجهاضات المتتالية للدول والحضارات تحت تأثير تناقضاتها الداخلية، دون أن يعترضه ، وأن يلاحظ في طريقه، لعبة الجدل، خاصة وأنه التقى في شبابه بالمنطق، وأن مفاهيم المتناقض، والمتضاد، والمقابلة، وتكامل الأضداد، واللّبس، والتّعقد، والتّداخل كانت منذ زمان طويل مألوفة في الفكر الإسلامي الذي ينتمي إليه. ولهذا تذكر هذه المفاهيم غالبا بصفتها مفاهيم إجرائية تسمح بالفهم والتفسير. وتوصّل ابن خلدون هكذا ،بتجاوز التناقضات جدليا، ومحاولة تفسيرها ، وحلّها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

إذن، إلى تصوّر دينامي للتطور الجدلي لمصيرالإنسان، ولتاريخ واضح، عقلي، ضروري استعاديا. وينبغي إدماج رسمه البياني الدائري الشهير للتأويل التاريخي، وهو في حدّ ذاته لا يقدم أية طرافة خاصة، ضمن هذه الرؤية العامة، حتى يأخذ معناه الحقيقي .

ولقد جعل ثراء الأفكار المثارة في **المقدّمة** عدة اختصاصيّين يكتشفون فيها بذور عدّة علوم لم تتأسس حقّا بصفتها علوما مستقلة إلاّ في فترة حديثة جدّا نسبيا. ولا أحد بالطبع يناقش صفته مؤرخا، ويرى إ،لاكوست (ابن خلدون Ibn Khaldoun، 187)انّه « إذا كان توسيديد Thucydide مخترع التاريخ »، فإن ابن خلدون « يسجّل ظهور التاريخ بصفته علما » . لكن رأى الدارسون فيه فيلسوفا، وقد كان التعجّب خاصة من اكتشاف علم اجتماع كثير الضبط في مقدمته. وليس « علمه المستنبت النشأة »، علم العمران، وقد كان هو نفسه منبهرا باكتشافه، في حقيقة الأمر، وبالمعنى الدقيق، غير علم اجتماع، وقع تصوّره في الحق بصفته علما مساعدا للتاريخ. وهو يرى أن الأسباب العميقة للتطور التاريخي، علينا بالفعل أن نبحث عنها في الهياكل الاقتصادية والاجتماعية. فثابر على تحليلها إذن، مؤسسا، في طريقه، عددا من المفاهيم الإجرائية الجديدة وأبعدها تأثيرا هو بلا جدال مفهوم العصبية. وهذا المفهوم، وكذلك مفهوم العمران، أنتجا عديد المناقشات العصرية ـ ولا يمكن ذكرها هنا ـ في شأن تأويلهما (انظر م. الطالبي، **ابن خلدون ومعنى التاريخ**Ibn Haldùn et le sens del'Histoire، في دراسات إسلاميّة XXVI S.I" (1967)، (86 - 90، 99 - 112). وقد اهتمّ خاصة بتأثير نوع الحياة والإنتاج في تطوّر المجموعات الاجتماعية. وهو يؤكّد، في جملة اشتهرت بعد : « اختلاف الأجيال في أحوالهم، إنّما هو باختلاف نحلتهم من المعاش » (210). وكثيرا ما قربت هذه الجملة من جملة أخرى لا تقلّ عنها شهرة لماركس Marx : « تحدد طريقة الإنتاج للحياة المادية، عامة، التطوّر الاجتماعي، والسياسي، والفكري للحياة ». والتماثل، فعلا، مدهش. وليس الوحيد بين المفكّرين. ولهذا فإنّ فكر ابن خلدون كثيرا ما يؤوّل، وخاصة في هذه السنوات الأخيرة، في معنى المادية الجدلية. ولكن، على الرغم من وجوه التماثل التي لا تناقش فإنه يبدولنا صعبا أن نرى في ابن خلدون رائدا للمادية. والى ذلك، فالتعليل، عنده، ليس اجتماعيا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اقتصاديا فقط، بل هو نفساني أيضا . « لا تحوي المقدّمة علم اجتماع عام فحسب، ولكن أيضا علم نفس اجتماعي وافر الثراء، كثير التنويع، يمكن أن ينقسم الى علم نفس سياسي، وعلم نفس اقتصادي، وعلم نفس اخلاقي، وعلم نفس عام. وتكوّن العناصر المتشابكة والمترابطة في الصميم، وهي عناصر علم النفس الاجتماعي هذا وعلم الاجتماع العام كلاً معقدا صعب الفصل » (نصّار Nassar المرجع المذكور أعلاه، 178) .

وهكذا تعتبر صورة ابن خلدون غير الخاضعة للقوالب في الثقافة العربية الاسلامية وبالإجماع، منذ اكتشاف أوروبا له، بصفتها صورة عبقري حقيقي بارز، صورة « مفكر عبقري شاذ » (ر، برونشفيغ R. Brunschvig **الحفصيون**، II ، 391) تشكّل مقدّمته « أحد الأوقات الجليلة للفكر البشري» (بوتول **Bouthoul**) وقد كان « عبقريا متفرّدا »، لا يرتبط بأي تيار معينّ من الفكر العربي الإسلامي، لأنه في الحق نهاية العديد من التساؤلات المحيرّة، ويمثل فكره تحوّلا جذريا بقي ـ للأسف ! ـ عديم التأثير مثل مغامراته السياسية الفاشلة. « ومثلما لم يكن له سابقون في اللّغة العربية، لم يكن له كذلك في هذا اللسان، إلى الفترة المعاصرة، منافسون ولا تابعون. وإذا لم يكن تأثيره المباشر منعدما، في مصر، في بعض كتّاب العصر الوسيط المنتهي، فإنه يمكن التأكيد أن مقدّمته وتعليمه الشخصي لم يخلّف كلاهما، في مسقط رأسه بلاد البربر، آثارا دائمة. وذلك في الحقيقة، من أكثر المآسي تأثيرا، وأشجى صفحات تاريخ الثقافة الإسلامية وأكثرها دلالة، أي هذا الانعدام المطلق للفهم والعداوة المصرّة اللذان تعرّض إليهما، في عالمه نفسه، هذا المفكّر العبقري الشاذّ (ر. برونشفيغ، المرجع المذكور أعلاه، II ، 391) .

البيبليوغرافيا : إن البيبليوغرافيا حول ابن خلدون غزيرة إلى حدّ أنها لا تجد مكانها هنا بصفة تامة ويمكن الرجوع إذن إلى هـ . بيريس H. Pérès، **بيبليوغرافيا حول حياة ابن خلدون وآثاره** Bibliographie sur la vie et l'oeuvre d'Ibn Kaldùn، في متفرقات ليفي دلافيدا Mélanges Levi Della Vida، II، 308 -

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

329 ، وإلى بيبليوغرافيا أحدث أنجزها و.ج. فيشال W.J.Fischel في نهاية المجلّد III من ترجمة المقدّمة التي قام بها فر.روزنتال Fr.Rosenthal نيويورك، 1958، 27 ص . على أنّه ينبغي التنويه بالدراسات والتآليف التّالية بصفة خاصّة : طه حسين، **دراسة تحليلية ونقدية لفلسفة ابن خلدون الاجتماعية** Etude analytique et critique de la Philosophie sociale d'Ibn Khaldùn] باريس1917؛ ج، بوتول G. Bouthoul، **ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية** Ibn Khaldoun , sa philosophie sociale، باريس، 1930 ؛ ن. شميت N.Schmidt، **ابن خلدون، مؤرخا وعالم اجتماع وفيلسوفا** [Ibn Khaldùn Historian, Sociologist and philosopher]، نيويورك؛ 1930؛ م.ع. عنان، **ابن خلدون، حياته وتراثه الفكري**، القاهرة، 1933 (ط. جديدة مزيدة، القاهرة، 1965)؛ ر. برونشفيغ R. Brunschvig، تأليف ممتاز في **بلاد البربر الشرقية تحت حكم الحفصيّين** La Berbérie Orientale sous les Hafsides باريس، 1947، II، 385 ـ 393 صدرت الترجمة العربيّة عن دار الغرب الإسلامي، في جزأين،1988 : حمادي الساحلي : تاريخ إفريقيّة في العهد الحفصي ؛ ش، إيساوي Ch. Issawy **فلسفة عربية للتاريخ** An Arab philosophy of history ، لندن، 1950؛ س . الحصري، **دراسات عن مقدّمة ابن خلدون**، القاهرة، 1953؛ م . مهدي. **فلسفة التاريخ لدى ابن خلدون** Ibn Khaldùn 's philosophy of history لندن،1957.

ومنذ آخر ضبط بيبليوغرافي أنجزه و، ج، فيشال W. J. Fischel نشرت دراسات وتآليف أخرى. نذكر منها : أ.ا.ج.روزنتال E.I.J.Rosenthal، **الفكر السياسي في الإسلام الوسيط** Political thought in medieval Islam، كامبريدج، 1958، الفصل IV، 84 ـ 113؛ نفسه، **الإسلام في الدولة الوطنية العصرية** Islam in the modern national state، كامبريدج، 1965، 16 ـ 17 وما بعدها (**تأثير ابن خلدون في المفكرين المسلمين المعاصرين**)؛ هـ . سيمون H.Simon Ibn Khaldùns Wissenchaft، der menschlichen kultur، ليبزيغ ، 1959؛ س . م باسييفا S.M.Bacieva ، **حول العمل في فكر ابن خلدون** Sur le travail dans la pensée d'Ibn Khaldùn، في متفرقات أ. كراتشوفسكي Mélanges I.Krackovskij ، لينينغراد، 1958؛ و.ج. فيشال، **استعمال ابن خلدون للمصادر التاريخية** Ibn Khaldùn 's use of historical sources، في دراسات إسلامية XIV،S.I (1961)؛ نفسه،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن خلدون في مصر، وظائفه العامة وبحثه التاريخـــي (1382-1406) برکـــلي، Ibn khaldùn in Egypt .His public fonctions and historical research† 1967؛ جلنـــر E.Gellner **من ابـن خلـدون إلـــى كـارل ماركـس.** From ibn Khal-dùn to Karl Marx، فـي الربعيـات السياسية Political Quarterly، XXXII(1961)، 385 ـــ 392 ؛ خصّصـــــت الفـكر (تـونس)، عـدد مـارس1961 ، لابن خلدون**؛ ع. بـدوي، **مؤلّفـات ابن خلدون** ، القاهـرة، 1962 ؛ ع. الوردي، **منطق ابن خلدون** ، القاهرة، 1962؛ **أعمال مهرجان ابن خلدون** ، القاهرة ، 1962؛ ر. والزر R.Walzer **مظاهر من الفكر السياسي الإسلامي : الفارابي وابن خلدون** Aspects of Islamic political thought : Al-Fàràbi and Ibn Kaldùn، في الشـرق Oriens، 1963، 60-40 ؛ جيتسوزو تامورا Jitsuzo Tamura ، **نظرات ابن خلدون الاقتصاديـــة** Les vues économiques d'Ibn Khaldùn (باليابانيـــــة، فـــي أجيا كازاي Ajia Kazai ، سبتمبر، 1963؛ ولفسون Wolfson] **الفلسفة الدينية** Religious Philosophy ، جامعة هـارفارد Harvard ، 1961 ، 177 - 195 (حول الصفات والقدر)؛ نـدوة الرّباط ، ماي 1962، ط. دار الكتاب، الـدار البيضاء؛ م . عطاء اللـه برهان، **فكر ابن خلـدون الاقتصادي** La Pensée économique d'Ibn Khaldùn، أطروحة جامعية، باريس، 1964؛ ن. نصار، **شيخ ابن خلدون : الآبلي** Le maître d'Ibn Khaldùn: al- Abili، في دراسات اسلاميـة XX S.I. (1964) 103 - 115؛ نفسه، **فكر ابن خلدون الواقـعي** La pensée réaliste d'Ibn Khaldùn، بـــاريس ، 1967 ؛ ج . هـــ. بوسكـــــي G.H.Bousquet **نصـــوص المقدمـة الاجتماعية والاقتصادية** Les textes sociol-ogiques de la Mukaddima، باريـس 1965؛ ج. لابيكـا G.Labica، **محاولة رســـم سوسيولوجيـــا الدّين لدى ابن خلدون** Esquisse d'une soci-ologie de la religion chez Ibn Khaldùn، La Pensée فـي الفكـــر أكتوبـــر 1965، العـــــدد 123، 233؛ ر.أرنالدز R.Arnaldez] ، **خواطر حول مقطع من مقدمة ابن خلدون** Réflexions sur un passage de la Mukaddima d'Ibn Khaldùn ، في متفرّقات ر. كروز Mélanges R.Crozet، بواتيي Poitiers ، 1966، 1337 وما بعدهـا؛ إ. لاكوست Y.Lacoste، **ابن خلـــدون، نشأة التاريخ، مـاضي العالم الثالـــث** Ibn Khaldùm, naissance de l'histoire, passé du tiers- monde باريس، 1966 (تأويل مـاركسي لامع، للرجـوع إليه بحذر، انظـر في الملحق الأدبي للتايمس Times، 8 أوت 1968 ، 853)؛ أ. أ. ميـــــارس E.A.Myers، **ابن خلدون رائـد « علـم جديد »** Ibn Khaldùn, forerunner of new science ، فـي العالم العربـــي The Arab World، نيويورك، مارس 1966؛ م. الطالبي،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ابن خلدون ومعنى التاريخ Ibn Haldùn et le sens de l'histoire، في دراسات إسلامية S.I، XXVI (1967) 73 - 148؛ ف. مونتاي V.Monteil، في المجلّة التاريخية Revue Historique، أفريل - جوان 1967؛ محمد محمود ربيع، **نظريّة ابن خلدون السياسية** The political theory of Ibn Khaldùn ، ليدن Leyde 1967؛ ج . بيالوسكي J. Biclawski، **المظهر السوسيولوجي لآراء ابن خلدون حول «علوم اللّغة العربية»** Aspect sociologique des opinions d'Ibn Haldùn sur les Sciences de la langue arabe أعمال المؤتمر الثالث للدّراسات العربيّة الإسلاميّة Atti del terzo congresso di studi arabi e islamici ، نابولي Naples، 1967؛ وحول تأثيره في تركيا، انظر ز. فهري فنديكوغلو Z. Fahri Findikoglu، في Türkiye'de Ibn Haldunizm، Fuad Köprülü Armagani، إسطمبول، 1953، 153 - 163. وانظر كذلك بيرسون Pearson، الفهرس، 10897 - 10923، الملحق ، 2872 - 2887 الملحق ، II، 2796 - 2805

---

*صدرت ترجمة ف . مونتاي في 3 مجلّدات بيروت ، 1967 - 1968، ثمّ في باريس، 1978. (المترجم)،
وكذلك الحياة الثقافية (تونس) ، سV ، العدد 9، ماي - جوان 1980 (المترجم).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

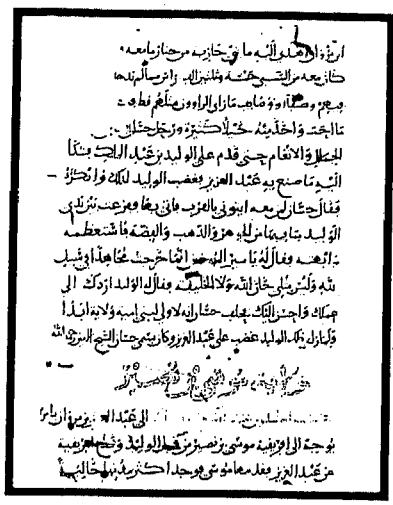

ابن الرّقيق

[توفي بعد 418 هـ / 1028 م]

ابن الرقيق، أو كذلك الرقيق أبو إسحاق إبراهيم بن القاسم الكاتب القيرواني، كان كاتبا للزيريين منذ ما يقارب ربع القرن حين كان ابن رشيق بصدد تأليف كتابه **العمدة**، وكان ابن الرقيق (توفي بعد 418هـ / 1027 - 1028 م) خاصة أديبا و إخباريا بارعا. ويعترف ابن رشيق له بشيء من الموهبة الشعرية، على الرّغم من أن طريقته كانت خاصة طريقة الكتاب، واحتفظ لنا ياقوت (**معجم الأدباء**، ا، 217 ـ 226) بقطع طويلة من قصائده. وندين لنشاطه الأدبي كذلك بأثر بلغنا، هو **كتاب قطب السرور** (مخطوط باريس، المكتبة الوطنية، رقم 4829، 4830، 4831)، وبالنسبة إلى المخطوطات الأخرى، انظر بروكلمان Brockelmann. وقد خصّص لغرض الخمريات كما ازدهر في المشرق .

لكنّ ابن الرقيق، في نظرمعاصريه (انظر ابن رشيق، نقلا عن ياقوت، المذكور أعلاه، ا ، 216) وكذلك في نظر من أتوا بعده، يعتبر خاصة مؤرخا لا نظير له. ويعتبره ابن خلدون (**المقدّمة**، ط. بيروت 1956 ، 4) « مؤرخ افريقية والدّول التي كانت بالقيروان ». ويستحق ابن الرقيق هذه الشهرة بصفة واسعة. فقد كان كتابه **تاريخ افريقية والمغرب**، وهو في عدة أجزاء، عمدة أعمال ابن شدّاد، ابن الأثير (المتوفّى 630 هـ / 1233 م)، وابن الأبّار (المتوفّى 658 هـ / 1260 م)، والتجاني (المتوفّى بعد 708 هـ / 1308 م)، وخاصة ابن عذاري (حوالي 706 هـ / 1306 ـ 1307 م)،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

والنويري (المتوفّى 732هـ / 1331-1332)، وابن خلدون (المتوفّى 808 هـ / 1405 ـــ 1406 م) والمقريزي (المتوفى 846 هـ / 1442 ـــ 1443 م). ويبدو أن السخاوي (**إعلان**، 122 [توفي 902 هـ / 1496 ـ 1497م]، والشمّاخي، وحتى الوزير السرّاج (**الحلل**، 289 وما بعدها) وكان يكتب سنة 1137هـ / 1724-1725م)، ينقلون عنه مباشرة

إلاّ أنّ تاريخ ابن الرقيق، في أيامنا، يبقى في الواقع مفقودا، على الرغم من الإشارة بالانقطاع إلى وجوده في بعض المكتبات الخاصة بالبلاد التونسية. أما القطعة غير المنسوبة، من تاريخ المغرب، من حكم عقبة بن نافع الى عهد ابراهيم الأوّل، والتّي هي ناقصة الأول، منعدمة اللّصاق، وقد وقع اكتشافها في الرباط على يد السيد المنوني، ونشرها بتونس (1968) السيد الكعبي، ونسبها إلى ابن الرقيق، فصحّتها مشكوك فيها. ونسجّل أخيرا قصد الاستعمال الحسن للمقاطع المأخوذة من ابن الرقيق، أنّ أثره، على الرغم من أنّه مجموع أو مؤلف بكثير من الوعي والعناية، تطبعه ميول صاحبه الشيعية، وهو ما يبدو أن الجامعين الذين احتفظوا لنا بقطع مطوّلة منه قد نسوه أو أهملوه .

ويبدو أن ابن الرقيق، الذي قام سنة 388 هـ / 998م. باسم الأمير الزيري باديس بمهمة ديبلوماسيّة لدى أمير مصر الحاكم، حسب قصيدة احتفظ بها ياقوت (المصدر المذكور أعلاه، ا، 222-224) قد أقام مدة طويلة بالقاهرة التي يتغنّى بملاذها في حنين أخّاذ. ونذكر ضمن آثاره التي لم تقع الإشارة إليها بعد : **كتاب النساء، والرّاح والارتياح، والأغاني، ونظم السلوك في مسامرات الملوك.**

البيبليوغرافيا : ذكر المصادر بروكلمان C. Brockelman، ا، 161، الملحق ا، 252؛ آماري Amari **تاريخ مسلمي صقلية** Storia، ط. نلّينو Nallino، 1933، ا، 39؛ الزركلي **الأعلام**، ط. 2، ا، 51-52؛ هـ.ر. إدريس H.R.Idriss، **بلاد البربر الشرقية تحت حكم الزيريّين** Zirides، ا، XIV و II، 81-82. وأفضل نصّ يترجم لابن الرقيق هو نص ياقوت، **معجم الأدباء** ط. القاهرة، 1936، ا، 216-226.

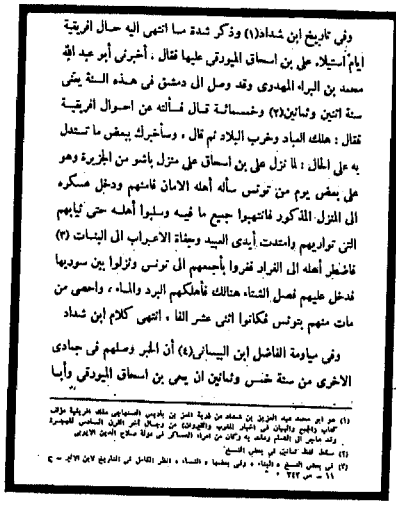

وفي تاريخ ابن شداد(١) وذكر شدة ما انتهى اليه حال افريقية ايام اسيلا، على بن اسحاق اليوردي عليها قال ، أخبرني أبو عبد الله محمد بن البراء المهدوي وقد وصل الى دمشق في هذه السنة يعني سنة اثنين وثمانين(٢) وخمسمائة قال فسألته عن احوال افريقية فقال : هلك العباد وخرب البلاد ثم قال ، وسأخبرك ببعض ما تستدل به على الحال : لما نزل علي بن اسحاق على منزل بالشرف من الجزيرة وهو على بعض يوم من تونس سأله أهله الامان فامنهم ودخل عسكره الى المنزل المذكور فانتهبوا جميع ما فيه وسلبوا أهله حتى ثيابهم التي تواريهم وامتدت أيدي العبيد وجفاة الاعراب الى البنات (٣) فاضطر أهله الى الفرار فخرجوا بأجسامهم الى تونس ونزلوا بين سوريها فدخل عليهم فصل الشتاء هنالك فأهلكهم البرد والماء ، واحصى من مات منهم بتونس فكانوا اثنى عشر الفا ، انتهى كلام ابن شداد

وفي سياوة الفاضل ابن اليساني(٤) أن الجبر وصلهم في جمادى الاخرى من سنة خمس وثمانين ان يحي بن اسحاق اليوردي وأبا

(١) هو أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن شداد بن تميم بن باديس الصنهاجي ملك افريقية مؤلف كتاب «الاعلاق والبيان في أخبار المغرب والجزيرة» من رسائل نشر الفرق الشمالي للجمعية وقد ماتت الى القسم وقعه به رجاء من فيزاء الفسكر في مولة صلاح الدين الايوبي

(٢) سقط لفظ ثمانين في بعض النسخ

(٣) في بعض النسخ « البنات » وفي بعضها « النساء » انظر الفاضل في التاريخ لابن الاثير ج ١١ ص ٢٢٢ .

ابن شدّاد

[توفي بعد 582 هـ / 1186م]

ابن شدّاد، أبو محمد عبد العزيز بن شدّاد بن تميم بن المعزّ بن باديس (توفي بعد 582 هـ / 1186 م)، ويسمّى كذلك أحيانا أبا الغريب عزالدين الصنهاجي. إخباري من أصل زيري - فقد كان حفيد تميم (454-501هـ / 1062-1108 م) وابن أخي يحيى بن تميم (501-509هـ / 1108-1116 م). عاش ابن شدّاد أولا في حاشية آخر أمراء المهديّة الزيريين، الحسن بن علي، ويبدو أنّه اتبعه، بعض الوقت على الأقل، لدى الأمير الموحّدي عبد المؤمن، لما قصده الحسن ملتمسا دعمه له. و يبدو أنه شُهِدَ بحضوره في بَلَرْم سنة 551 هـ / 1156-1157م. وفي النهاية، سافر إلى المشرق واستقرّ بدمشق، وذلك على أكثر تقدير سنة 571 هـ/ 1175-1176 م؛ وكان ما يزال يعيش بها سنة 582 هـ / 1186م، وتمكّن من الحصول على شهادة أحد سكّان المهديّة حلّ في هذا التاريخ بمدينة دمشق، بخصوص أحداث إفريقية (التجاني، **الرحلة**، ط، تونس، 1958،14).

استعمل تاريخه - واتجاهه مضادّ للشيعة (انظر المقريزي، **اتّعاظ** ..، ط. الشيّال، القاهرة، 1948،47) - ويبدو أن عنوانه الكامل كان كتاب **الجمع والبيان في أخبارالقيروان وفي من فيها وفي سائر بلاد المغرب من الملوك والأعيان**، ابن خلّكان وابن الأثير (**الكامل** ،ط.القاهرة، 1938-1939، VI، 125)، والنويري، والمقريزي، والتجاني (**الرحلة** - تونس ، 1958 14-15، 341-347) وأبو الفداء. وينبغي أن نعتبر هذا التاريخ مفقودا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(الشيّال، مقدّمة ط. **اتّعاظ** .. المقريزي، ص. كاف) وأن ب. لويس B. Lewis (**أصول المذهب الإسماعيلي** The Origins of Ismà 'ilism ، كامبريدج 1940، 57) قد أشار خطأ الى مخطوطات عديدة منه في مصر وسوريا .

البيبليوغرافيا : أشار إلى المصادر بروكلمان Brockelmann، الملحق II، 575 ؛ آماري Amari، **تاريخ مسلمي صقليّة** Storia، ط، نلينو Nallino، 1933، I ، 40-41 (وانظر كذلك III 486) هـ.ر. إدريس H.R.Idris] **بلاد البربر الشرقيّة تحت حكم الزّيريين** I Zirides ، ـ XVIII - XIX-

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

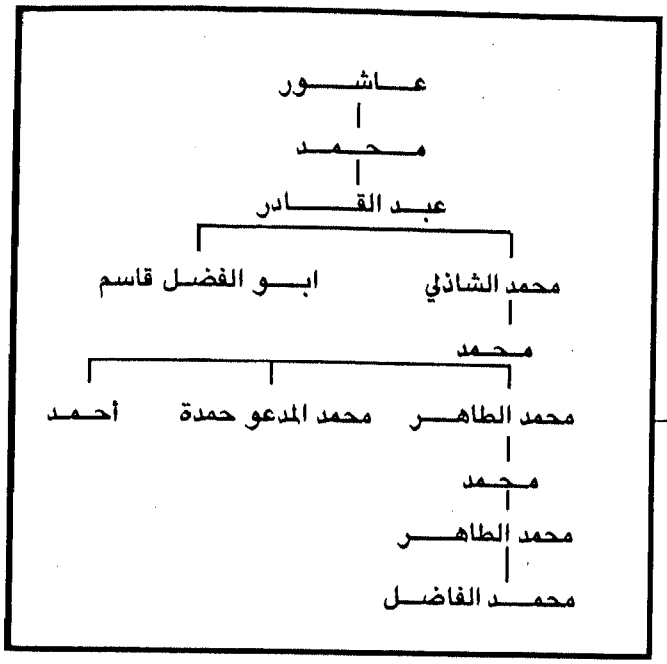

ابن عاشور

[أسرة]

ابن عاشور، أسرة تنتمي إلى الأدارسة، من أصل مغربي، استقرّت بإسبانيا المسلمة. يقال إن عاشور، الهارب للمحافظة على دينه، قدم إلى المغرب إثر ذلك واستقرّ به. ولد ابنه محمد بسلا (حوالي 1030هـ 1621م)، وبدأت الأسرة، مع محمد ابن عاشور في شقّ طريقها في التاريخ التونسي، في البداية عن طريق «التصوّف»، ثم عن طريق الفقه، والتعليم والخطط الدينية. برز محمد ابن عاشور، وقد أخذ « التصوّف » بالمغرب عن الشيخ محمد القشيري، في تونس بصفته شيخا لإحدى الطرق. وقد استقرّ بتونس، إثر عودته من الحج، وكان يبلغ حوالي الثلاثين سنة من عمره، وامتهن بها صنع الشواشي. وفي تونس، وقع في البداية تحت تأثير الشيخ علي الزواوي، وقد خلف هذا الشيخ عند وفاته، بصفته شيخا للطريقة في الزاوية التي تحمل اسمه، وكانت تقع في نواحي باب المنارة، أحد أبواب العاصمة، وقد اندثرت منذ بضع سنوات فقط. لكنّه اتبع في النهاية طريقة أبي الحسن الشاذلي.

وكان لمحمد بن عاشور موقف منكمش، وربما مُعاد، إزاء السلطة، وعاش حياة الفقر الشديد. وتنسب إليه هذه القولة التي لا تخلو من النبل « ما نحن ممن يذكر الله بالكراء والدراهم» (**ذيل**، 197).وعند موته (1110 هـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

/ 1698 ـ 1699م)، دفن في الزاوية التي ورثها عن شيخه علي الزواوي.

وخلفه ابنه عبد القادر، الذي بشرّه به في الحلم المتصوّف الشهير، سمّي ابنه، بصفته شيخا للطريقة. وكان أقل نفورا من أبيه، وعاش في بعض اليسر.

وقد وصف فعلا بأنه شيخ طريقة ميسور الحال يتمتع بنوع من السلطة المعنوية التي يضعها في خدمة جميع الذين يطلبون حمايته، بما في ذلك الذمّيون من اليهود والنّصارى. ولم يكن الدراويش القادمون على حدّ السواء من الهند ومن الشرق يحجمون أبدا عن طرق بابه. ولمّا كان حسين خوجة بصدد تأليف كتابه **الذّيل** كان ابن عاشور على قيد الحياة.

وبدأت العائلة، بأبناء أحفاده، أحمد (المتوفّ 1255 هـ / 1839 م)، ومحمد المدعو حمدة (المتوفّ 1265 هـ / 1849م)، وخاصة محمد الطاهر (المتوفّ 1284 هـ / 1868 م)، تبرز في ميدان العلوم الإسلامية. فدرّس أحمد بجامع الزيتونة الأكبر النحو والفقه. وشغل مهنة عدل موثق، ودفن عند موته في الزاوية الموروثة عن الشيخ علي الزواوي. وتعاطى محمد المدعو حمدة أيضا التدريس. ولمّا عيّنه الباي أبو العباس أحمد (1253ـ1271 هـ / 1837 ـ 1854 م)، من غير رغبته، قاضيا للجيوش، لجأ إلى الوزير مصطفى خزندار ليراجع الباي قراره. ودفن هو أيضا في زاوية سيدي علي الزواوي التي يبدو أنها تحوّلت إلى مقبرة للأسرة .

وكان محمد الطاهر أشهر الإخوة الثلاثة، فبرز في نفس الوقت بصفته أديبا ـ وقد احتفظ بنماذج عديدة من نثره وشعره ـ ونحويّا وفقيها. وله **حاشية على شرح القطر** (وهو أثر بقي أساسا للسنة الثانية من التعليم الزيتوني إلى إصلاح سنة 1958)، **وتلخيص لشرح ابن مرزوق لبردة البوصيري.** وعينّ في 25 رجب 1267هـ / 26 ماي 1851م، قاضيا أكبر لتونس، وهي خطة تركها سنة 1277 هـ/ 1860 ـ 1861م. ليشغل خطة الإفتاء. وجمع، بعيد ذلك، بينها وبين نقابة الأشراف. وتوفي في21ذي الحجّة 1284 هـ / 14 أفريل 1868م، ودفن في نفس الزاوية التي دفن فيها أخواه .

وتواصلت تقاليد الأسرة في شخص حفيده، المسمّى كذلك محمد الطاهر (المولود في 1296 هـ / 1879 م) [انظر الفصل المخصص له في «دامت»] وفي شخص ابن حفيده محمد الفاضل .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيبليوغرافيا: حسين خوجة، **الذيل لكتاب بشائر أهل الإيمان**، تونس 1908، 192 ـ 199؛ محمد بن محمد مخلوف، **شجرة النور الزكية في طبقات المالكية**، القاهرة، 1349 / 1930، I ، 392 ، الرقم 1565؛ أحمد بن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان**، تونس، 1966 ، VIII ، الأرقام 243 ، 283 ، 394 ؛ **التاريخ الباشي**، مخطوط دار الكتب الوطنية التونسية، رقم 1794 ، 316 ؛ الوزير السراج، **الحلل السندسية**، مخطوط تونس، الأحمدية (الزيتونة)، رقم 6205 ، و : 98- 99؛ محمد النيفر، **عنوان الأريب**، تونس، 1351 / 1932 ، 122- 127؛ محمد البهلي النيّال، **الحقيقة التاريخية للتصوّف الإسلامي**، تونس 1965، 306- 307.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

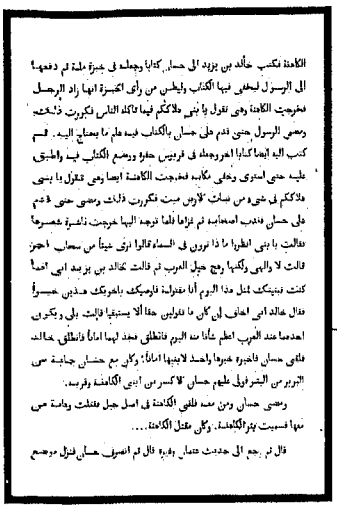

الكاهنة فكتب خالد بن يزيد الى حسان كتابا وجعله فى جمرة ملة ثم دفعها الى الرسول ليخفى فيها الكتاب وليطمن من رأى الجمرة انها زاد الرحيل فخرجت الكاهنة وهى تقول يا بنى غلاكم فيها فاكل الناس فكبرت ذلك وعمى الرسول حتى قدم على حسان بالكتاب فيه علم ما يعمل اليه. ثم كتب اليه ايضا كتابا اخر وجعله فى قرطيس حمار ووضع الكتاب فيه واطبق عليه حتى استوى وخفى مكانه فخرجت الكاهنة ايضا وهى تقول يا بنى غلاكم فى شىء من نسائك فلا ترض منه فكبرت ذلك وعمى حتى قدم على حسان فذهب اصحابه ثم غزاها فلما توجه اليها خرجت ناشرة شعرها فقالت يا بنى انظروا ما ذا ترون فى السماء قالوا نرى شيئا من سحاب اجمع قالت لا والبى ولكنها رجل جهل العرب ثم قالت لخالد بن يزيد ابى انما كنت فيتيتك مثل هذا اليوم أنا مقتولة فاوصيك بامرتك هذين خيرا فقال خالد ابى اخاف ان كان ما تقولين حقا ألا يستبقيا قالت بلى ويكون احدهما عند العرب اعظم شأنا منه اليوم فانطلق فعد لها اماناً وانطلق خالد فلقى حسان فاخبره خبرها واخبذ لابيها اماناً وكان مع حسان جماعة من البربر من البشروفل عليهم حسان فلا كسر من اذنى الكاهنة وقرطه.

وعمى حسان ومن معه فلقى الكاهنة فى اصل جبل فقتلت وغادة من معها فسميت بئر الكاهنة. وكلى مقتل الكاهنة....

قال ثم رجع الى حديث عمار وغيره قال ثم اصيف حسان فنزل موضع

حسّان بن النعمان الغسّاني

[توفي بعد80 هـ /699- 700 م]

حسّان بن النعمان الغسّاني، قائد أموي لعب دورا حاسما في دعم غزو إفريقية باحتلال قرطاج والتغلّب في النهاية على الكاهنة [انظر الفصل المخصص لها في « دامت »]. إلاّ أننا نصطدم في تتبع أعماله، بقلة الضبط الزمني، وبعديد التناقضات. والتواريخ المقدمة لوصوله إلى افريقية هي : محرم 68 / جويلية - أوت 69687/ 688 ـ 73689 / 692 - 693، 74 / 693 - 78،694/ 697-698، ولعزله :76/ 77696695/ 78،697 696/ 697-698، 79 / 698 - 699، 82 / 699 - 701 / 84، 702 - 703 / 704، 89 هـ / 707 - 708 م. والتاريخ الزمني الذي أثبته أقدم الإخباريين أي ابن عبد الحكم وابن قتيبة المنحول، والذي أكدّه ابن عساكر، هو التاريخ الأقرب إلى المعقول. فهو يتماشى والتتابع المنطقي للأحداث ويسمح بتجنّب التناقضات .

لقي زهير بن قيس البلوي [انظر الفصل المخصص له] حتفه سنة 69هـ/ 688 - 689 م، وهو يقاتل الرّوم بعد انسحابه من إفريقية. ولم يتمكن عبد الملك بن مروان المشغول بصراعه للخليفة - المضاد عبد الله بن الزبير، من أن يعوّضه على الفور بخلف. ولكن، سنة 73 هـ / 692 - 693 م، هزم ابن الزبير وقتل، واستؤنفت الحرب مع البيزنطيين . وهكذا فهذا التاريخ هو بلا شكّ الذي أرسل فيه حسان مع جيش قوي لإعادة غزو إفريقية. وبعد أن استولى على قرطاج واجتاحها، وركب سكّانها البحر إلى صقليّة، طارد الروم وحلفاءهم البربر في جهة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنزرت. وبعد أن قهرهم من جديد، قذف بالرّوم إلى باجة (= فاقا vaga) حيث تحصّنوا، وبالبربر إلى بونة. وإثر توقفه بالقيروان، سار لقتل الكاهنة. وجانب قلعة المجانة دون مهاجمتها وذهب ليتعرّض إلى انكسار كامل على ضفاف المسكيانة. واضطر وقد طورد والسيف يتهدده إلى قابس، إلى الانسحاب من إفريقية، وذهب لينتظر أوامر الخليفة بقصور حسّان، على أربع مراحل شرقي طرابلس، وقد سميّت كذلك للتذكير به .

وقد سبب سقوط قرطاج انفعالا كبيرا ببيزنطة. فأرسل الامبراطور ليونتيوس Léontius الذي أطاح بجوستنيان الثاني Justinien II سنة 695 م، البطريق جان Jean مع أسطول قوي لاستعادة المدينة، وذلك بالتأكيد بعد جلاء حسّان عن إفريقية. وقد بقي حسّان ثلاث سنوات في البلاد الطرابلسيّة. ثم عاد إلى الهجوم بجيش جديد، سنة 78 هـ / 697 ـ 698 م. حسب المرجح، وبدعم من بعض جماعات البربر الغاضبين من سياسة الكاهنة. وهُزمت الكاهنة ولقيت حتفها في المعركة. ثم وقع الاستيلاء، من جديد، علىَ قرطاج التي أخليت في الوقت المناسب من المدافعين عنها، وتمّ اجتياحها. وعاد حسّان بعد أن عزله عبد العزيز بن مروان ـ شقيق الخليفة وحاكم مصر ـ وعوّضه بمولاه موسى بن نصير (صفر 79 / أفريل ـ ماي 698) إلى المشرق . وعند مروره بمصر، وقع افتكاك جميع الغنائم التي جمعها بإفريقية منه. وتوفيّ وهو يحارب الرّوم سنة 80 هـ / 699ـ 700م .

وتسجّل حملات حسّان الدعم النهائي للغزو العربي. ويعودإليه فضل تأسيس دار الصناعة [انظر الفصل المخصص لها] بتونس، بأمر الخليفة المهتم بتكوين أسطول قوي، وإعادة بناء الجامع الكبير بالقيروان بمواد أمتن . وقد حاول أيضا، وهو يقلّد في ذلك الجهد المبذول آنذاك في المشرق، أن يجهز إفريقية بإدارة ناجعة، ولكي يضمن محالفة البربر وولاءهم، جعلهم يشاركون في الفيء، وبصفة خاصة في تقسيم الأراضي .

البيبليوغرافيا : ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية**، نشر وترجمة أ.غاتو A. Gateau، الجزائر، 1948، 76ـ 87 ، والهامش 97؛ اليعقوبي، **تاريخ**، بيروت، 1960، II، 277 ؛ البلاذري، **فتوح**، القاهرة، 1932، 231؛ ابن قتيبة (منحول)، **كتاب الإمامة والسياسة**، القاهرة، 1904، 97،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

102 (وحـــول هذا الأثر، انظر هـ . بيريس ‹ H. Pérès ›، كتاب الإمامة ...Le Kitab al- Imàma في كراسات تونس .C.T، 1934، 317 ــ 335) ؛ ابن عساكـــر، **تاريخ دمشـــق**، 1332، IV، 146-147؛ ابن الأثير **الكامل**، القاهرة، 1357، IV، 146 ـ 147 ؛ ابن الأبّـــار ، **الحلة**، تحـــ . م .ج . مولـــــر M.J.Müller ، **فـــي دراســـات في تـــاريخ المغرب العربي** Beïträge zur Geschichte der Westlichen Araber، مونيـــخ 1878، 253 ، (تحـ حسين مؤنس، القاهرة، 1963، I64، II، 331 - 332)؛ ابن عـــذاري ، **البيـــان**، تحـ كـــــولان وليفـــي بروفنســـــال Colin et Lévi- Provençal ، ليـــــــدن Leyde، 1948، I ، 34-39؛ النويـــري، **ملحـــق بتاريـــخ البربـــر** L'Histoire des Berbères، ترجمـــــة دي ســـلان De Slane ، باريـــس ، 1925، I 338 ـ 343، ابن خلدون، **العبر**، بيروت 1958 I ، 453 ـ 454 ، IV ، 401 ؛ ابن خرداذبـه، **المسالك**، نشـــر وترجمـــة الحـــاج صادق ،الجزائـر، 1949، 5 والهامـــش 45 ؛ المقـــدسي، **أحســـن التقاسيـــم**، نشـــر وترجمـــــة ش. بلاّ Ch. Pellat ، الجزائـــر، 1950، 63 ؛ البكـــــري ، **المسالـــــك**، ترجمـــــة دي سلان De Slane 22 - 23، 52، 82 - 85 الإدريـــــسي، **نزهـــة**، تحـ هـ بيريـس H. Pérès ، الجزائر، 1957، 90 ؛ التجاني ، **الرحلـــة**، تحـ . ح .ح . عبد الوهـــاب، تونس ، 1960، 249 ؛ المالكي، **ريـــاض**، تحـ . ح . مؤنس، القاهرة 1951، 31ـ38 ؛ ابن ناجي، **معالـــم** I، 54 ، 63 ؛ م. آمـاري M.Amari، **تاريـــخ مسلمـي صقليـــة** Storia dei musulman di Sicilia 1854 - 1872، I" 118، 121 ؛ ش كورتـــوا Ch. Courtois **ذخائر قـــرطاجنيـة وأسطـــورة كارولنجيـة** Reliques carthaginoises et légende carolingienne . فـــي المجلـة التاريخيـــة Revue Historique 1945، 69 ؛ ش، ديـــل [Ch.Diehl] **افريقيا البيزنطيّة** l'Afrique Byzantine، باريس، 1896، 581-587 ؛ هـ فورنال H. Fournel ؛ **البربر** Les Berbers باريس، 1881-1875، I ـ 207-224 أ ـ فـ، غوتيي E.F.Gautier، **ماضي إفريقيا الشمالية** Le passé de l'Afrique du Nord، باريس، 1952، 270- 272.

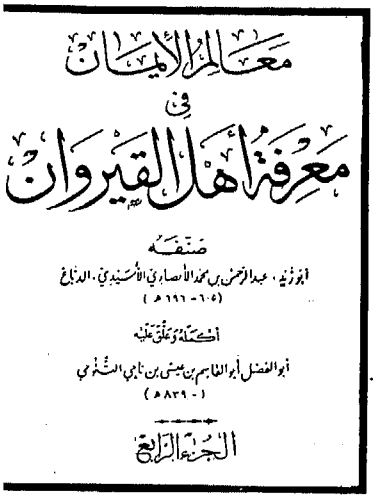
معالم الإيمان
في
معرفة أهل القيروان
صنفه
أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي، الدباغ
(٦٠٤-٦٩٩ هـ)
أكمله وعلق عليه
أبو الفضل أبو القاسم بن عيسى بن أبي الشماع
(-٨٣٩ هـ)
الجزء الرابع

الدبّاغ

[605 ـ 699 هـ / 1208 ـ 1300م]

الدبّاغ، هو أبو زيد عبد الرحمان بن محمد بن علي بن عبد اللّه الأنصاري الأُسيدي. ولد سنة 605 هـ / 1208 م. وتوفّي في سنة 699 هـ/ 1300م. وكان حسب قول العبدري ـ الذي أدلى بشهادة عيان لوطَر كان يقضيه بدون شكّ ـ فريد عصره بين علماء القيروان. وإذا ما اعتمدنا الخبر الذي يقول إنّه مدين بلقب الدبّاغ لتنكّر جدّ أبيه في زيّ دبّاغ جلود قصد الإفلات من مهام القضاء، فإنّه يكون منتسبا إلى أسرة عريقة من فقهاء القيروان. وقد كان العبدري، الذي زاره في سنة 688 هـ / 1289م. وحصل منه على إجازة عامة في كلّ تآليفه، يُثني على كرمه وحسن هيئته وطيب معاشرته وصفاء ذهنه وسعة معارفه. فقد كان متضلّعا في جميع العلوم الإسلامية التقليدية، وكان يقرض الشعر، وكان متقدّما في علوم الحديث. وقد أخذ عن كثرة من الشيوخ (يزيدون على الثمانين). وخصّهم ـ على سنّة عصره ـ ب « برنامج » أو دليل لم يصل إلينا. وألّف مصنّفا في الحديث سمّاه **كتاب الأحاديث الأربعين في عموم رحمة اللّه لسائر العالمين**، وكتابا في التاريخ بعنوان **تاريخ ملوك الإسلام**، وكتابا في المناقب سماه « **جلاء الأبصار في مناقب الأنصار** ». ولم يصل إلينا أيّ واحد من هذه المؤلفات. لكنّ شهرة الدبّاغ تعود إلى كتاب **الطبقات** الذي خصّ به العلماء والأولياء الصالحين الذين عاشوا بالقيروان أو زاروها. وقد رتّبه ترتيبا يعتمد التدرّج الزمني لتواريخ الوفيات. وقد كان عنوان هذا الكتاب فيما ذكره العبدري **معالم الإيمان وروضة الرضوان في**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مناقب المشهورين من صلحاء القيروان. وهو يتألّف من مجلّدين وكان الدبّاغ يقتبس كثيرا من مؤلفات سابقة، ولاسيّما **طبقات** أبي العرب **ورياض النفوس** للمالكي. وقد جرت مراجعة كتاب الدبّاغ بدوره والتوسّع فيه من قبَل إبراهيم العوّاني (المتوفّى حوالي سنة 719هـ / 1320م). أوّلا، ثمّ وبالخصوص من قبل قيروانيّ آخر وهو ابن ناجي الذي أكمل الكتاب بإضافة أخبار حياة علماء عصره و بالتدخّل في ثنايا النصوص التي سبقته بزيادة ملاحظاته الشخصيّة التي يستهلّها في الغالب بفعل «قلتُ» . وبذلك فإنّ مصنّف الدبّاغ لم يصل إلينا إلاّ في هذا الشكل النهائي — أربعة المجلّدات — الذي صاغه فيه ابن ناجي بعنوان **معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**. وهذا الكتاب هو في الحقيقة مؤلّف جماعي يحُيي أمام أنظارنا - بواسطة النوادر والأخبار والعبر المقدّمة في شكل طبقات متتالية - عالم الصلاّح والفقه الشديد التنوّع .

وكانت الطبعة المنشورة بتونس (سنة 1320 - 1325 هـ) كثيرة الضعف والرداءة. وقد أعاد طبع الكتاب بأسلوب أقرب إلى الطريقة النقدية الأستاذ إبراهيم شبوح (مجلّد I القاهرة، 1968). لكنّ هذه الطبعة وقفت عند حدّ هذا الجزء الأوّل. ويبدو أنه ليس من المتوقّع صدور بقيّة الأجزاء .

وقام الأستاذ محمد الحبيب الهيلة من جهته بوضع فهارس مفيدة جدّا، غير أنها بقيت من سوء الحظّ مسحوبة بالآلة الراقنة وقليلة الانتشار.

وينبغي أن نضيف أنّ الدبّاغ قد دفن بالقيروان بجوار باب تونس في تربة أجداده التي كان يطلق عليها اسم سلسلة الذهب. وقد كان فعلا سليل أسرة من مشاهير الأنصار.

المراجع: العبدري، **الرحلة المغربيّة**. تحـ. م. الفاسي، الرباط، 1968، ص 66 -72؛ ابن ناجي، **المعالم**. ج IV؛ ص89- 92؛ الوزير السرّاج،**الحُلل**، تحـ. م.ح. الهيلة، تونس ، 1970، ج I ، ص 262 ـ 270 (ينقل بالخصوص ما كتبه العبدري)؛ ر.برانشفيك، **الدولة الحفصيّة**، باريس،1947، ج II ، ص 382-383.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبها عسكر كسيلة بن لزم مما زحير لقتاله ويخرج اليه فاقتتلا فقتل كسيلة ومن معه فانصرف زحير قافلا الى برقة. ويقال بل حسان بن النعمان الذي كان وجه زحير بن قيس والله اعلم. وكان مقتل كسيلة كما حدثنا يحيى بن بكير عن الليث بن سعد في سنة أربع وستين.

حسان بن النعمان. — ثم قدم حسان بن النعمان واليا على المغرب امره عليها عبد الملك بن مروان في سنة ثلث وسبعين فمضى في جيش كثير حتى نزل اطرابلس واجتمع اليه بها من كان خرج من افريقية واطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن ابي بكير وعلال بن ثروان اللواتي وزحير بن قيس ففتح البلاد واصاب غنائم كثيرة. وخرج الى مدينة قرطاجنة وفيها الروم فلم يصب فيها الا قليلا من متاعهم. فانصرف وغزا الكاهنة وهي اذ ذاك ملكة البربر وقد غلبت على جل افريقية فالتقيا على نهر يسمى اليوم نهر البلاء فاقتتلوا فقتل عديدا فهزمه وقتلت من اصحابه واسرت منهم فمالبثين رحلا واقامت حسان وقد من مكانه الى انطابلس فنزل قصورا من حين برقة فسميت قصور حسان واستخلف على افريقية ابنا صالح وكانت انطابلس واوبية وبراقية الى حد اجدابية من عمل حسان.

فاحست الكاهنة بما من السرد من أصحابه وارسالهم الا رجلا منهم من بني عبس يقال له خالد بن يزيد. فاتيته واقام معها. فبعث حسان الى خالد رسلا فاتاه فقال له ابن حسان يقول لك ما يمنعك من الكذب الينا بخبر.

الكاهنة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كانت **الكاهنة** في مواجهة حسّان بن النّعمان [انظر الفصل المخصّص له في دامت]، روح المقاومة البربرية للغازين العرب، إثر انهيار سلطة الروم الرسميّة المسجّل بسقوط قرطاج (73 هـ/ 692- 693م) .

وشخصيتها الحقيقية ـ وينبغي أن تكون إلى ما نذكر كثيرة التعقّد ـ يعسر حصرها لاسيما أنه لا يمكننا الحصول من ملامحها الحقيقية إلاّ على الانعكاس المحرّف عبر زجاج الأسطورة. فماذا نعلم عن حياتها الخاصة ؟ إن الاتفاق لم يحصل حتى على اسمها الحقيقي، إذ أنّ الكاهنة ليس سوى لقب أطلقه عليها العرب. فيبدو أنها سميّت دَهْيَة ـ ويذكر ابن خلدون (ترجمة دي سلان De Slane، **البربر** I، Berbères، 172) قبيلة بربرية تعرف كذلك بهذا الاسم ـ ويمكن ألاّ تكون دَهْيَا، أو دَمْيَة، أو دَاميَة أو دَاهيَة، أو دَحْيَة سوى اختلافات في الرسم ويسجل نفس التردّد في شأن نسبها، فيبدو أنها ابنة تاتيت، أو كذلك مَاتيا (« ماتياس، ماتيو Mathias, Mathieu ابن تيفان « تيوفان Téophane .) فهل تكون الكاهنة من هؤلاء البربر ذوي الدّم المختلط، الناشئين عن زيجات مختلطة ؟ وقد يساعد ذلك على تفسير النفوذ الذي كان لها لاعلى مواطنيها وحدهم بل وعلى البيزنطيّين أيضا. وهذا الافتراض معقول لا سيما أن عددا من العلامات الأخرى تؤكّده. فقد تزوّجت الكاهنة نفسها — فيما يبدو ـ يونانيّا. وكان لها بالفعل، كما يؤكّد لنا، ابنان : أحدهما بربريّ النسب، والثاني من أب يوناني. وكانت أيضا، على عكس ما ظنّ، مسيحية العقيدة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لا يهوديتها. ومن المؤكد أن قبيلتها جراوة، وهي فرع من زناتة التي ترتبط بدورها بالبُـترذوي المعيشة البدوية والرعوية خاصة، قد اعتنقت في البداية اليهودية، لكنّها تحوّلت، فيما بعد، مثل قبائل أخرى كثيرة، ومن ضمنها نفوسة مثلا، إلى المسيحية. وحين دخلت الكاهنة ركح التاريخ، كانت أرملة ومتقدمة في السنّ جدّا بالتأكيد. و تمنحها الأسطورة 127 سنة من العمر ،قضت منها 35 ملكة على الأوراس حيث كانت قد تأسّست بعد مـنذ سنة 477 م بفضل ثورة مظفّرة على الوندال، مملكة بربرية مستقلة أولى يحكمها يابداس Iabdas . وكانت، مثل هذه «الملكات العربيات »اللاّئي يذكرهن ت . فهد (**الكهانة العربية** -La Divina tion arabe، 98) بلا شكّ « مجذوبة » . وفي وقت الوحي، كانت تدخل في انفعال كبير، وتنفش شعرها وتدقّ على صدرها. وهكذا كانت تستخدم أيضا تقنيات أكثر كلاسيكية في ميدان الكهانة، مثل قراءة المستقبل في الحصى ،ولا شك أنها تدين بقسم كبير من نفوذها إلى مواهبها التنبّؤية .

وقد رفعت الكاهنة القفّاز الذي ألقاه كُسَيْلة [انظر الفصل المخصّص له في «دامت]ـ وكان جنّد خاصة البرانس الحضريّين. وفي مرحلة أولى تمّ لها النصر. وبعد أن انتزع حسّان بن النعمان [انظر الفصل المخصص له] قرطاج ودمّر القوات البيزنطيّة المنظمة، توجّه نحو الأوراس، قلعة المقاومة البربرية. وبعد أن جمع قواته على ضفاف المسكيانة، انطلق في الهجوم. وفعلت الكاهنة مثله، بعد أن دمّرت بجاية، وكانت حسب المرجح، عاصمتها، رغبة في منعها من السقوط المحتمل في أيدي المعتدين. ودارت الموقعة الحاسمة على ضفتي وادي نيني، غير بعيد دون شكّ عن المحطة التي تحمل نفس الاسم والتي توجد اليوم على 16 كلم جنوبي عين بيدة على السكة الحديدية المؤدية إلى خنشلة. وكانت المعركة نكبة على حسان حتى أن الوادي الذي شهدها لم يسمّ لدى العرب، ولمدة طويلة سوى نهر البلاء، أو كذلك، ولأسباب أقل قابلية للتفسير، وادي العذارى. وعرفت هذه الحملة المشؤومة بالنسبة إلى حسّان نهايتها في أرض قابس خلال معركة أخيرة ألقت بالغازين خارج إفريقية .

وتلقّى حسّان الأمر بالتوقّف عن الانسحاب على أربعة مراحل شرقي طرابلس حيث أقام معسكره (قصور حسان) وانتظر ساعته. ووسعت الكاهنة في سيطرتها، لكنّها لم تمدّ نفوذها بلا شكّ مثلما تؤكّده بعض المصادر (ابن عذاري، **البيان** ،I، 36، النويري، **نهاية**، دي سلان De Slane، **البربر** Berbères ، I، 340) إلى كامل المغرب، ولا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حتى إلى كامل إفريقية . وعاملت الأسرى العرب معاملة حسنة وتبنّت من بينهم، بفضل طقس الإرضاع المصطنع البربري، قائدا ذا نفوذ، هو خالد بن يزيد - ويسمّى كذلك يزيد بن خالد - وينسب إليه دور التجسّس لصالح حسّان. فهل كانت ترغب في إحداث علاقات طيّبة مع العرب ، وحملهم على التخلّي عن مراميهم التي كانت بلا شكّ مطلّعة عليها بوسائل أجدى من الكهانة، و من المرجح أنّ فشل هذه السياسة هو الذي حملها بعد استنفاد جميع الوسائل على اتخاذ قرار جذري ثقيل العواقب : تخريب البلاد، متبعة في الجملة، أمام عدوّ عنيد، طريقة « الأرض المحروقة» وكانت بعد، سنة 539 ، طريقة سليمان في مواجهة الملك يابداس Iabdas المتحصّن في الأوراس (ش .ا . ديفورك Ch.E.Dufourcq، **بلاد البربر وايبريا** ... Berbérie et Ibérie، في المجلّة التاريخية Revue Historique، الكراس 488 ص. 300، وينقل عن بروكوب Procope. وقد سبّب هذا التخريب مناقشات طويلة. وينكره بعض المؤرخين العصريّين. كما أن الإخباريّين العرب بالغوا فيه بلا حدّ. وفي الواقع، يبدو أنه لا يمكننا بصفة معقولة إنكاره، ولا إعطاؤه أبعاد كارثة حقيقية. ولم يكن يتعدّى بلاريب إطار بعض المناطق من إفريقية، لكنّه رغم ذلك كان هاما إلى درجة تكفي لإغضاب أقسام واسعة من السكان الحضريّين، فحين لم يبحث هؤلاء السكان عن ملجإ في الجزرالمتوسطية، وحتى إسبانيا، رضخوا لالتماس تدخّل حسّان . وغزا حسّان الذي كان مطلعا على تطور الوضع وقد تلقّى مددا، من جديد إفريقية، سنة 78 هـ / 697 - 698 م (التاريخ غير ثابت)، وفي هذه المرة دون شكّ بدعم بعض الفرق البربرية الغاضبة من سياسة الكاهنة. ومن ذلك الحين، لم يبق للأهالي قضية مشتركة. وبدأت ريح الهزيمة من ذلك الوقت بالتأكيد تهب على الأوراس، وهذه الريح بلا شكّ عند تخلّلها لشعر الكاهنة المنشور في شطحتها، قد أوحت إليها، وهي فريسة الاضطراب والعصبية تلك التنّبؤات المنذرة التي لم تكن سوى إنذارات يائسة، والتي نقلت لنا باعتبارها من الوحي.ووقع الصدام الأول في جهة قابس، ولم يكن مواتيا للكاهنة. وهنا ينبغي أن نضع منطقيّا الواقعة المأساوية، التي تبدو غير معقولة ولكنّها حقيقية حسب المرجح، وتقدم لنا « الملكة »، وقد أصبحت واثقة من هلاكها، تنصح أبناءها بتغيير المعسكر في الوقت المناسب. وأسرعت، هي نفسها، وقد تعقبها حسّان، للّجوء إلى جبال الأوراس. ودارت المعركة الأخيرة في مكان يسميه المالكي (**رياض**، I،36) طرفة، وليست طبرقة - ويثبتهاالبكري (**المسالك** ،

57 ، الترجمة 121)، وابن ناجي (**معالم** ، I، 61) وابن أبي دينار (**المؤنس**، 35) – بدون أدنى شكّ سوى تحريف في الرسم. وفي هذا الموضع ، أي على الأرجح في مخرج جبل نشار على بعد ما يقارب 50 كلم شمالي تُبنة، خاضت الكاهنة معركتها الأخيرة في تلاحم ظنّه الطرفان، كما أثبت لنا، تلاحم الإفناء، قبل أن تسقط قتيلة بجانب بئر سُمّيت طويلا باسمها. إنّ عزم الكاهنة وحزمها قدأثرا أيما تأثير،ويرى فيها بعض المؤرّخين المحدثين نوعا من جان دارك Jeanne d'Arc بربرية (دو لارتيغ de Lartigues، دراسة أحادية monographie، 182) .

البيبليوغرافيا ـ المصادر (حسب الترتيب التاريخي) :

ابن عبد الحكم، **فتوح**، تحـ . وترجمة أ. غاتو A.Gateau، الجزائر، 1948، 76 – 78 ؛ البلاذري، **فتوح**، تحـ. رضوان محمد رضوان، القاهرة، 1932، 231؛ المالكي **رياض**، تحـ. ح. مؤنس، القاهرة، 1951، I، 32–36؛ البكري **المسالك**، تحـ. وترجمة دي سلان De Slane، باريس 1965، النص 87 ، 20 ، 31 ، 57 ، 145 ، 182 ، الترجمة 22 – 23 ، 48 ، 69 ، 121 ، 277 ، 340: ابن الأثير، **الكامل**، القاهرة، 1357 / 1938– 1939، 31– 33 ؛ ياقوت، في نيني ؛ عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، **فتح العرب للمغرب**، تحـ. أليفي بروفنسال E.Levi Provençal ، في مجلة RIEEI، مدريد 1954، II ، 222– 223 (الترجمة في أرابيكا Arabica 40 41؛) ابن الرقيق (منسوب اليه)، **تاريخ**، تحـ. م. الكعبي، تونس 1968 ، 55 – 64 ؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ. ج. س. كولان G.S.Colin و أ. ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، ليدن Leyde، 1948، I، 35– 38 ؛ التجاني، **الرحلة**، تونس، 1958 ، 58 ؛ النويري، **نهاية** ، ترجمة دي سان DeSlane في البربر Berbères ، الجزائر، 1852، I، 340– 342؛ ابن خلدون، **العبر**، بيروت 1959 ، VI، 214 – 218 ، 219 ، VII ، 17–18 (ترجمة دي سلان De Slane **البربر** Berbères، I ، 208– 209 ، 213– 215 ؛ ابن ناجي، **معالم**، تونس 1902، I، 55 ؛ ابن أبي دينار، **المؤنس**، تونس، 1967 ، 21 ، 34 – 35 الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـ.م. ح. الهيلة، تونس، 1970، I، 533 – 537 ؛ المولى أحمد، **الرحلة**، فاس د.ت ، 48 – 51 (ترجمة بربروجر Berbrugger رحلات Voyages، باريس،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1846 234-241؛ الورثيلاني، **نزهة**، الجزائر، 1326/ 1908، 101- 104 ؛
ابن أبي الضياف، **إتحاف**، تونس، 1963، I، 82 - 83 ؛ النصيري،
استقصاء، الرباط 2 / 1954 ، I، 82-83.

الدراسات الحديثة : م ، دلآركي M.Dall'Arche، **اختفاء المسيحية وانتشار الإسلام في إفريقيا الشمالية** Scom-parsa del Cristianesmo ed espansione dell Islam nell Africa Settentrionale رومة، 1967، 125 - 132 ؛ س. و. بارون S.W.Baron **تاريخ اجتماعي وديني لليهود** A Social and religious history of the Jews، الترجمة الفرنسية، باريس، 1961، III، 107 و 323 - 324 ؛ ش . ا - ديفورك Ch. E. Dufourcq ، **بلاد البربر وإيبيريا في القرون الوسطى : مشكل قطيعة** Berbérie et Ibérie médiévales : un problème de rupture Revue Historique في المجلة التاريخية باريس، 1968، الكراس 488 ، 297 - 302، 311 ؛ هـ . فورنال H.Fournel، **البربر** Berbers، باريس، 1875- 1881، I، 215- 225؛ ماسكوراي Masqueray ، **تقاليد الأوراس** Traditions de l'Aurès، في. نشرة الاتصال الإفريقي Bulletin de Correspondance Africaine، 1885 / 1 - 2 ، 80 - 83؛ ا مرسيي E.Mercier، **تاريخ إفريقيا الشمالية** Hist.de l'Afrique Septentrionale باريس ، 1888، I، 212- 216 ؛ دو لارتيغ de Lartigues، **دراسة أحادية للأوراس** Monographie de l'Aurès ، قسنطينة، 1904 ، 182؛ أ. ف . غوتيي E.F.Gautier، **ماضي إفريقيا الشمالية** ‹ Le passé de l'Afrique du Nord› باريس ، 1952، 270 - 280 ؛ ج . مارسي G.Marçais ، **بلاد البربر الإسلامية والمشرق في العصر الوسيط** La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen -Age، باريس، 1946، 29، 34-35؛ ح. مؤنس، **فتح العرب للمغرب**، القاهرة، 1947، 242 - 259 ؛ أ. غاتو A.Gateau، **غزو إفريقيا الشمالية** Conquête de l'Afrique du Nord باريس، 1948، 161، عدد 106؛ أ.ليفي بروفنسال E.Lévi.Provençal، **رواية جديدة عن غزو العرب لإفريقيا الشمالية** Un nouveau récit de la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes، في أرابيكا Arabica، I، (1954) 32- 33؛ هـ.ز. هرشبوغ Z. Hirschberg **الكاهنة البربرية** Ha-Kahina ha- berberit في تربيز Tarbiz، XXVI، (1957) 370 - 383 ؛ ت لفيسكي T.Lewicki، **الأنبياء والمتكهنون والسحرة لدى البربر في القرون الوسطى** , Prophètes

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

devins et magiciens chez les berbères médiévaux في الورقة الشرقية
Folia Orientalia ، 1965، VII، 4 ، 6 ؛ نفسه، بقاء العبادات القديمة
والعقائد الوثنية لدى بربر القرون الوسطى في العهد
Survivances chez les berbères médiévaux d'ère musulmane de cultes an-الإسلامي
ciens et de croyances païennes، في الورقة الشرقية Folia orientalia، 1967،
VIII، 7 ؛ سعد زغلول عبد الحميد، تاريخ المغرب
العربي، القاهرة، 1965، 182 - 195؛ م سيمون M.Simon، التهوّد البربري
في إفريقيا القديمة Le judaïsme berbère dans l'Afrique ancienne،
في مجلة التاريخ والفلسفة الدينيتين Rev.d'Hist. et de Phil .religieuses،
ستراسبورغ، 1946، 6، 8؛ ت، فهد، الكهانة العربية La Divination
Arabe، ليدن Leyde، 1966، 92 - 93 ، 97 - 98، 100؛ م : الطالبي، قطعة
جديدة من تاريخ المغرب الإسلامي (62هـ / 196 - 682 / 812)، ملحمة
الكاهنة Un nouveau fragment de l'histoire de l'Occident musulman, l'épopée
d'al- Kàhina في كرّاسات تونس C.T. ، 1971 ، عدد 73.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

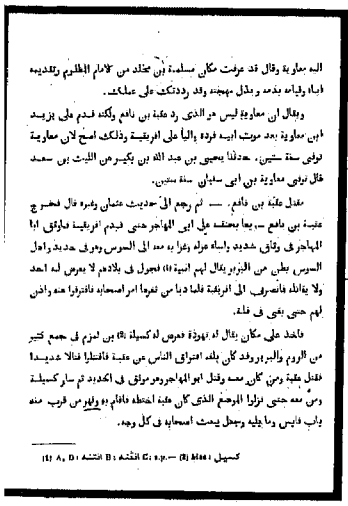

اليه معاوية وقال قد عرفت مكان مسلمة بن مخلد من الاسلام العظيم وتقديمه اياه وقيامه بذمه ومثل مهمته وقد رددتك على عملك.

وقال ان معاوية ليس هو الذي رد عقبة بن نافع ولكنه قدم على يزيد ابن معاوية بعد موت ابيه فرده واليا على افريقية وذلك اصح لان معاوية توفي سنة ستين. حدثنا يحيى بن عبد الله بن بكير عن الليث بن سعد قال توفي معاوية بن ابي سفيان سنة ستين.

مقتل عقبة بن نافع. — ثم رجع الى حديث عثمان وغيره قال فخرج عقبة بن نافع — يعني بعضهم على ابي المهاجر حتى قدم افريقية فلقي ابا المهاجر في وثاق شديد واساء عزله وغزا به حتى الى السوس وهو في حديد واهل السوس يطيبون من الغزو يقال لهم انية (1) فجول في بلادهم لا يعرض له احد ولا يقاتله فانصرف الى افريقية فلما دنا من قفصة امر اصحابه فاقترفوا منه واخذ لهم حتى بقي في قلة.

فاخذ على مكان يقال له تهودة فعرض له كسيلة (2) بن لمزم في جمع كثير من الروم والبربر وقد كان بلغه اقبال الناس من عقبة فاقتطع قتالا عديدا فقتل عقبة ومن كان معه وقتل ابو المهاجر ومولى في العدد ثم سار كسيلة ومن معه حتى نزلوا الموضع الذي كان عقبة اختطه فاقام به وبقربه من قريب منه باب قابس وما يليه وبعمل يحمت اصحابه في كل وجه.

(1) A, D : انشة B : انشة C : s.p. — (2) Mss : كسيل

كُسيْلَة

[القرن الاول هـ / السابع م]

كُسيْلَة بن لمْزَم أو كَسيلَة، هو على آثار مسينيسا ويوغرطة، أحد مشاهير وجوه صراع البربر من أجل استقلالهم. من المؤكد أن كسيلة كان، سنة 55 هـ 674 م، حين قدم المولى أبو المهاجر دينار من مصر لتعويض عقبة بن نافع، حاكما على ولاية المغرب التي وقع غزوها حديثا، ملك الأوْرَبة، وهو حلف واسع لقبائل البرانس التي كان أغلبها حضرا. وكان لأرض أوْربة آنذاك مركز هو جهة تلمسان، بوماريا Pomaria القديمة، وكان يمتد دون شكّ من غرب الأوراس إلى وليلة (= فولْبيليس Volubilis) إلى شمال فاس. ولنذكر بأن إدريس الأول قد رفعه إلى الحكم أوربة وليلة. ولاريب أنه حين تمّ الفتح، كان هؤلاء قد مُسّحُوا بصفة واسعة. وفعلا، فإن عاصمتهم تلمسان قد حافظت، حسب شهادة البكري، إلى القرن الخامس / الحادي عشر، مع ملامح حضارتها العتيقة، على سكّان كثيرين من المسيحيّين. وفي تلمسان، اصطدم أبو المهاجر بكسلية. وعرف الحكم الجديد الذي عوّض سياسة القوّة بسياسة المصالحة، كيف يجد حليفا في ملك الأوْربة. واعتنق كُسيلة الإسلام، واستقرّ من ذلك الحين مع أبي المهاجر في تكروان، معوّضة العاصمة التي أسسها عقبة بن نافع، والتي يمثل اسمها، بسابقته، برنامجا كاملا للحلف العربي البربري .

وانجرّ عن موت مؤسس الدولة الأموية معاوية تغيير في السياسة. فسلك عقبة، سنة 62 هـ / 681 م، من جديد طريق إفريقية. ولم يكن يحلم إلاّ بالثأر والجهاد الكبير. وفي عهده، عادت سياسة إخضاع البربر بالقوّة، بأعنف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مما كانت عليه. وكان أول أعماله أن ألقى بأبي المهاجر في الأغلال، وسجن كُسَيلة، وأعاد إلى العاصمة، مع اسمها القديم، المكانة التي اختارها لها في المنطلق ، خلال فترة حكمه الأولى. وشرع، وهو يجرّ في إثره أبا المهاجر وكُسيلة، في زحفه الكبير الذي سيوصله - ولا سبب جديّا للشكّ في ذلك - إلى المحيط الأطلسي. وفي الطريق، وعلى الرغم من تحذير أبي المهاجر، تفنّن بصفة خاصة في إهانة « الملك » البربري. ونعلم المشهد الأنموذجي الذي وصفته كلّ المصادر، حيث يجعل عقبة كسَيْلة، للإمعان في إهانته، يسلخ كبشا في حضرته .

وفي مرحلة أولى، يبدو أن الحملة الخاطفة التي قادها بصفة غير متوقّعة للغاية، بما أنها عقبت سياسة سلفه في السلم والمصالحة، قد استفادت من مفعول المفاجأة، مما يفسرّ على الأقل جزئيا، انتصاراته الأولى الخاطفة. لكن سرعان ما نظمت المقاومة. وبالفعل، فإن عقبة لم ينتزع أي حصن كبير. وتحالف البرانس، أكثر البربر رَوْمَنَة، مع البيزنطيّين. واتصل الأوْربة سرّا بزعيمهم كسيلة. وفرّ كُسَيلة، ولا ندري في أي موضع، من عقبة، وتزّعم المقاومة. فهل ارتكب عقبة عملا متهوّرا، وقد وثق بصفة مفرطة في انتصاراته، مثلما تؤكّد جميع المصادر، حين أعاد أكثر قواته إلى القيروان، ولم يحتفظ معه إلاّ بكمشة من الرجال تبلغ ثلاثمائة فارس، حسب ما يروى ؟ أم أنه كان من اللاّزم إنجاد العاصمة بصفة عاجلة وقد هددها البيزنطيّون ؟ أم أنّ الأمر يتعلق بأكثربساطة بتصرف غير منضبط من الجنود المرهقين بحملة طويلة شاقة ؟ ومهما كان الأمر ، فقد وجد عقبة نفسه جنوبي بسكرة، بتهودا (= تابوديوس Thau-deos) في مواجهة كسيلة وكان على رأس جيوش عتيدة من البرانس والبيزنطيّين، ولقي بها مع جميع رجاله، ومن ضمنهم أبو المهاجر، الميتة الملحمية العظيمة التي كان يحلم بها، والتي جعلت أسطورته تخلّد. وتمّ تشييد ضريح على موقع المعركة، وهو ضريح سيدي عقبة الذي تحول إلى محجّ مازال إلى اليوم مقدسا .

وفي القيروان، كان الفزع، ممّا يدلّ على أهمية انتصار كسيلة، وخاصة على كثرة قواته. وتغلّبت في نهاية الأمر، فكرة التخلّي عن البلاد، وهي فكرة دافع عنها حنش الصنعاني على فكرة المقاومة التي دعمها زهير بن قيس البلوي. فانسحب الجيش إذن. لكن القيروان لم تفقد كامل سكّانها العرب والمسلمين. فإنها لم تعد بعد مجرّد معسكر للجيش، وهذا الحدث

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يستحق الملاحظة. ومن سنة 64 إلى 69 هـ / 683 - 688 م، أصبحت عاصمة مملكة بربرية واسعة، يحكمها كسيلة. ويلاحظ ابن عذاري (**البيان** ، I، 31) « أمّن كسيلة من بقي بالقيروان من المسلمين، وأقام بالقيروان أميرا على سائر إفريقية والمغرب، وعلى من فيه من المسلمين » فلا كراهية للأجنبي إذن، ولا اضطهاد، ولا تعصّب دينيا. ولنلح على هذا الحدث الذي نقله شهود لم يكن لهم أي سبب للرفق بخصومهم. فقد أكدّوا لنا أن كسيلة نفسه حرص على ألاّ يرتد بعد انتصاره. ومن البديهي أن هذه الاجراءات تنم، عن برنامج سياسي كامل يهدف بالتأكيد، إلى أن ينتزع من العرب كل تعلة دينية لغزو المغرب من جديد .

لكن موجة الغزوات لم تكن بعد قد انحسرت. فلما هدأت الإزمة التي اندلعت في المشرق بثورة ابن الزبير، اتجه زهير بن قيس البلوي من جديد مع جيش قوي إلى إفريقية. واختار كُسَيلة، الذي لم يكن واثقا من مؤخرته بالقيروان، أن يذهب لانتظار خصمه في ممّس، على بعد 50 كلم غربي العاصمة، أي في منطقة يمكن للجبل أن يكون ملجأ في حالة الهزيمة. وكانت الموقعة، التي قتل فيها، في غير صالحه. لكن ينبغي أن نعتقد أنها لم تكن حاسمة بالقدر الذي تزعمه المصادر. وفعلا، فعلى الرغم من أن زهيرا كان منتصرا، فقد فضّل أن يغادر البلاد من جديد، حتى لا ينهار أمام ملاذّ الدنيا، حسب ما قيل. وذهب بدوره ليلقى حتفه، على طريق العودة، ببرقة حيث كان البيزنطيّون هجموا من البحر. فهل كان الأمر يتعلق بعملية مدبّرة تهدف إلى إيقاع العرب في الفخّ الإفريقي؟، وهي عملية لم تنجح لأنهّا كانت سيئة التنسيق فلو كانت محاولة كُسَيْلة لتكوين امبراطورية كبرى تحكم من المدينة التي أسّسها عقبة بن نافع نجحت، لكان تاريخ المغرب قد أخذ اتجاها آخر بالتأكيد. لكن هل كان البربر ناضجين لتحقيق مثل هذا الهدف ؟ ومع الكاهنة (انظر الفصل المخصص لها في « دامت ») سينتقل مشعل المقاومة إلى البترْ، ولكن بلا نجاح دائم أيضا .

البيبليوغرافيا : المصادر(مرتبة زمنيا) : ابن عبد الحكم، **فتوح إفريقية والأندلس**، نشر وترجمة إلى الفرنسية بصفة جزئية، أ. غاتو A. Gateau، الجزائر 1947، 70 - 77؛

الرقيق (منحول)، **تاريخ** تحـ م. الكعبي، تونس، 1968، 46 - 52؛ المالكي، **رياض**، تحـ ح. مؤنس، القاهرة، 195، 21 - 31؛ البكري، **المسالك** نشر وترجمة فرنسية دي سلان De Slane، باريس، 1965، 1511497/47331/ 23، 50/ 108؛ ابن الأثير، **الكامل**، طـ بيروت، 1965، III، 467 IV، 107، 110، 370 - 372؛ عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم، **نص جديد عن فتح العرب للمغرب**، تحـ أ. ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal، في مجلة معهد مصر بمدريد Revue de l'Institut d'Egypte à Madrid، 1954، 220 (الترجمة الفرنسية في أرابيكا. Arabica، I، 39 - 40)؛ ابن عذاري، **البيان**، تحـ ج. س. كولان G.S.Colin وأ.ليفي بروفنسال E.Lévi Provençal ليدن Leyde، 1948، I، 28- 29؛ النويري، **نهاية**، نشر وترجمة إسبانية بصفة جزئية غاسبار ريميرو Gaspar Remiro في مجلة مركز دراسات تاريخ غرناطة ومملكتها Revista del Centro de Estudios Historicos de Grenada y su reino، VI، (1916)، 19 - 21؛ ابن خلدون، **العبر**، بيروت، 1959، VI، 216 - 218، 297 - 300 ابن تغري بردي، **النجوم**، القاهرة، 1963، I، 158 - 160؛ ابن أبي دينار، **المؤنس**، 1967، 31 - 33

الدراسات (مرتبة ألفبائيا) : أ.ف.غوتيي E.F.Gautier، **ماضي افريقيا الشمالية** Le passé de l'Afrique du Nord، باريس، 1952، 237، 266، 267 - 270؛ ش. أ. جوليان Ch A Julien **تاريخ إفريقيا الشمالية** Histoire de l'Afrique du Nord، باريس، 1956، I، 16 - 20؛ ا. العروي، **تاريخ المغرب** Histoire du Maghreb، باريس، 1970، 78، 81؛ ج. مرسي G.Marçais **سيدي عقبة وأبو المهاجر وكُسَيْلة** Sidi Uqba, Abû-l Muhâjir et Kusayla، في كراسات تونس C.T I، (1953)، 11 - 17؛ سعد زغلول عبد الحميد، **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة، 1965، 152، 166 - 175؛ م. الطالبي، **قطعة جديدة من تاريخ المغرب الإسلامي**، Un nouveau fragment de l'histoire de l'occident musulman. في كراسات تونس C.T، العددان 73-74، 19 - 52.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المعزّ بن باديس

[407 ـ 454 هـ / 1016 ـ 1062 م]

المعزّ بن باديس، هو أبو تميم شرف الدولة رابعُ ملوك دولة بني زيري الصنهاجية التي حكمت إفريقية [راجع هذا الاسم في «دامت »] من سنة 362 هـ / 972م. إلى سنة 543 هـ / 1148 م. ولم تكن مدّة حكمه تمثّل أوج ازدهار هذه الدولة كما ذهب إلى ذلك الأستاذ هـ . ر. إدريس. فإذا ما سلّمنا بوجود فترة تمثل قمّة هذا الازدهار فإنه ينبغي أن نجعلها في زمن متقدّم، قبل نزول الطاعون بالبلاد وحدوث المجاعة المهولة في سنة 395 هـ / 1004 – 1005 م، وقد كانا سببا في هلاك خلق كثير من أهالي البلاد. ومنذ ذلك التاريخ ، وطوال عهد حكم المعزّ، توالت المصائب والكوارث على إفريقية بدون هوادة ، كاشفة عن نقائص نظام اقتصادي غلب عليه الاضطراب وأنهكه الإجهاد. وقد كانت أعوام 409 هـ / 1018ـ1019 م. و442هـ / 1022ـ1023 م. و425هـ / و 1033ـ1034 م/ 432هـ/ 1040ـ1041م. و 447 هـ / 1055 ـ 1056 م. جميعُها من السنوات الموسومة بعلامة سوداء. (راجع هـ. ر. إدريس، **بلاد البربر الشرقيّة في عهد بني زيري** [النصّ الفرنسي] (ج I ص 149، 161، 227، 274، 293)

وقد عمد الرّواة ومدوّنو التاريخ من أهل السنة إلى إدخال كثير من الغموض ومن التزويق على ملامح المعزّ ، وجعلوا منه ، في عصر متأخّر عن زمانه ، رجلا من السنّة كان منذ نعومة أظفاره أسيرا في قبضة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الشيعة. فبقي المعزّ يمثّل في تاريخ إفريقية الرجل الذي حُقّق ردّ الاعتبار إلى المذهب المالكي القويم وأقام صرحه من جديد بهذه الرّبوع ، ممّا أدّى مباشرة إلى حصول « كارثة » زحف بني هلال على البلاد. وقد مات أبوه باديس [راجع هذا الاسم] فجأة ليلة الهجوم النهائي على القلعة التي كان عمّه حمّاد قد ابتناها في سنة 398 هـ / 1007-1008 م. وقد أدى موته المباغت(في 30 ذي القعدة سنة 406 هـ/10- 5- 1016م)إلى تكريس تقسيم مملكة بني زيري نهائيا لصالح فرع الحمّاديّين (405- 547 هـ / 1015- 1152م) .

وكان الأمير الشاب ـ الذي لم يكن قد بلغ بعد التاسعة من عمره عند موت أبيه ـ يقيم بالمهديّة [راجع هذا الاسم في « دامت ».] . وقد تسبّب ذلك في وضعية دقيقة لم يتمّ التغلّب عليها إلاّ بجهد جهيد وباللجوء إلى الحيلة والمخادعة. (راجع هـ. ر. إدريس، **بلاد البربر الشرقية في عهد بني زيري**، ج I، ص 128 - 130). على أنّ تنصيبه قد تمّ مع ذلك يوم 21 أو 23 من شهر ذي الحجّة سنة 406 هـ / 31 ماي أو 2 جوان سنة 1016 م. بدون حصول منازعة. ويقال إنّه كان أسمر أسفع اللّون. ويجمع الرّواة على اتصافه بذكاء حادّ و بثقافة جيّدة لا يمكن أن يكون قد اكتسبهما الاّ فيما بعد. وفي الشهر الموالي غادر المعزّ مدينة المهديّة وحلّ في أواسط المحرّم من سنة 407 هـ / 24 - 6 - 1016 م. بعاصمته المنصورية [راجع المقال في « دامت »] التي كان أسّسها الخليفة الفاطمي المنصور حوالي سنة 336 -337هـ / 947- 949 م. على مسافة نصف ميل من القيروان قلعة المذهب السنّيّ المشاغبة التي كان ينبغي للأمير الجديد ، من باب حسن السياسة والتدبير، أن يؤدي إليها زيارة.وقد ألّت هذه الزيارة، في ظروف لا يزال يكتنفها الغموض والإبهام، إلى نشوب حركة تمرّد شديدة ضدّ الشيعة .

ففي يوم 16 من شهرمحرّم سنة 407 هـ / 25 -6 - 1016 م. كان ركب الأميرفي بادىء الأمر يلقى ما تفرضه المناسبة من ترحيب وهتافات عند اختراقه شوارع المدينة المباركة. وفجأة اندلعت ثورة الجماهير تبعا بالتأكيد لصدور إشارة معلومة أوانطلاق إذن خفيّ متفق عليه لم ينفذ رواة الخبر إلى معناه الحقيقي ، وقد كان الهدف من ذلك القضاء على حياة الأمير الشاب بالذات، ومن خلال شخصه، الإطاحة بالنظامُ الذي كان أهل السّنة يسعون إلى التخلّص منه نهائيا في كامل أرجاء المغرب الاسلامي،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

محاولين اغتنام ذلك الظـــرف الذي كان يبدو مؤاتيا جدّا في نظرهم. أفلم يسبق لحمّاد الذي أنقـذته معجـــــزة مـوت باديس المفـاجيء أن ينكر مقولات الشيعة منـذ سنة 405 هـ / 1015 م. وأن يعقد الصّلـة من جـديد بالخلفـاء العباسيّين ببغداد ؟ هـذا وليس من المستبعد أن يكون متـواطئا سرّا مع المتمـرّدين، حتّى ولو لم يكن هـدفه من ذلك سـوى تلهية حكّـام القيروان عن مهـاجمة القلعة من جـديد.ويبدو مـن الثابت أيضـا أنّ أتباع المذهب السنّي كـانوا يحظون بمسـاعدة بعض المتـواطئين معهم سرّا حتّى داخل صفوف الجيش الـرسميّ الذي اتّسم موقفه في بـادىء الأمر بفتور غريب يدعـو إلى التساؤل. أمّا ما أبـداه عامل القيروان من خمول وتقاعس بمقدار فإنـه يُعزى ، بطبيعـة الحال ،إلى ما قـد يكون استروحـه من أنباء تتعلق بقرب عزله عن خطّته .

ومهما يكن من أمـر فقد تمّ تجاوزطـاقة الحرس الأميري والطغيـان عليه بسرعة. وبمجـرّد نشوب حركـة العصيان الجماهيرية عمـد المتمرّدون إلى تقتيل الناس عن حق أو عن باطل، تـدفعهم إلى ذلك غريزة النّهب والسّلب أكثر ممّا يحفزهم استفظاعهم البـدعة والضلال. « وانبسطت أيدي العامة علـــى الشيعة وانتهبت دورهـم وأموالهـــــم . وتفاقم الأمر، وانتهى إلى البلدان، فقُتل منهم خلقٌ كثير. وقُتل من لم يُعرف مذهبه بالشّبهة لهم » - (راجع ابن عـذاري، **البيان** ...، ط. ج. س. كـــولان و أ.ليفـي بروفنسال، ليدن، 1948 ، ج I ، ص 268). وقـــد ذهب بعض الشيـوخ الأفـــاضل الوقوريـــن من أهـــل القـــيروان إلى حثّ العامـة على استعجال أمر القتل « فإذا مـا كان القتيل من أهل السنّـة، عجّل ذلك بدخـوله الجنّـة» (راجع عيـــاض **المدارك**، ط. بيروت، 1967، ج IV، ص 625). ولم ينجُ أبو البهار بن خلـوف ــ الذي كـان مـوضع حقـد الجماهير، والذي سـوف يـرتقي إلى الوزارة بعد بضعـة سنوات - من غضب العامـة إلاّ بفضل جند ابن أخيه الـذي تـمّ قتلـه والتمثيل بـه بـدل عمّـه. ثم زحف العامـة بعـد ذلك على المنصوريّة فهدّموها وانتهبوها بدورها. وشهدت عدة مدن أخرى بإفريقية مذابح لاستئصال الشيعة وقطع دابرهم .

ولم تحتفظ لنا المصادر التّي بين أيدينا - وجميعُها سُنّية النّزعة - عن هذه الأحداث إلاّ بصورة انتصـار عظيم باهر على حركـة الشيعة. على أنّ هذه الانتفاضة، مهما كان اتساع مـداها، لم يكتب لها النجاح والدّوام ولم يكن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لها أثر يذكر. فقد ظلّ حكم الشيعة قائما مع الاتّسام فيما يبدو بمزيد من التسامح . ومن البديهي أنّ المعزّ بن باديس ـ نظرا لصغر سنّه على الأقلّ ـ لم يكن بإمكانه إبّان هذه الأحداث انتهاج أيّة سياسة شخصية خاصّة به. وقد قام رجال والده الذين احتفظوا بمناصبهم، بتسيير العمليات بدون شكّ. وبعد مرور قُرابة شهر على انطلاق حركة التمرّد والعصيان، تمّ في يوم 19 صفر سنة 407 هـ / 28 - 7 - 1016 م. تعيينُ وزير جديد، وهو أبو عبد اللّه محمد بن الحسن عامل طرابلس سابقا. فهل كان في هذا التغيير تنازل من أجل إعادة الاطمئنان إلى النّفوس ؟

لكنّ حركة أهل السنّة التي وجدت في تسامح السلطة ماشجّعها بدون شكّ على الاقدام والتّمادي، لم تقلع عن المشاغبة والمقاومة. وكاد المعزّ أن يذهب ضحيّة مؤامرة جديدة بعد بضعة أشهر وهو في طريقه إلى مصلّ القيروان بمناسبة عيد الفطر في غرّة شوّال من سنة 407 هـ . / 3- 3 - 1017 م. وفي هذه المرّة عزمت الدّولة على تسديد ضربة قاضية تستهدف رأس الحركة. وقد ذكر عياض (في **المدارك**، ج IV، ص 626) أنّ المعزّ داخله فزعٌ شديد من أهل السنّة و أنّه عزم على كسرشوكتهم من سنة 407هـ / 14 -3- 1017 م، جرت مداهمة أبي علي بن خلدون « شيخ الدعوة » في مسجده حيث كان بدون شكّ يدبّر سير العمليات، وتم قتلُه. وسرعان ما اندلع الشغب بالقيروان ، لكنّ السلطة كانت قد أعدّت العدّة لذلك ، فلم تُباغتها الأحداثُ . وقد ذكر عياض (في **المدارك** ج IV، ص 626) أنّ جند المنصوريّة من راجلة وحرس سُود ساروا نحو القيروان وعمدوا إلى نهب كلّ دكاكينها حتى لم يسلم من ذلك دكّان. وأُحرقت شوارع الأسواق وسُلبت أموال التجّار وأرزاقهم. وبذلك كسرت شوكة حركة السنّة نهائيا وتخلّصت الدّولة من ذلك السيف المسلول فوق رأسها. وسوف لن يبقى بعد ذلك أثرٌ يُذكر لأيّة حركة شغب مناهضة للشيعة طوال عهد حكم المعزّ كلّه. وما كاد يمْضي على ذلك ثلاثة أشهر حتّى بعث إليه الخليفة الفاطميّ الحاكم من القاهرة بخلع سَنيّة معبرّا له بذلك عن عرفانه، ومنحه لقب « شرف الدّولة » بخطاب مرسوم. واستأنف المعزّ بن باديس من توّه، ضدّ حمّاد عمّ أبيه تلك الحملة التي انقطعت من جرّاء هلاك أبيه المباغت. وبالرّغم عن تحقيق انتصار سالت فيه الدّماء إلى حدّ مهول (في 30 ربيع الأوّل من سنة 408 هـ /. 26 - 8 - 1017 م) فقد كانت الحملة ذات تكاليف بشرية باهظة ، وأبرم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اتفاق سلام بين الطّرفين المتحاربين ـ سوف لن ينقضه خليفة حمّاد الملقّب بالقائد إلاّ في سنة 432 هـ / 1040- 1041 م . وهو يترك كامل القلعة بأيدي الحمّاديّين مؤكّدا بذلك إفلات المغرب الأوسط من سلطان دولة بني زيري المرتكزة بالقيروان .

وفي الأثناء استمرت العلاقات على أحسن ما يكون مع الفاطميين . ففي أوائل سنة 411 هـ. (آخر أفريل1020م) جدّد الخليفة الحاكم بأمر اللّه ثقته للمعزّ بن باديس وحباه جزيل النّعم وأرسل إليه فيما أرسل من هدايا، سيفا مرصّعا بنفائس الفصوص. أمّا الخليفة الظّاهر (411- 427 هـ / 1021- 1036م) الذي آل إليه الحكم اسميا تحت وصاية عمّته ستّ المُلك (المتوفّاة سنة 415 هـ / 1024- 1025 م) وهو في سنّ السادسة عشرة، فقدرفّع في لقبه الشرفيّ وزادهُ فخامة إذ سماّه « شرف الدّولة وعضدها » مغدقا عليه العطايا بطبيعة الحال. وقد كان يحكم كلاّ من مصر وإفريقية عندئذ شابّان مراهقان يخضع كلّ واحد منهما لضرب متفاوت من الوصاية .

وقد سبق المعزّ إلى التحرّر من وصاية وزيره أبي عبد اللّه محمّد بن الحسن الغالب على أمره والقليل التورّع عن ركوب المآثم والشبهات فيما يقال عنه. وإذ لم يوفّق في اقناعه بالحسنى وعن طريق الوسائط بالتخلّي عن السلطة، فقد عَمَد إلى عزله و أمر بقتله في السابع من شهر ربيع الثاني سنة 413هـ / 11- 7 - 1022 م. فاتحا بذلك ، وهو في سنّ الخامسة عشرة تقريبا من عمره ، عهد حكمه الشخصي. واتخذ كوزير جديد أبا البهار بن خلوف ، وهو عدوٌ لأتباع مذهب السنّة ، وقد كادوا أن يقتلوه أثناء الانتفاضة التي حدثت في سنة 407 هـ / 1016 م. وقد كان في تسمية هذا الرجل دلالة سياسية مزدوجة إذ كان فيها إنذارٌ موجّه إلى حركة السنة وعربونُ وفاء نحو الدّولة الفاطمية بالقاهرة. وفي نفس السّنة أقام المعزّ مراسم زواجه في احتفالات فخمة .

واستمرّ حكمه هادئا في الجملة طيلة أكثر من 35 سنة ، أي إلى حدود زحفة بني هلال، بالرّغم عن حدوث بعض الثورات التي لم تكن تكتسي خطورة، خصوصا في جنوب البلاد. وقد كان البناء يبدو شامخا متينا. لكنّ تلك القوّة كانت مجرّد مظهر خارجي. ذلك أنّ أبهّة البلاط التي كانت تزداد ضخامة بمدائح ممتهني التملّق المأجورين، كانت تخفي من ورائها انهيار

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الهياكـــل الاقتصادية التي كانت تشكو تناقص اليد العاملة من العبيد، مع ما ينجرّ عن ذلك التّـدهور من قحط ومجاعات متكرّرة ـــ وقد أشار رواة الأخبـار إلى ما لا يقلّ عن الخمس منهـا ـ ومـا يواكبهـا من اضطرابـات وأوبئة وانهيـار في عدد السكان، ولا سيما في الأريـاف التي كان يهجـرها أهلها إلى المدن. وعندما أصيبت البـلاد في الصميم بغارات زحفة بني هلال فقد كانت بعـدُ مُسـْتنزَفـة القوى إلى حدّ بعيـد حتّى أضحت عاجزة عن تحمّل الصّـدمـة أو التغلّب عليهـا واحتـواء آثـارهـا. هـذا وأن المصـاعب الدّاخلية، الدّينية منها والاقتصادية، هي التي دفعت بالمعزّ شيئا فشيئا إلى قلب ظهـر المجنّ للفاطميّين، مستبـدلا ولاءَهُ لهم ـ الذي لم يكـن يكلّفه في الحقيقة سوى واجبات وأعباء ضرورية لا تستحـقّ الذكر ـ بولاء للخلفاء العباسيّين الأباعـد لم يكن أكثر كُلفة ولا أثقل مؤونـة من الأوّل. وقد كان يسعى بـذلك إلى استمالة نفـوس الحشود الغفيرة من العـامة الـذين غلب عليهم الفقر، والـذين ظلّوا في جمهرتهم أوفياء لمذهب السنّـة المالكية. وقد سـاعـد على هذه القطيعـة مع القـاهـرة، خصـوصـا بعـد موت الـوزيـر الجَرْجَرائي (436هـ / 1045 م)، ما كانت تشهده الدّولة الفاطميّة من تقهقر وتراجع. وحصلت القطيعـة فيما يبدو على دفعات متواليـة وبحسب تطوّر الظروف وتقلّب الأمزجـة والنّفوس. وهـــذا ما يفسرّ اخـتـــلاف الرّواة في تحديد تاريخها على مدّة تتراوح في حدود العشر سنوات بين عام 433 هـ وعام 443 هـ / أي عام 1041 وعام 1051 م. هذا وإنّ دراسـة النقود تسمح لنا بالتأكيـد أنّ هذه القطيعة كانت كاملـة ونهائية في سنة 441 هـ. (راجع هـ.ر.إدريس **بلاد البربر الشرقيـة في عد بني زيري** ، ج I، ص 190) .

وقد تمّ الصّـدام الحاسمُ مع المغيرين الـذين رمى بهم إفـريقية الخليفـة الفاطميّ المنصـورُ بإشـــارة مـــن وزيـــره اليـــازوْري عقـــابا على خـــروج تابعـــه السّابـــق عـــن طاعتـــه وولائه له، بحيدران من منطقة قابس في يـــوم 1 ذي الحجـة من سنة 443 هـ/ 14 - 4 - 1052 م. وبالـرغم عـن شجاعـــة الأمير الصنهـاجي وعماً كان يتميّز بـه الأفارقةُ من تفـوّق في العدد، فقـد تمّ تشتيت شمل هذا الجيش الذي لم يكـن يمتلك خطّة قتـالية ولا انسجـاما في صفـوفه، والـذي كان بمثابـة جبّار قـوائمه من طين، تنخـر كيانـه الصراعات العـرقيّة وغضبُ الكتائب البربرية على فريق الحرس السّـودان الذين كان يبلغ عددُهم فيما

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقالُ الثلاثين ألفا من العبيد. وسرعان ماانهار صرح الدولة الصنهاجيّة الذى كان قد نخرها السوس من الأعماق تحت ستار المظهر الخارجي الخادع. وقد كان من المفروض أنّ خسارة معركة واحدة لا تعني خسارة الحرب كلّها.ولئن شهدت البلاد مثل هذا الانهيارالمفزع الذي لم تجد بعده إلى النهوض سبيلا فذلك يعني أنها قد كانت فقدتْ كلّ مورد مادّي وكلّ محرّك معنويّ .

وانتشر بنو هلال بعد ذلك في كلّ مكان مخرّبين وناهبين كلّ ما اعترض سبيلهم ، وهم كأسراب الجراد ، حسب عبارة ابن خلدون. واستقلّت أهمّ مدن البلاد كلٌّ برأسها. أمّا القيروان التي تخلّ عنها المعزّ في آخر الأمر ولجأ إلى المهديّة (في 27 شعبان من سنة 449 هـ / 29 - 10 - 1057 م)، فقد كانت بعد يومين من هروب الأمير منها فريسة للنّهب والتخريب الشاملين في اليوم الأوّل من شهر رمضان / 1 نوفمبر، إلى حدّ أوحى بنغمات حزين تمزّق القلب لشاعرين من شهيرين من أبنائها وهما ابن رشيق [راجع هذا الاسم في « دامت »] (المتوفّ سنة 456 هـ / 1063 - 1064 م . أو سنة 463 هـ / 1070- 1071م). وبوجه أخصّ ابن شرف [راجع هذا الاسم] (المتوفّ سنة 460 هـ / 1067 م). ويوجد خلاف حول أهمية هذه « الكارثة » ومداها . فهذا جان بونسي Jean PONCET يذهب إلى حدّ إنكارها تماما . على أننا لا نرى داعيا إلى الشكّ بصورة تلقائية ومطّردة في عديد الشهادات المتطابقة جميعها والتي هي اليوم بأيدينا. هذا وحتّى إذا ما سلّمنا بوجود شيء من المبالغة الشعرية فإنه ليس بإمكاننا أن نعدّ من قبيل الاعتباط شهادة ابن شرف الذي ترك لنا وصفا يحزّ في النفس عن مصائب المشرّدين كما عاينها بنفسه، وهم مشتّتون في كلّ مذهب وقد فقدوا كلّ شيء ــ وهذا في حالة ظفرهم بالنّجاة بأرواحهم . (راجع ابن بسّام ، **الذخيرة**، ط . القاهرة، 1945، ج IV، كراس I، ص 177 - 184). على أنه من الممكن عادة النهوض من أية عملية غزو كهذه مهما كانت شديدة. وإذْ قد تعذّر ذلك ، فإنّ الكارثة الحقيقية والدّائمة كانت تكمن إذن في جانب آخر. وهي تتمثل في الضربة القاضية التي أصيب بها اقتصاد البلاد. فقد كان هذا الاقتصاد يشكو قبل ذلك شيئا من السّقم المزمن ، لكنّه كان لا يزال قابلا للعلاج. وقد قام الهلاليون بتحويل هذا الاقتصاد الذي كان يمرّ فعلا بفترة أزمة ــ وهو يكتسي غالبا صبغة فلاحيّة وصنائعية وحضرية ـ إلى اقتصاد بدوّي ورَعَويّ إلى أبعد الحدود،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مع كلّ ما يمثّله ذلك التحوّل من ضروب التعطّل والتوقّف في الحياة السياسية والاقتصادية. وقد تسببوا على نطاق واسع في تقهقهر الحياة الحضرية المطْمئنة لتحلّ محلّها حياة البدو المليئة بالمجازفات والمغامرات مع ما يشكّله نزوعها إلى العنف والحرب من تهديد مستمرّ لكلّ نشاط ريفي فلاحي أو حضريّ تجاري، وهي حياة البداوة التي أناخت بكَلْكَلِها بعد ذلك على مصير البلاد السياسي طيلة قرون من الزمن .

وقد ضاقت الحال بالمعزّ واشتبهت عليه سبلُ الخلاص، فانتهى به الأمرُ إلى الْتماس النجاة في المصاهرات مع الغزاة الغلاظ الشداد والمحالفات المنافية لطبيعة الأشياء والتي لم تكن لتجديه فتيلا.

ثم عاد المعزّ ـ ضمن تصوّرات أمله الخادع في تحاشي الكارثة ـ إلى ولائه للشيعة الفاطميين. وقد يكون ذلك حصل منذ أواخر سنة 446 هـ / أوائل سنة 1055 م. لكنّ الأمر أصبح ثابتا لدينا ابتداء من سنة 449 هـ / 1057 م. كما تشهد بذلك الدنانير المضروبة بالمهديّة انطلاقا من هذا التاريخ. وقد تمّت هذه العودة إلى الولاء الشيعي، الذي بقي المعزّ وفيّاله إلى آخر حياته، وسط جوّ من اللاّمبالاة الكاملة التي كانت تشمل البلد الغارق في غمار الفوضى والمشغول عن قضايا البدع والانحرافات الدّينية بشؤون يتوقف عليها وجوده المباشر.

وقد كانت سياسة المعزّ المتوسطية وريثة سياسة الأغالبة والفاطميّين في هذا المجال، إلاّ أنّ بني زيري لم يعودوا في موقف قوّة مثل أسلافهم. هذا وانّ ضروبا من الخلط في تواريخ الأحداث ومن السهو ومن التناقض تمنعنا من تتبّع هذه السياسة بدقّة وثبات.ولنذكر انّ حملة على إيطاليا الوسطى سنة 1020 م. (411 هـ) آلت في نهاية الأمر إلى الفشل إذ أنّ أهالي كلّ من بيزة وجنوة استطاعوا أن يجرّدوا الأسطول الصّنهاجي من غنائمه وهو في طريق العودة. وفي سنة 416 هـ / 1025- 1026 م. دمّرت العواصف في عرض جزيرة قوصرة أسطولا صنهاجيا عتيدا متّجها نحو صقليّة قبل بلوغه هدفه. وفي سنة 426هـ / 1034- 1035 م. استولى رجال بيزة مؤقتا على مدينة عنابة. وفي سنة 427 هـ / 1035 - 1036 م. قام جيش صنهاجي يقوده عبد اللّه بن المعزّ وهو لا يزال مراهقا في سن الثالثة عشرة، بالتدخّل في جزيرة صقلية التي كانت الفوضى تعمّها وهي على وشك السقوط بأيدي النّورمان ، وذلك لمحاربة الأكحل الذي استأثر هناك بالحكم في محرّم من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سنة 410 هـ / 9 ماي - 7 جوان سنة 1019 م. وبعد أن فتح عبد اللّه مدينة بالرْمة وبعث برأس الأكحل إلى أبيه، اضطرّ في آخر الأمر إلى التراجع وترك الجزيرة خائبا. وكان المعزّ قد استقبل سنة 426 هـ / 1034 - 1035 م. ومباشرة قبل هذه الحملة ، وفدا قدم عليه من بيزنطة محمّلا بهدايا فاخرة. فهل ينبغي أن نجعل علاقة بين هذين الحدثين رغم قلّة ماورد في هذا الشأن بالمصادر ؟

وقد كان المعزّ يعيش حتّى زحفة بني هلال حياة بذخ كبير وينفق الأموال بغير حساب حرصا منه على ذيوع صيته كأمير نيرّ الفكر يرعى أهل العلم والأدب. وقد عُهد بتأديبه في صغره إلى واحد من ألمع رجال الأدب والكتاب بإفريقية، وهو ابن أبي الرجّال [راجع المقال] الشاعر والفلكي الشهير الذي تمت ترجمةُ كتابه **البارع** - زيادة عن اللاّتينيةوالعبريّة - إلى العديد من اللّغات الأوروبية. وأصبح ابن أبي الرّجال فيما بعد ذلك منجّم المعزّ وكبير وزرائه. وقد تألّقت المدرسة الأدبية القيروانية في عهد هذا الأمير تألّقا خاصا بفضل رجال أفذاذ من أمثال القزّاز والحُصرَيّين ، إبراهيم (المتوفّى سنة 413 هـ / 1022 م) وقريبه عليّ الذي فرّ من القيروان بعد غزوة بني هلال وطاف بكامل بلاد الأندلس قبل أن يموت بها سنة 488 هـ/1095م. لكنّ أفضل من كان يزين بلاط المعزّ همُا بدون منازع الشاعران المتنافسان القديران ابن رشيق وابن شرف [راجع الاسمين]. وقد كان يحلو للمعزّ أن يثير بينهما مساجلات ونقائض شعرية بقيت مشهورة عبر التاريخ. أمّا ابن الرقيق [راجع هذا الاسم] أو الرّقيق (المتوفّى بعد سنة 418 هـ / 1027-1028م) والمشهور خصوصا بتدوين التاريخ والأخبار ،فقد اشتغل أيضا ككاتب ديوان وسفير وكان شاعرا مجُيدا. وفي مجال الفقه المالكي كانت هنالك جماعة من مشاهير الفقهاء ، تبرز من بينهم ، وتمتاز عليهم ، شخصيّة أبي عمران الفاسي [راجع هذا الاسم] (المتوفّى سنة 430 هـ / 1039م) ، الذي « كان له دور عظيم في تمخّض حركة المرابطين ونشأتها » (راجع هـ. ر. إدريس، المرجع المذكور سابقا، ج II، ص 727) .

ولقد ورث المعزّ بن باديس وهو لا يزال طفلا مملكة اتّسمت في المجال الاقتصادي بتفكّك هياكلها ووهن قواها، وفي المجال السياسي بفقدان الجانب الغربيّ منها. وفشل في سعيه إلى توحيد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أجزاء هذه المملكة مـــن جديد جرياعلى سنة أبيه من قبله. وعندما توفيّ في يوم 24 شعبان سنة 454 هـ / 2 - 9 - 1062 م . عن سنّ تنـاهز 56 أو 58 عاما قضّى منها في الحكم فترة طـويلة دامت سبعـة و أربعين عاما، فإنّـه ترك هـذه المملكة لخلفـه تميم وهي تشكـو الإفـلاس الاقتصادي و الانقسـام السياسي وتتخبّط في فوضى كاملة .

المراجـــــع : لا يـــزال المرجـــــع الأساســـي هـو أطروحة الأستاذ هادي روجي إدريس، **بلاد البربـر الشرقية في عهد دولـة بني زيري** . القرن X الى XII، ط . أدريـان ميزونـوف A. Maisonneuve باريس، 1962.* وعلاوة على قـائمة المراجع التـي يحيل عليها هـذا الكتاب، ينبغي إضـافة المراجع التالية :

أ : ليـــزين A.Lézine ، **المهديّـة، بـحـــــوث في الآثار الإسـلامية**، نشر كلينكزياك Klincksieck ، باريس، 1965؛ عربي إسماعيل ، **عواصم بني زيري ملوك أشير والقلعة وبجايـه والمهديّة**. نشر دار الرائد العـربي، بيروت 1984؛ عبد الحكيم شوقي، **سيرة بني هلال**، نشر دار التنويـر ، بيروت ، 1983؛ س . د. غـــويتاين S.D.Goitein ، **مجتمع متوسطي**، ج I ، الأسس الاقتصادية A.Mediterranean Society Vol. I.Economic Foundations ، نشر مطابع جامعة كاليفورنيا، 1967، ص 32، 310، 328، 331 ؛ جان بـونسي Jean Poncet **أسطورة الكارثة الهلاليّة** ، ضمـــــن حوليـات E.S.C. ، بـاريس، 1967 ، العدد 5ص 1099_1120؛ تـرجمة عـربيـة للمقـال لمنصف الشنـوفي نشر في حوليات الجامعة التونسية، 1968 ، العدد 5 ، ص 133 ـ 141، بعنوان **أسطورة الكارثة الهلالية** ؛ هـــ. ر. إدريس ، **في حقيقة الكارثـة الهلاليّة**، ضمن حوليات E.S.C. 1968، ص 390 ـ 396؛ نـفـــس المؤلـف، **زحفـــــة بني هلال ونتائجها** ضمن كراسات الحضارة في العصـور الوسطى، بواتيي، 1968، العدد 3، ص 353_371؛ إيـــف لاكوست Yves Lacoste ، **ابن خلدون، مولد التاريخ وماضي العالم الثالث** ، نشر فرانسوا ماسبيروF.Maspero ، باريس ،1966، الباب 4 أسطورة « الزحف العربي » ، ص 87-105؛ كلـــود كاهن Cl. Cahen ؛ **كلمات عـــن الهلاليّـــن والبـــداوة** ضمـــن مجلة_ JESHO، مارس، 1968، ص 130_132؛ م. برات M.Brett، **إفريقية سوق**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجارة الصحراوية Ifriqiya as a market for saharian trade ضمن مجلّة التاريخ الإفريقي Journal of African History، 1ة ص. 347-364 ؛ جاك بارك، J.Berque **توبة بني هلال أو الجزائر الزراعية في القرن XV حسب مخطوط خاص بفقه القضاء** Les Hilaliens repentis ou l'Algérie rurale au XVe S. d'après un manuscrit jurisprudentiel ، ضمن حوليّات. E.S.C، باريس ، 1970 ، العدد 5 ، ص 1325 - 1353؛ نفس المؤلف ، **الجديد حول بني هلال**، ضمن مجلة .S.I، باريس ، 1972، ج XXXVI، ص 99-113 ح.ح. عبد الوهاب، **ورقات**، القسم الثالث، طبعة بعد موت المؤلّف، تونس، 1972، ص 56- 58، 445، 474 ؛ ر. دغفوس، **العوامل الاقتصادية لهجرة بني هلال وبني سليم من مصر إلى إفريقية**، ضمن مجلّة المؤرّخ العربي، 1981، العدد 20، ص13-46 ؛ ممدوح حسين، **العرب الهلالية في إفريقية ودورهم في الحروب الصليبيّة**، ضمن كرّاسات تونس .C.T، 1981، العدد 117 - 118، ص 73- 90؛ ج كيوك J.Cuoq **الكنيسة في شمال إفريقيا من القرن الثاني إلى القرن الثاني عشر**، نشر لوسنتوريون Le Centurion ، 1984، ص 164؛ محمد الطالبي، **القانون والاقتصاد بإفريقية في القرن الثالث هـ / الحادي عشر م. الملامح الزراعية ودورالعبيد في اقتصاد البلاد**، ضمن دراسات في تاريخ إفريقية، تونس 1982، ص 204- 207. ترجمة أنكليزية (The Islamic Middle East. 700 - 1900) نشر A .L. Udovitch ، برينستن 1981 ص 222-224؛ نفس المؤلف، **على ذكرابن الرقيق** (ضمن مجلة ARABICA، 1972، ج XXX، ص 86-96.

---

* صدرت الترجمة العربيّة لأطروحة هـ. ر. إدريس عن دار الغرب الإسلامي سنة 1992 ترجمة حمادي الساحلي، جزآن : 492-514ص.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جرة نسب الأمراء الصنهاجيين

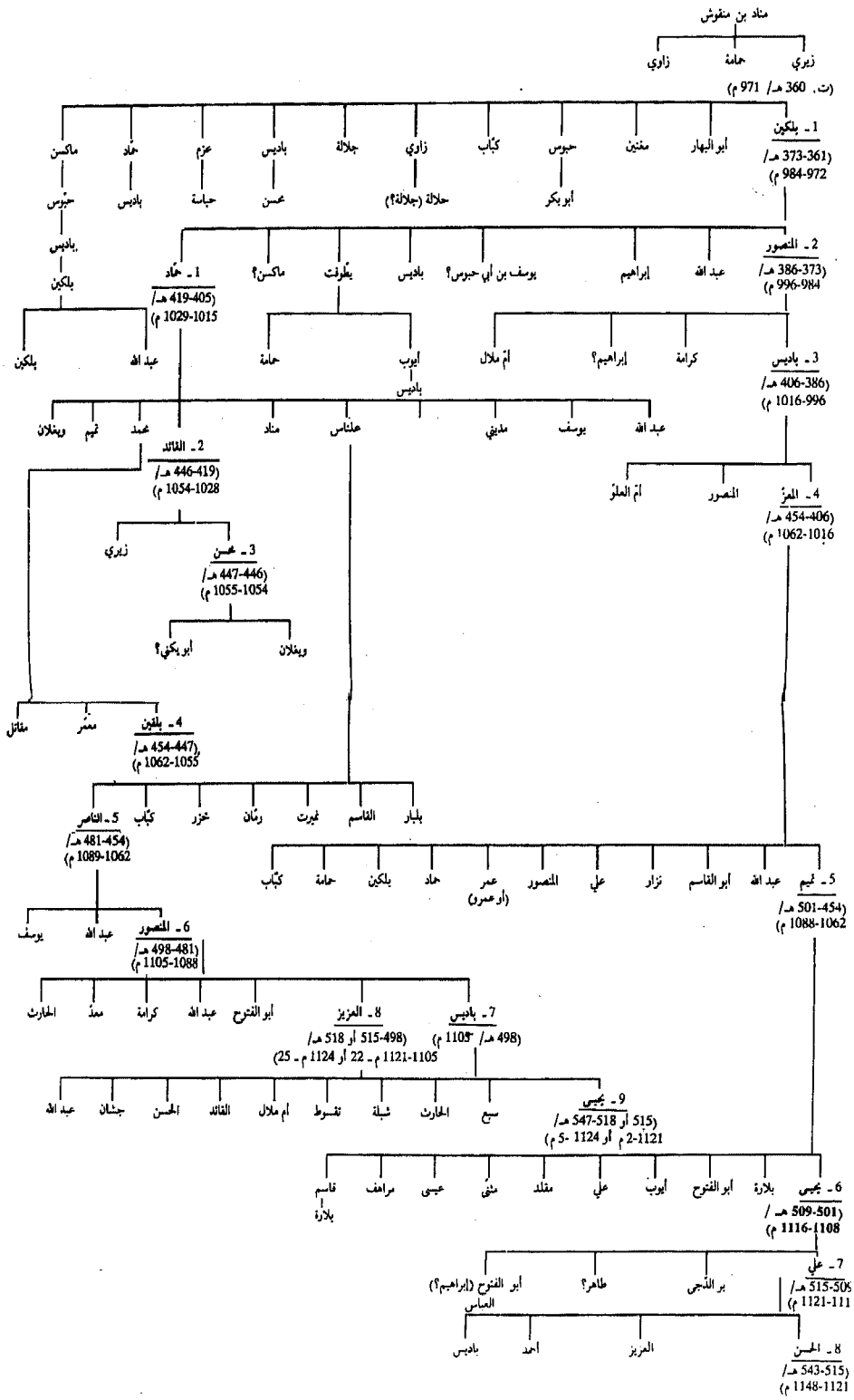

مواقع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

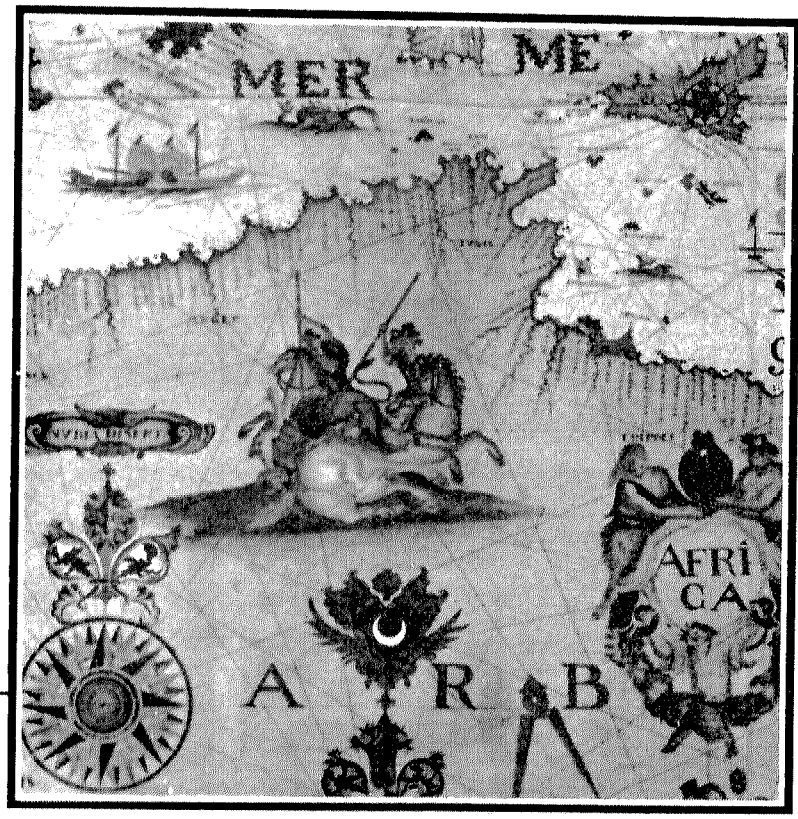

إفـــريقيـــة

إفريقية هي الجزء الشرقي من المغرب العربي الاسلامي، لذلك أطلق عليها عدد من المؤرخين المعاصرين اسم بلاد البربر الشرقية .

ومما لا مجال للشك فيه ــ مهما كان مذهب المؤلفين العرب في هذا الموضوع ــ أن لفظة افريقية مقتسبة من الكلمة اللاتينية **أفريكا**Africa. وإذن، فالكشف عن أصل الكلمة العربية يرجع في نهاية الامر إلى فكّ أسرار اشتقاق اللفظ اللاتيني التي لا تزال تتحدى فطنة الباحثين منذ أقدم العصور إلى يومنا الحاضر. وإنه من الثابت أن لفظة أفريكا وغيرها من الصيغ الأخرى المشتقة من الجذر اللغوي آفر (ج. أفري) Afer, pl. Afri قد وردت في المصادر اللاتينية القديمة قبل سقوط قرطاج بوقت طويل، ونعلم بالخصوص أن شيبيون الأكبر (235 ـ 183 ق.م) قد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نح بعد انتصاره على حنبعل في واقعة زاما (سنة 202) لقب الافريقي Africani، وقد ورد ذكر صيغة الصفة « افريقي » Africus مرات عديدة في هد سابق لسقوط قرطاج (سنة 146 ق. م)، وقد ألحقت رومة بعد لك أراضي قرطاج بأراضيها وسمتها « المقاطعة الافريقية » Provincia Afri أو «الافريقية» Africa بإضمار الاسم الموصوف (انظر غزال Gsell، **تاريخ القديم** : ج VII ، ص 2) . وهذه المقاطعة الافريقية Provincia Africa انت موطن الأفارقة Afri وهي التسمية التي كانت مقصورة في أول الأمر لى السكان الأصليين الموجودين على أراضي قرطاج — بل وقد حصل حيانا الفصل والمقابلة بين هذه التسمية وبين تسمية البونيين Poeni أو قرطاجيين) Carthaginienses ـ قبل أن تشمل أيضا في خاتمة الأمر هؤلاء قرطاجيين أنفسهم كما نستنتج ذلك من اللقب الممنوح لقاهر حنبعل. هذه هي المعطيات الثابتة التي نملكها بخصوص هذا الموضوع .

ابتداء من هذه النقطة تصبح خطواتنا أقل ثباتا وأرضيتنا ثر اهتزازا. فما هو على وجه التدقيق أصل كلمة أفريكا Africa؟ إننا نملك بهذا الخصوص أية معلومات ثابتة بصورة يقينية مسلم بها بإجماع الباحثين. وقد كان فورنال Fournel سنة 1875 لن في غير مواربة : « لا اتردد في التأكيد أننا نجهل ذلك تماما » (انظر مؤلفه: **البربر** Berbers، ج I ، ص)، وبعد مرور بضعة عقود من السنين يأتي غزال Gsell فيقول صيغة الاعتراف : « من الأفضل الإقرار بجهلنا بخصوص أصل هذه كلمة » (انظر **التاريخ القديم** ، ج II ص 5)، هذا وإننا لسنا اليوم بأوفر ظا أو أكثر تقدما في هذا الباب مما كنا عليه في الماضي. على أنّ العديد من نظريات والتفسيرات المتفاوتة من حيث البراعة والقدرة على الاقناع قد ت المجازفة بتقديمها طوال الفترة الممتدة من العصور القديمة إلى عصرنا لحاضر. ويمكن تصنيف هذه النظريات في قسمين كبيرين :

ـ **الاشتقاقات الاسطورية** : لقد تم منذ أقدم العصور اقتراح العديد ن النظريات القائمة كلها على أساس أسطورة الانتساب إلى أصل وهر إلاهي أو بطولي خرافي من نوع ما كان سائدا لدى قدمين. وعلى هذا الأساس فإن أفريكا تكون موطن أولاد آفر Afer، هو ابن « الاميرة » ليبيا » Libye التي كانت أصيلة البلاد، أو إحدى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بنات الإلـه « جوبيتار » أو الإلـه «نبتون» أو «إيبـافوس Epaphu » (انظر دافـزاك d'Avezac، **افريقيا**، ج IV) أو هـــو ابن هرقـــل ليبيـــا، او ابن كرونـوس وفيليرا Crons et Philyra، أو ابن ابـراهيم وستـــورة، أو حفيـد ابراهيم وقائد حملة حربيـة، بليبيا، الخ (انظر المراجع في كتاب غزال Gsell، **التاريخ القديم**: ج II ص 4) .

أما العرب الذين كانوا بالتأكيد لا يجهلـون تماما هذه الأساطير التي كانت شائعـة فيما يبدو بالبـلاد التي فتحوها ، فـانهم لم يكونوا أقل إغـراقا في الخيال. لذلك نـراهم يتبنون في الغالب نوعا من التفسير متأثـرا من ناحية بالأساطير القديمة ومنقولا من ناحية أخرى عن الأنموذج الذي اعتمدوه في تفسير وجود الجنس العـربي، أي بالـرجوع إلى جـد أول يطلق اسمه على بنيـــه، وهـم يدعونه عادة افريقيس Africus أو إفريقيش في بعض الأحيان. وقـــد يكـــون هـو الـــــذي تسمى باسمـه الإفـريقيـون وبـــــلادهم إفريقيـــــــة. وهذا التفسير الـذي تبنـــــاه فيما بعـد، مـــع بـــعض الفـــــروق فـــي الروايـــة، غالب رواة الأخبـار والجغرافيـــين العرب يمثـــل فـــي الواقع رواية واحدة، وهي التي نقلهـــا ونشرها هشام بن محمد الكلبي (المتوفى فيما بين سنتي 204 و206 هـ / 819 و 821 م) .

ولا بـد مـــع ذلك مـن أن نسجـل أن ابن عبد الحكم (187 ـ 257 هـ / 803 ـ 871م) . الذي ينتمي إلى أسرة من الفقهاء والمحدثين النُّقَاة والذي ندين له بأقدم مصدر مكتوب عن تاريخ فتح إفريقيا قد تعمد فيما يبدو إغفال ذكر هـــذا التفسير في كتابـــــه . ذلك ان ابن الكلبي لا يعد من أهل الثقة عند كبار الرواة والمحدثين . (انظر ياقوت، **الأدباء**، XIX، ص 287ـ288). أما ابـن خلـــدون المشهـــور بروحـــه النقديـــة فهـــو لا ينقل لنا هذا التفسير في **مقدمته** (ص 16) إلا كمثال «للأخبار الواهية » التي كانت كتب سابقيـــه محشـــوة بها. وعندما يعـود ابن خلـــدون إلى ذكـر هـذه الرواية (انظر كتاب **العبر**، ج II ، ص 95 ، 100 ، 107) فهو يكتفـي بنقلها دون تحمـــل مسؤوليتها، أو يبدي بشأنها احترازًا واضحا (كتاب **العبر** ج II، ص 170).

ولا حاجة بنا إلى التأكيد أن إفريقيس أو إفريقيش هذا يقدم إلينا دوما من قبل الإخباريين العرب باعتباره بطلا عربيا محضا. وهم يربطون دائما من قـريب أو بعيد تـاريخ هـذا البطل بجذور البربـر ومـا يحيط بأصلهم من غموض. والعـرب في الغالب يعتبرون البربر مشارقـة كنعانيين أو حميريين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في الأصل. وهم يذكرون لنا النسب الكامل لإفريقيس مع بعض الفروق في الروايات. ويؤكدون أنه كان من كبار ملوك اليمن في عهد سليمان الحكيم وأنه قام فيما يبدو بفتح بلاد المغرب وأطلق عليها اسمه وركز فيها بعض قبائل جنوب الجزيرة العربية فاستقرت بها. ويذكر البلاذري (المتوفى حوالي سنة 279 هـ / 892 م) نقلا عن هشام بن محمد الكلبي أن اسمه إفريقيس بن قيس بن صيفي الحميري، ونجد نفس النسب عند ابن خلدون. لكننا نجد له أيضا عدة أنساب أخرى ونرى من بين ذلك من يسميه أحيانا إفريقيس بن أبرهة بن الرائش (انظر المسعودي، **مروج الذهب**، الفهارس؛ البكري، **المسالك** ، ص 21؛ ياقوت، ج I، ص 228) .

ويورد الاخباريون العرب رواية أخرى من النوع الأسطوري أيضا يصبح فيها البطل الذي أطلق اسمه على إفريقية ينحدر من سلالة الأنبياء المذكورين في أسفار التوراة. وتفيد هذه الرواية التي نجد فيها صدى للأسطورة اليونانية اليهودية التي ينقلها جوزافJosèphe (انظر تيسو Tissot **استكشاف علمي للبلاد التونسية**، ج I، ص 389، تعليق 5) أن هذا البطل هو فيما يبدو أفريق Aphera ابن ابراهيم الخليل من زوجه الثانية فاتوراء Cethura (انظر البكري، **المسالك** ص 21) أو انه فارق بن بيصر بن حام بن نوح (ياقوت، ج I، ص 228) ويذكر ابن أبي دينار (انظر**المؤنس** : ص 19) أنسابا أخرى لهذا البطل تعتمد أيضا على سلالات التوراة) .

2 ـ الاشتقاقات اللغوية : أورد كل من البيروني (المتوفى سنة 442هـ / 1050 م) فيما نقل عنه ياقوت (ج I ص 228)، والزبيدي (**تاج العروس** ج VII ص 46)، وابن ابي دينار (**المؤنس**، ص 19) تفسيرات أخرى بالرجوع إلى الجذر اللغوي العربي (ف رق بمعنى فصل) الموجود في لفظة إفريقية. وقد ذكروا لنا أن إفريقية سميت كذلك لأنها « فرقت بين مصر والمغرب » أما بالنسبة إلى الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الافريقي (Léon l'Africain) فقد سميت كذلك لأنها مفصولة عن أروبا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط .

وقد وضعت كثير من الاشتقاقات الأخرى بالرجوع دائما إلى الجذر اللغوي، أورد بعضها المؤلفون القدامى. و اقترح بعضها الباحثون المعاصرون، وهي مستمدة من أصل لاتيني أو يوناني أو سامي . فقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

رجعـــوا بأصـل اســم أفريكـا Africa إلى اللفـــظ اللاتيـــني aprica (بمعـــنى الساخنة) وهو الاشتقـــاق الـــذي ذكره ايزيدور Isidore:

" Africam quidam inde nominatam existimant, quasi apricam, quod sit aperta vel soli et sine horrore frigoris". ، وسرفيـوس (Sarviys)، (انظر تيســو (Tissot) **استكشاف علمي للبلاد التونسية** ج ا،289، تعليق 2؛ غزال (Gsell)، **افريقيا** ج VII ، ص 3، تعليق 8 . كما أشارإلـى ذلـك الاشتقـاق أيضـا المـــؤرخ ابن أبـي دينـــار الـذي اعتبـــر اللفـــظ اللاتيني بمثابـة جـذر لغـــوي عربي فكتـــب يقـــول : « قـال ابن الشبـاط ناقـــلا عن بعـــض المصـادر إن افريقيـــة كانت تسمـى ابريقيـة Aprica، وهـي كلمة مشتقة مـن البريـق، لصفاء سمائهـا من السحـــب». [انظـر **المؤنـــس**، ص 19]. كما رجعـوا بأصل الاسم إلى الكلمة اليـونانية (a- phrike) أي بدون برد [انظر دافزاك d'Avezac **افريقيا**،ص 4]،أوبالخصوص إلى الجذر اللغوي السامي(ف ر ق). فالباحـث الأول وهو م. دافزاك M.d'Avezac بـدأ بالاشـارة إلى أن بعضهم قـــــد سعى إلى أن يجـــد في كلمـة إفـريقيـة معنى «الأرض الخصبـة بالسنابـــــل، أو بـــلاد النخيـــل، أو المنطقة المغبرة، أو الإقليم المتفـرق المشتت. أو أرض بـــرقـة » . ثم أضـاف يقـــول : « لكن كم تبـــدو هـذه الافتراضات متكلفة متصنعة بالقياس إلى ما كان أكده سويداس Suidas بكل بساطـة عندما أعلن أن إفـريقيا هي الاسم القـديم لقرطاج نفسهـا...» أما معنى الاشتقاق الجذري لهذه التسميـة القديمة، فهـذه لغة قرطـاج نفسها تمدنا به بكل بساطـة وطبيعية إذ تشير في كلمة افريقية Afryqah إلى مركز منفصل أو مستعمـرة لقاعـدة صور. وجـاء العـرب فاستعملـوا اشتقاقـا قياسيا و سموا الأرض التي تنتسب إلى افريقه العتيقة «إفريقية» .

وهذاالتأويل الذي تبناه دي سلان deSlaneورفضه كل من فورنال Fournel وتيسو Tissot وغزال Gsell ، يصطدم بعقبتين رئيسيتين :

ـــ أ ـ فـإنه ليس من الثـابت مطلقـا أن قـرطـاج قد كـانت تسمت بـاسم «افريقية» في العصور القـديمة. فالشهادة المنفردةالتي قـدمها سويداس في هذا الباب عندما قال Carthago, quae Africa et Byrsa dicta fint إنما هي شهادة كاتب متأخر (من القرن التاسع والعاشر) لا يثق به العديد من الباحثين . فكلامـه إذن لا يمثل دليلا حـاسما. [انظر فـورنال، **البربر** ج I، ص 24 تعليق 2؛ غزال، **افريقيا**، ج VII، ص 3 تعليق 2].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ ب ـ ومن ناحية أخرى، وبالإضافة إلى عقبات الاشتقاق، فإن كلمة آفر Afer ومشتقاتها ـ وهي ألفاظ غير لاتينية بدون شك ـ لم يقع العثور عليها في أي نقش كتابي بوني، لا في عهد غزال [انظر **افريقيا**، ج VII، ص 4]، ولا حتى في أيامنا الحاضرة .

حينئذ تمّ اللجوء بطبيعة الحال إلى التفكير في اشتقاقات أخرى بالاعتماد على اللغة البربرية : انطلاقا من كلمة افري (= مغارة) أو من إفران أو بالخصوص من اسم قبيلة أوريغة. وقد تقدم بفكرة هذا الاشتقاق لاول مرة الباحث كارات Carette مستوحيا إياه من اشتقاق كلمة ليبيا المتداولة عند اليونان والتي أطلقت في بادىء الأمر على بلاد قبائل ليبو Lebou أو اللواتة. وقد كتب بخصوص أصل كلمة أفريكا، ناسجا في تفكيره على منوال المثال السابق فقال : « كانت هذه الكلمة بالنسبة إلى المعمرين الفينيقين بقرطاج مثلما كانت كلمة ليبيا عند المعمرين اليونان بقريني Cy-rène ... أي تسمية مقتسبة من الشعب الذي يحصل أول اتصال به، وهي تسمية يكون قد تم بعد تكريسها في نطاق تقاليد البلاد. بل أن تسمية أفريكا قد سبقت تسمية ليبيا مثلما كان انتصاب القرطاجيين سابقا لارتكاز القرينيين [انظر **بحوث** ... ص 309-310]. وبعد أن أضاف كارات أن «هذا الاشتقاق في تسمية افريقيا لا يقوم على أساس وثائق » وأنه يعتبره مع ذلك اشتقاقا « محتملا » حاول أن يثبت، بواسطة تحميل بعض الدلائل الضعيفة أكثر مما تحمل، أن قبائل أوريغة كانت تسكن حسب المفروض في أقدم العصور، البلاد التي أصبحت تحتلها دولة قرطاج. وفي عهد حكم هذه الدولة « تم القضاء ، فيما يبدو على قبيلة أوريغة هذه (= أوريغة) وتشتيتها، باستثناء الهوارة وهم بطن منها ... » (انظر **بحوث** ... ص 311) .

وقد رجع إلى القول بهذا التفسير وإلى تبنّيه كل من فيفيان دي سان مارتان Vivien de Saint Martin وتيسو Tissot اللذين يريان أن الاوريغة هم نفس الأفارقة الذين ذكرهم الجغرافيون العرب، ونفس « الايفوراكس » ifuraces الذين يتحدث عنهم كورييوس Corippus ونحن نعلم اليوم أن الجمع بين كل هذه المسميات في هوية واحدة هو من قبيل المجازفة. هذا وإن تأويلات كارات (Carette) ليس لها من أساس سوى بعض الافتراضات الواهية البناء. وإذ لم نظفر بأي تفسير ثابت

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يقيني في هـذا الباب، وإذا مـا أبينا النسج على منـوال فورنـالFournel أو غزال Gsell في التزام جـانب الحكمة والإقرار بجهلنا، فقـد يكون الافتراض الأبعد عن المجازفة والخطأ هـو القـول بـأن لفـظ أفريكا (= إفريقية) مشتق من الجذر اللغـوي السامي (ف ر ق). وفعلا فبما أنـه لا يمكن أن يكون الرومان قد وجدوا هذا اللفظ في لغتهم ذاتها ولا أن يكونوا اقتبسوه عن اليونان ـ الذين كانوا يطلقـون على إفريقيا اسم ليبيا ـ فلا يبقـى إذن مـن احتمـال آخر سـوى أنهـم تلقـوه من أسلافهم البونيّين الذيـن أورثوهم البـلاد بعـد أن دارت عليهم دائرة الحرب والسـلاح. وفعلا فإن عبارة البلاد الافـريقية Terra Africa أو المقاطعة الافـريقية Provincia Africa ـ وهي ما عرف عند العرب بإفريقية ـ أطلقت في أول الامـر على الأرض التي وقـع انتزاعهـا من قرطاج وإدخالها في حكم رومـة. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي تم إثباتها بصورة لا تدع مجالا للشك أو النزاع .

ويوجد بعـض الـتردد فـي النطـق بكلمـة إفريقيـة. وهـو نـاشيء عـن عـدم ضـبط الحركـات فـي الكتـابة العربيـة. فبعـض أصحـاب المعـاجم يـوردون اللفظـة بـدون حركـات ولا يضبطـون طريقـة نطقها للقـارىء [انظر **القاموس**،III ، ص 275 ، **الصحاح**، ج IV . ص 1543]. أما عند ابن دريد [انظر **الجمهرة**. ج I ص 126] فإن الكلمة قد ضبطت بصيغة : «إفريقيّـة» بتشديد الياء. ولا ندري هل أن القائم بضبط حـركات هذه الصيغـة هـو مؤلـف الكتـاب أو ناشـره. ويؤكد ابن منظور (انظر **لسان العـرب**، ج. X ، ص 307) أنـه ينبغي أن ننطقها « مخففة الياء »، ويذهب الزبيدي (انظر **تاج العروس**، ج VII، ص 46) نفس المذهب فيذكـر لنا أنه يجب قراء تها « بـالكسر... وهي مخففة ». ويضيف هذان المؤلفـان أن جمـع إفريقيـة هـو أفـاريق ويستهـديان ببيتين للشاعر الأحـوص لا نرى فيهما دليلا قاطـعا. أما ابن أبـي ديـنار فـهو يـرسم الكلمـة بصيغة إفريقيـا تارة (كما ورد في العنـوان مثلا) وبصيغة إفريقية طورا. (انظر **المؤنس**، ص 19) .

أما اليوم فإن الاستعمال الغالب شيئا فشيئا هو أن يطلق اسم إفريقيا على القارة بأكملها ، وتخصص صيغة إفريقيـة لتسمية المنطقة الترابية العربية الاسلامية التي كانت تحمل هذا الاسم في العصر الوسيط.

حدود افـريقية : يكتنـف حـدود هذه المنطقـة الترابية غمـوض كبير.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فالمعطيات التي يوردها مختلف الجغرافيين والمؤرخين العرب المسلمين ليست دائما متطابقة، ومن المؤكد أنّ الحدود الثابتة لافريقية لم تكن في أذهانهم واضحة تمام الوضوح. وبوجه عام فإن إفريقية كانت بالنسبة إلى مؤرخي الفتح الأول تطابق المنطقة التي كان يحكمها البطريق غريغوريوس (أو جرجير) وكانت سلطته تمتد من طرابلس إلى طنجة (انظر ابن عبد الحكم (المتوفى سنة 257 هـ / 871 م)، **فتوح إفريقية** ... ص 42-43، البلاذري (المتوفى سنة 279هـ/ 892م)، **فتوح البلدان**، ج I، ص 267 على أننا نرى نفس البلاذري، قبل ذلك بصفحة ينقل قول عمرو بن العاص من كتاب له موجه إلى عمر بن الخطاب : « بلغنا طرابلس وهي مدينة بينها وبين إفريقيامسيرة عشرة أيام». أما في رأي الورّاق (القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي) وهو أحد مصادر البكري (انظر **المسالك**، ص 21) فإن « حدود إفريقية تمتد طولا من برقة في الشرق إلى طنجة الخضراء المسماة أيضا موريتانيا في الغرب. أما عرضا فإن هذه الحدود تمتد من البحر إلى الرمال التي هي أول بلاد السودان. » (انظر أيضا ياقوت ج I، ص 228؛ الحميري، **الروض**، الورقة 75؛ ابن أبي دينار ، **المؤنس** ص 20). وهكذا فإن إفريقية كانت في نظر كل هؤلاء المؤلفين تشمل كامل المغرب الاسلامي تقريبا. وقد طرأ على هذا المفهوم تدريجيا شيء من التعديل والدقة عند بعض المؤرخين الآخرين بصورة مواكبة للتقلبات السياسية التي شهدتها البلاد على وجه الخصوص .

فالجغرافي ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885 م) الذي يقسم العالم المعمور إلى أربعة اقسام ، يختار استعمال الاسم الذي اصطلح عليه اليونان في تسمية القارة الافريقية فيسميها لوبية (= ليبيا) ويدخل في نطاقها مصر والحبشة وبلاد البربر وغيرها (انظر **المسالك**، ص 24-25). وهو يخصص لفظ افريقية ليطلقها على إمارة الأغالبة ويذكر أهم المدن فيها (**المسالك**، ص 6-7). وإنا لنشاهد هذه النزعة في حصر إفريقية ذاتها، على أقصى ما بلغته من اتساع، في المملكة التي حكمها الأغالبة، عند معظم الجغرافيين الآخرين (ابن الفقيه (المتوفى حوالي سنة 290هـ/ 903م)؛ **البلدان** ص 30-31؛ الاصطخري (المتوفى حوالي سنة 350 هـ/ 961م)، **المسالك**، ص 33؛ ياقوت (المتوفى سنة 626هـ/

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1229 م)، ج I ، ص 228 ؛ المراكشي (المتوفى حوالي سنة 647 هـ/ 1249 م) **المعجب**، ص 273 ، 433 ، 442). وقد كانت هذه المملكة تبدأ من شرقي بجاية وتمتد حتى تقف على بعض فراسخ من برقة . (انظر اليعقوبي، **البلدان**، ص 215) .

هذا في حين يرى سحنون (المتوفى سنة 240 هـ / 855 م) أن حدود إفريقية كانت تمتد من طرابلس إلى تبنة » (حسب الداودي، **الاموال**، ضمن **مزائج** Mélanges **ليفي بروفنصال**، جII ص 409) . أما بالنسبة إلى المقدسي (المتوفى سنة 375هـ/ 985م) فإن « أول ما يعترضك عند خروجك من مصر كورة برقة، تليها إفريقية، ثم كورتاهرت وسجلماسة وفاس، ثم السوس الأقصى » (انظر **أحسن التقاسيم** : ص 4-5). وهو يذكر من بين مدن إفريقية جزيرة بني زغناية (أو بني مزغناي أي الجزائر) وما تيجة أي (المتيجة) وآشير، وهذه مناطق لم تكن في أي يوم من الأيام خاضعة لسلطان الأغالبة . ولنذكر في آخر هذا الاستعراض أن ياقوت يحدّها غربا - حسب ما يراه البعض - ببجاية أو بمليانة، في حين يذكر ابن أبي دينار أن كلمة إفريقية لم تعد تطلق في عصره (أي في أواخر القرن السابع عشر) إلا على سهل مجردة حتى مدينة باجة (**المؤنس** ص 20). ولا يزال هذا المعنى مستعملا إلى اليوم في لغة أهل البادية بالبلاد التونسية .

وجملة القول أنه قد تم التوسع أحيانا بمعنى إفريقية حتى شملت كامل بلاد المغرب كما جرى اعتبارها في بعض الأحيان الأخرى منطقة جغرافية قائمة بذاتها. ويمكن أن نقول إن الرقعة الجغرافية لإفريقية كانت تشمل أساسا رقعتي البروقنصلية والمزاق Byzacène اللتين تكونان النواة الأصلية فيها. وتضاف إليهما عرضا واستطرادا مقاطعات طرابلس، ونوميديا الأوراس بل وجزء من نوميديا السطيفية أحيانا. وقد كان يركّب على هذا المفهوم الجغرافي مفهوم آخر إداري. وبهذا الوجه فإن الاخباريين كانوا يذهبون في كتاباتهم إلى إطلاق اسم افريقية على الرقعة الترابية التي كان مرجع حكمها في العصر الوسيط مركزا بالتداول وفي قاعدة القيروان ثم المهدية ثم تونس، وقد كانت هذه الرقعة تتسع وتضيق بحسب ظروف التاريخ وتقلباته. لذلك كان استعمال لفظ إفريقية محاطا في غالب الأحيان بقدر كبير من الغموض، فلم يكن معناه يتضح ويستقيم إلا في ضوء السياق المقصود والفترة التاريخية المعنية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثبت المراجع

المؤرخون والجغرافيون العرب : ابن عبد الحكم، **الفتوح**، تحـ. مع ترجمة جزئية لـ أ. غاطو A.Gateau، الجزائر 1948، ص 34 ـ 35 ، 40 ـ 42 ؛ اليعقوبي ـ فيات Wiet، ص 215؛ الطبري، **التاريخ**، القاهرة 1939، جIII، ص 254؛ ابن خرداذبه، **المسالك**، تحـ. مع ترجمة جزئية لحاج صادق، الجزائر 1949، ص 30- 31 38-39؛ البلاذري، **الفتوح**، تحـ. المنجّد : القاهرة 1956، ج I. ص 266 ـ 275 المسعودي، تحـ. وترجمة بلا Pellat ، الفقرات 1002، 1027، 1086؛ الداودي، **الاموال**، تحـ. مع ترجمة جزئية لحسن حسني عبد الوهاب وفرحات الدشراوي **في دراسات في الاستشراق مهداة الى روح ليفي - بروفنصال**، باريس 1962، ج II، ص 409 - 428؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ. مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch.Pellat، الجزائر 1950، ص 4- 5، 12- 13؛ الاصطخري، **المسالك**، تحـ. حيني وغربال، القاهرة 1961، ص 33؛ ابن حزم، **الجمهرة**، تحـ. ليفي ـ بروفنصال E.Lévi-Provençal، القاهرة 1948، ص 410 - 411؛ البكري، **المسالك**، تحـ. مع ترجمة لدي سلان de Slane، باريس 1965، ص 21 ؛ ياقوت، ط. بيروت 1955، جI، ص 228ـ 231؛ المراكشي، **المعجب**، تحـ. محمد سعيد العريان القاهرة 1963 ، ص 273 ، 433 442؛ أبو الفداء، **التاريخ**، ج I ، ص 102؛ ابن عبد المنعم الحميري، **الروض**، مخطوط بمعهد الدراسات الاسلامية بباريس، الورقة 75؛ ابن خلدون، **كتاب العبر** ، بيروت 1956، ج I ص 16ـ17، ج II ، ص 95ـ96 108ـ109، 170ـ171؛ ليون الافريقي Léon l'Africain، **وصف افريقيا**، ترجمة ايبولار A.Epaulard، باريس 1956، جI، ص 3ـ4؛ ابن ابي دينار، **المؤنس** تحـ. م.شمام، تونس 1967، ص 19ـ21.

الدراسات الحديثة (هذه القائمة تستعرض (بصورة تقارب الشمول) المصادر اليونانية واللاتينية، بصرف النظر عن المصادر العربية :

M.d'Avezac , **Afrique, esquisse générale de l'Afrique et Afrique Ancienne**, Paris 1844,4-5 ; E.Carette , **Recherches sur l'origine et les migrations des principales tribus de l'Afrique Septentrionale** ,Paris 1853 , 306 - 12 ; M.G.de Slane, **Histoire des Berbères,** Alger 1956, IV, 564 - 5 , 571 - 2 ; M. Vivien de Saint-Martin , **le Nord de l'Afrique...,** Paris 1863, 149 - 152 ; H.Fournel, **les Berbers,** Paris 1875 - 81 , I , 23 - 32 ; Ch.Tissot , **Exploration scientifique de la Tunisie,** Paris 1981, I, 388 - 91 ; St.Gsell, **Histoire ancienne de l'Afrique du Nord,** Paris 1930 , VII, 2 - 8 (exposé le plus clair sur la question) . E.F.Gautier, **le passé de l'Afrique du Nord,** Paris 1952, 125 - 6. M.Talbi, **L'Emirat Aghlabide,** Paris 1966, 122 - 9; H.Djaït, **la Wilaya d'Ifriqiya au II / VIIIe siècle) dans S.I.** 1967, XXVII, 88-94; voir aussi: **Algérie, Berbères, Libye, Maroc, Tunisie** (in E.I).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

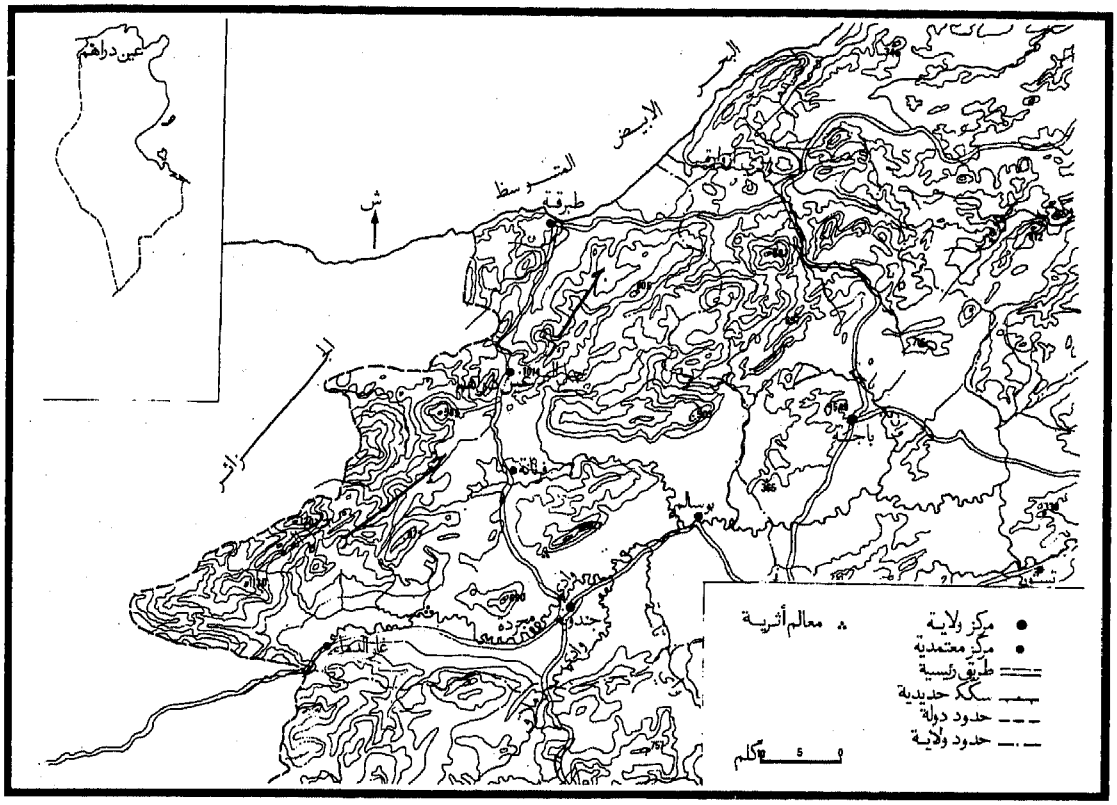

خُمير

خُمير (أو خمْير، كما ينطقها الأهالي باللّهجة المحلية) هو عنصر من سكّان تونس سمّيت باسمه السلسلة الجبلية الممتدة على ساحل البحر بالشمال الغربي من البلاد. وجبل خمير ومنطقته هما جزء من ولاية جندوبة التي تساوي مساحتها 3000 كلم مربع وتؤوي من السكّان عددا يساوي 255000 نسمة، منهم 225000 من البربفيّين (إحصاء ماى 1966). وكتلة جبال خمير، التي هي امتداد بالبلاد التونسية لسلسلة الأطلس التليّ مكوّنة من تجاعيد من الحثّ كبيرة التفاوت والفروق بين جبال وأهواد، ومتجهة من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وتوجد بين طرفي هذه الكتلة الجبليّة، الفاصل بينهما منخفض غزوان الكلسي التربة والمفتوح للزّراعات،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فروق محسوسة رغم وحدة هذه المجموعة . فمنطقة خمير الغربية يبلغ أقصى ارتفاعها بجبل الغرة علو 1202من الأمتار. أمّا المنطقة الشرقية وهي عسيرة المدخل وعرة المسلك رغم تواضع ارتفاعها فإنهّا تبلغ 1014 مترا في أعلى جبالها ، وهو جبل البير الذي يشرف على مدينة عين دراهم. وإنّك لترى حيثما توجّهت جبالا عميقة الأخاديد ووهادا وعرة المنحدرات تضفي مظهرا بريّاعلى كامل هذه الجهة المكسوّة بغابة تمسح 47000 هكتار، سبعة أعشارها من شجر بلّوط الفلين، وعُشُران منها من شجر الزّان، والعُشرُ الأخير أشجار متنوعة منها الزيتون البرّي. وأمّا نبت الحراج تحت الأشجار فيتكون غالبا من السرّخس. وقد وقع منذ عهد قريب إدخال أنواع أخرى من الأشجار إلى المنطقة مثل شجر صنوبر البندق. ومعدّل نزول الأمطار بمنطقة جبل خمير هو أعلى معّدل بالبلاد التونسية (إذ يبلغ مترا كاملا في السنة، مع حد أقصى بعين دراهم في مستوى 1,575مترا) .

ورغم وفرة الأمطار و أهمية نزول الثلوج نسبيا فإنّ هذه المنطقة الجبلية تشكو نقصا في المياه. فالعيون كثيرة لامحالة لكنّها شديدة التشتت وقليلة الغزارة في الغالب، بل أنّ بعض العيون يغور ماؤها تماما في فصل الصيف .

وفي العهود القديمة لم تبق منطقة جبل خمير بمعزل عن توغّل الرومان ونفوذهم. وكانت تشقّها ثلاث طرق. ففي اتجاه الطول الطريق الرابطة بين قرطاج وهيبورجيوس Hippo Regius التي أصبحت تسمّى بونة ثم عنّابة حاليا، مرورا بهيبود ياريتوس Hippo Diarhytus وهي بنزرت حاليا. وفي اتجاه العرض الطريق التي تصل بين سيميتو Simittu، وهي شمتو الحالية وطبراقة Thabraca أو طبرقة وقد اكتشفت عدّة بقايا من هذه الطريق. ثم الطريق التي تخرج من فاجة Vaga أو باجة الحالية لتوافي نفس مدينة طبرقة عبر تريسيبه. وقد كانت طبرقة في أول عهدها مصرفا تجاريا ساحليا للقرطاجيّين ثم أصبحت ابتداء من القرن الرابع واحدة من أغنى أسقفيات إفريقيا وكانت تزوّد رومة بمنتجات المنطقة مثل خشب البناء والوحوش وكذلك الزيت والقمح والمواد المنجمية. كانت « مدينة ترف للفن فيها منزلته إلى جانب الأعمال التجارية » (كما يقول عنها ب، غوكلار في كتابه **فسيفساء**، ص 155 P.Gaukler, Mosaïque) وقد قدمّت الينا لوحات فسيفساء زاخرة بالفن والجمال .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ومن الغريب أن منطقة جبال خمير لم يكن لها ذكر في أحداث التاريخ ولم تلفت الانتباه طوال العصر الوسيط كلّه، إذ أنّ صمت مصادرنا عنها كامل. وعلينا أن ننتظر العصور المتأخّرة وخاصة منها العهد المعاصر لنرى هذه المنطقة تدخل في التاريخ، فتبرز لنا كموطن هروب واختباء ومركز مقاومة في نفس الوقت، خارج بصورة كاملة أو تكاد عن سلطة حكّام تونس.

وكان لأهالي خمير علاقات ودّية ومثمرة مع الصيّادين الجنويّين المستقرّين منذ سنة 947 هـ / 1540 م. بجزيرة صغيرة مساحتها 40 هكتارا يفصلها عن طبرقة مضيق بحري عرضه 500متر. لذلك تأثّروا بشدّة عندما قام علي باشا سنة 1153 هـ / 1740 م. باسترجاع هذه الجزيرة عنوة (انظر ابن أبي الضيّاف، **الإتحاف**، ج 2 ، ص 124)، وفي سنة 1183 هـ / 1769-1770 م. التفّ أهالي خمير حول الدعي عثمان الحدّاد، الذي وقعت بعد ذلك مباغتته وأسره ثم قتله (انظر نفس المصدر، ج 2، ص 165) وفي سنة 1260 هـ / 1844م. ساندوا دعيا آخر كان يزعم أنّه من ذريّة عثمان باي. وقد وقع هو الآخر في الأسر بالحيلة وضربت عنقه، (نفس المصدر، ج 4، ص 78-79 نشر أحمد عبد السلام، ص 116 ـ 117) . وفي سنة 1282 هـ / 1865 م، قام علي باي، على رأس «المحلّة » المكلّفة بجمع الجبايات، باستنزاف كلّ ما يملكه أهالي منطقة باجة، لكنّه لم يجرؤ على الإقدام على دخول منطقة جبل خمير التي لم يدفع أهاليها « المجبى » إلاّ في حدود ما ارتضوه ووافقوا عليه (انظر ابن أبي الضيّاف، المصدر المذكور، ج 4، ص 55، 65) لكنّ جبل خمير لم يشارك في انتفاضة سنة 1864 ـ إذ لم تشعر المنطقة أنهّا معنيّة بهذا الأمر- ولا في اضطرابات سنة 1867-1868

ولم تحتلّ المنطقة فجأة مقدّمة الأحداث إلاّ في سنة 1881. فقد كان من عادة أبناء خمير نهب أملاك أجوارهم بما في ذلك أهالي الجزائر. ونظرا إلى أنّ عامل طبرقة ـ الراجع إليه أمرهم مبدئيا ـ لم يكن له عليهم أي نفوذ حقيقي، فقد قررت السلطات الفرنسية ،في نطاق سياسة شديدة التشعّب كانت تشهد تنافس العديد من الدول الكبرى، أن تقوم بردّ الفعل. وشرع الفرنسيّون في شنّ العملية التي آلت إلى انتصاب حمايتهم على البلاد التونسية. ففي 24 أفريل 1881 اقتحمت الجيوش الفرنسية التراب التونسي، وبعد يومين احتلّت هذه الجيوش مدينة الكاف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بدون قتال، وفي 13 ماي جاء دور عين دراهم، ثم قام الجيش الفرنسي في اليوم الموالي بتشتيت جموع بني خمير بموقع ابن مطير إثر معارك شديدة.

أمّا عن أصل سكّان جبل خمير فإنا لا نملك أية معلومات دقيقة أو ثابتة. وإنّا لا نعثر على لفظة خمير في أيّ نصّ من كتابات العصر الوسيط، وفي العهد الذي ألّف فيه ابن خلدون ـأي القرن الثامن هـ / الرابع عشر م ـ كانت المنطقة الممتدة بين باجة والبحر آهلة بالبربر من قبيلة هوارة، وقد تعرّبوا تماما، وبمن اختلط بهم من العناصر العربية الأصلية، ولاسيما بعض بني هذيل (انظر **كتاب العبر** 6ـ 288ـ289، ترجمة دي سلان ، **البربر**، ج 1 ص 279).

وبنو خمير يشكّلون بالنسبة للمؤرخ لغزا مبهما يتعذّر حلّه، فهم لا يظهرون إلاّ في القرن التاسع عشر، ولا نكاد نجد عنهم مع ذلك في الوثائق الرسمية سوى بعض الإشارات العابرة بمناسبة قيامهم بنهب أجوارهم في السهول أو عند محاولة « محال » الجيش إرغامهم على دفع الجبايات، لكن بدون جدوى . فمن هم هؤلاء الناس ؟ أماهم أنفسهم فينتسبون إلى العرب . وإنّه يوجد فعلا باليمن منبع ماء يسمّى خميرا (انظر ياقوت ، **البلدان** ، ج 2، ص 390، ج 3 ، ص 406) كما توجد قبيلة قحطانية تدعى بني خمر (انظر القلقشندي، **النهاية** ص 247) وقد يكون خمير تصغيرا لها. وتقول الأسطورة أيضا إنهّم ينحدرون من رجل يدعى خميرا بن عمر ، وهو أحد مشاهير أصحاب عقبة بن نافع فاتح المغرب، ويقال إنّ أحد أولاد خمير هذا، وهو سيدي عبد الله أبو الجمال، قد أنهكه الجهاد في سبيل الله فاعتزل بقلب منطقة الجبال فوق نجد عال يبعد حوالي 5 كيلومترات في اتجّاه الجنوب الغربي من عين دراهم، وانتظر حتى أدركه الموت هناك. وقد أقيمت « زاوية » بذلك المكان مازالت تخلّد تلك الأسطورة وتقوّي اللّحمة بين بني خمير في إكبارهم وإجلالهم شبه الكامل لوليّهم الصالح وجدّهم المفترض. وفي رواية أخرى يكون بنو خمير قد أقاموا أول الأمر بجنوب البلاد التونسية حيث كانوا أتباعا لشابيّة القيروان، وأثناء القرن الثامن عشر اضطروا للهجرة إلى الشمال والنزول بالمنطقة الجبلية التي أصبحت تتسمى باسمهم .

وينقسم بنو خمير إلى عدة عروش وبطون أهمّها بالجهة الشرقيّة من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

منطقة جبل خمير : أولاد عمر والحوامديّة وأولاد بن سعيد والسعاديّة والوراهنيّة والطواجنيّة بجهة طبرقة. وسلول وهذيل وأولاد مسلم والخرايصيّة والجدايديّة والجوابليّة والملايكيّة وأولاد موسى وأولاد هلال والحمران والدبابسة وخصوصا العطاطفة بجهة عين دراهم. والقواديّة والتباينيّة والشيحيّة بجهة فرنانة. أما بالجهة الغربيّة من المنطقة فيوجد من البطون بنومازن و أولاد علي والخزارة والمراسن و وشتاتة. ومن العبث أن نحاول التمييز بين العرب والبربر في هذه القبائل. وفعلا فإنّ سكّان هذه المنطقة الجبليّة هم خلاصة تمازج طويل وعميق بين أجناس وعناصر مختلفة،يرجع إلى أوّل العهد الوسيط أو إلى ماقبل ذلك. وقد عجل في حصول هذا التمازج بدون شكّ زحف بني هلال في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. ثمّ بني سليم في أوائل القرن السابع هـ/ الثالث عشر م. وتجدر الإشارة إلى أن لهجة التخاطب العربيّة الحاليّة لا تشتمل على أي أثر من اللّغة البربريّة و إنّنا نعثر أحيانا على خيمة من خيام الرّحل منصوبة في قلب الجبال، وفي ذلك ما فيه من الغرابة .

أمّا الرحّالون والمهتمّون بوصف البلدان والأقاليم من كتّاب العصور الوسطى فإنهّم لو يولوا جبل خمير في حد ذاته كبير اهتمام، وإنّما تحدّثوا خصوصا عن الطرقات والمسالك. أمّا الأول، وهو ابن حوقل، وقد زار المغرب في آخر النصف الأول من القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، فهو يذكر أنّ « الجادّة » بين تونس وطبرقة تمرّ بباجة (انظركتاب **صورة الأرض**. ص 76) ويذكر البكري، الذي كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م، أن الطريق بين باجة وطبرقة مقسّمة على ثلاث مراحل مرورا بباسلي ودرنة (انظر **المسالك** 86 ــ 87 / 120 ــ 121). ويشير الإدريسي (أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م) إلى وجود طريقين بين تونس وطبرقة، الأولى تمر ببنزرت والثانية تنفرع عند باجة (انظر **النزهة** 84-85). ومن البديهي أن هذه الشبكة تتبع من قريب الطرقات والمسالك الموروثة عن العصورالقديمة .

ونحن لا نملك أية معلومات مدقّقة عن المدن أو القرى بجبل خمير طوال العصر الوسيط بأكمله. وأقصى ماهو بالإمكان متابعة تطور مدينة طبرقة. وقد سبق أن رأينا أنهّا شهدت ازدهارا كبيرا في العصور القديمة. وفي القرن الرابع هـ / العاشر م. لم تعد طبرقة ـ حسب ما يرويه ابن حوقل ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

سوى « قرية وبيئة » تعشّش فيها العقارب، ليس لها من أهمية سوى ما تجلبه لها حركة السفن بينها وبين الأندلس ووظيفتها كمركز جمركي (انظر المصدر المذكور، ص76) .وفي القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. يشير البكري إلى وجود آثار ضخمة من معالم تعود إلى العصور القديمة مازالت ماثلة بالمدينة التي احتفظت ببعض الازدهار الناتج عن نشاط مينائها. أمّا في القرن السادس هـ /الثاني عشر م.فإنّ الإدريسي يؤكد لنا أنها لم تعد سوى حصن قليل الساكن يحيط به أعراب لا عهد لهم ولاذمّة يعيشون على النهب والسلب. وفي خاتمة المطاف أصبحت المدينة في أوائل القرن السادس عشر مجرّد « ميناء مقفر » (حسبما يذكره الحسن بن محمدالفاسي المعروف بليون الإفريقي في كتاب **وصف إفريقيا** ص Jean-Léon l'Africain, Description de l'Afrique ،549 أمّا اليوم فإنّ طبرقة (وعدد سكانها4000شخص) ** ميناء متواضع يصدّر بالخصوص إنتاج منطقة جبل خمير من الفلين (من 3إلى4000طن سنويا). وتعيش المدينة كذلك من الصيد البحري ومن استغلال المرجان ــ ولو بصورة محدودة ــ كما أنهّا استفادت، في حدود أكثر تواضعا من بعض الجهات الأخرى، من النهضة السياحية التي شهدتها البلاد التونسية .

وأهمّ التجمّعات السكنيّة بمنطقة جبال خمير هي مدينة عين دراهم على ارتفاع 800 متر، وهي محطة اصطياف ومركز لصيد الخنزير الوحشي. أمّا فرنانة وارتفاعها 275 مترا ـ فهي بالخصوص مركز لسوق أسبوعيّة. وببّوش ليست سوى قرية حدوديّة على طريق المرور إلى البلاد الجزائرية.

أمّا ابن مطير فهي قرية صغيرة متواضعة وقع بالقرب منها بناء سدّ على وادي اللّيل سنة 1955 طاقته 73مليون متر مكعب لتوليد الطاقة الكهربائية وتزويد مدينة تونس بالماء. ويوجد سدّ آخر بصدد البناء على مجرى الوادي الكبير.(***)

وبالرغم عن الجهود المبذولة في سبيل التجميع فإن السكن بقي في الغالب متّسما بالتشتّت بحسب عيون المياه ومواقع الضيعات الزراعية الصغيرة. ولم يقع القضاء تماما على الأكواخ المطيّنة أو المتّخذة من أغصان الشجر ونبت الحراج .

وفي الحقيقة فإنّ منطقة جبال خمير منطقة فقيرة تقتصر على تعاطي اقتصاد أساسه الغابات والمراعي. ومستوى العيش بهذه المنطقة هو من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أشدّ المستويات انخفاضا بالبلاد التونسية. وأهمّ مورد لهذه الجهة ناتج عن تسويق الفلين. كما توفّر زراعة التبغ أيضا موارد لا بأس بها. أمّا تربية الماشية (من بقر وغنم وماعز) فهي لم تشهد أي تطور ، ولا توفّر سوى دخل ضعيف. هذا وإنّ الجهود المبذولة لتحسين غراسة الأشجار المثمرة بجعل أشجار التفّاح والإجّاص والكرز تتأقلم مع مناخ المنطقة لم تؤدّ إلاّ إلى نتائج محدودة جدّا. أمّا إنتاج الصناعات التقليديّة المحليّة ـ مثل زربية خمير ذات اللون الأبيض والأسود والرملي، وبعض الأدوات من الخشب لوضع الأطعمة وتناولها، والتطريز الخاص بالمنطقة ـ فإنه غير مرغوب فيه خارج الجهة ولا يشغّل إلاّ يدا عاملة قليلة. ولا بدّ من الإشارة أخيرا إلى أنّ المياه المعدنيّة الساخنة الكبريتيّة النابعة ببرج الحمّام والمشهورة منذ العصور القديمة بخصائصها العلاجية الطبيّة، قد كانت منطلقا إلى إقامة محطة معدنية عصريّة بجانب آثار (حمامات ؟) عتيقة، أطلق عليها اسم حمّام بورقيبة. وهذه المحطة التي وقع توسيعها سنة 1973 أصبحت تجلب عددا متزايدا من الزوّار والروّاد التونسيينّ .

المصادر (مرتّبة حسب التسلسل الزمني) : ابن حوقل، **صورة الأرض**، بدون تاريخ، ص 76؛ البكري، **المسالك**، تحـ . وترجمة . دي سلانde Slane باريس ، 1965، ص55 58 / 118 123 ، 83 / 169 ؛ الإدريسي، **النزهة** تحـ جزئي لهنري بيريس(H.Perès) ، ص 84 9186؛ ياقوت، ط ، بيروت، 1956، ج 2، ص 390، ج 3 ، ص 406؛ ابن خلدون، **العبر**، ط ، بيروت، 1959، ج 6، ص 288 ـ 289؛ (ترجمة دي سلان de Slane ، **البربر**، ط، باريس، 1925، ج 1، ص 279)؛ القلقشندي. **النهاية** ، ط. القاهرة، ص 247؛ محمد بن الحسن الفاسي، **وصف إفريقيا** Jean -Léon l'Africain , De- scription de l'Afrique ترجمة فرنسية، أ. إيبولارد A.Epaulard ، ط. باريس، 1956، ص 549؛ محمد الصغيّر بن يوسف، **المشرع الملكي**. ترجمة ف. سارV.Serres وم. الأصرم، ط. تونس؛ ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ط. تونس، 1963، ج 2، ص 124، ج 6 ص 55 ، 65 (نشر أحمد عبد السلام، الباب السادس، تونس، 1971 ، ص 116- 117) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الدراسات : ح. عطية : **التوزيـــع الجغرافـــي لسكّان البلاد التونسية انطلاقا من إحصاء سنة** 1966، بالمجلّة التونسية للعلوم الاجتماعية، العدد 17 ـ 18 ص 505 ـ 524 ؛ أ. دي لابرج (A. de la Berge)، **قصة الحملة الفرنسية بالبلاد التونسية** ، ط ، باريس،1881؛ ف . بـونيـــار F.Bonniard **تونس الشمالية**، ط. بـــاريس ، 1934، ص 101 ـــ 112 ر. بـرانشفيك، **الدولـة الحفصيّـة**، ج 1 ص 299؛ ج 2 ، ص 229 ، ج . ديبـوا J.Despois، **إفريقيـا البيضاء**، ج ١، إفريقيا الشمالية ،ط. باريس ، 1958 ص 16، 51، 275-278 ؛ ج. ديبواو ر.راينالR.Raynal **جغرافيـا إفريقيـا الشماليـــة الغربيّـة**، ط. باريس، 1967، ص 16، 237؛ ج . غانيـــاج J.Ganiage **أصول الحمايـــة الفرنسيّـــة بتونس**، ط. بـاريس، 1959، ص 175 ؛ ب. غوكلارP.Gaukler **فسيفساء قبور بمصلّ شهداء بطبراقـة**، طبعة معـادة بمجلـــة C.T العدد 77ـ78 (سنة 1972) ، ص 153 - 201 ؛ ش. غوطـيس ور.سترول Ch. Gottis et R. Strohl **السدود الكبرى بالبلاد التونسية**، ط. تونس 1952 ؛ م . ن . الأجري **الإحصاء العـام للسكّان** (مـاى 1966)، في المجلّة التـونسية للعلوم الاجتماعيـة، العدد 17 ـ 18 (1969)، ص 127 ـــ 170؛ أ.مارتال A.Martel **التخوم الصحراويّة الطرابلسيّة للبلاد التونسية**، ط. باريس، 1965، ص 413-414، 226 & 228، 432؛ ب . مارتلوP.Marthelot **الانجـراف في جبل خمير**، في مجلّة جغرافيـة جبال الألب R.G.A، سنـــة 1957ص 273 ـــ 287؛ نفـــس المؤلّـــف، **مشاكـل غـابية بالبلاد التونسيـــة**، فـي مجلـة كراريس الإعلام الجغرافي ط. باريـــس، 1954ج 2 ص 35 ـ 47 ؛ أ. بليســـي دي رينـوE.Pélissier de Reynaud **وصف الإيالة التونسيّة**، ط.باريس. 1853؛ت.ج. بنشون Th.G.Penchoen **اللّغة البربريّة بـالبلاد التونسيّة وتعليم الأولاد الناطقين بالبربرية**، فـي المجلّة التونسيّة للعلـــوم الاجتماعيـة، العدد 13 (سنـة 1966) ص 173ـ 195؛ ع، السعيـدي، **تعمير المنطقـة العليـا من مجـرى وادي مجـــردة** في نفس المجلّـة التونسيـة للعلوم الاجتماعيـة، العدد 40 ـ 43 (سنة 1975) ص 185 ـ 233 ؛ ب . سـلامـة P.Salama **المسالك الرومانيّة بإفريقيا الشمالية**، ط. الجزائر1951؛ الكتابة العامة للحكومـــة التونسيـــة، **أسمـــاء القبائل التـونسيّة وتوزيعها**، ط. شالـــون سيرصـــون، 1900. ص 214 ـــ 224 ؛ م، صولينيـاك M.Solignac **دراسـة جيولـوجيّة لشمـال البـلاد التـونسيّة**، ط. تـــونس 1927؛ ل.فـالنسي L.Valensi؛ **الفلاّحون التونسيّون**، ط. ليل، 1975، ص 282؛ أ. فيولارE.Violard. **تونس الشماليّة**. ط. تونس 1906، ص 5 ـ 79، (Z*** / ***ز) **تقييـــدات عن قبائل الإيالـــة التونسيّة** في المجلّة التونسيّة: R.T. العدد 9 (السنة 1902) ص 5.

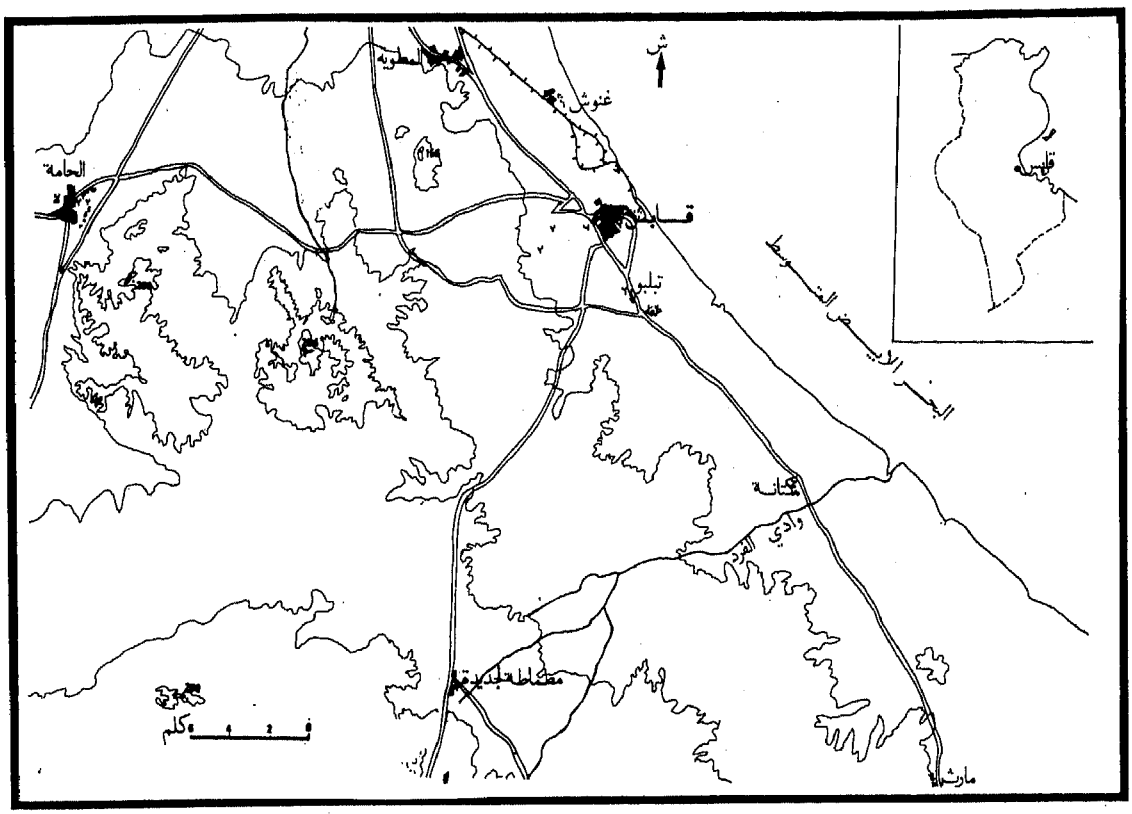

قابس

قابس مدينة بالبلاد التونسية تقع على ساحل الخليج المسمّى بنفس الاسم (وهوالمعروف في العصور القديمة بسيرتا الصغرى)، على مسافة404 كلم جنوبي مدينة تونس، وعلى بعد 150 كلم من مدينة قفصة. وهي تعد 40 ألف ساكن، منهم 1200 من الأوروبيين، وتمثل القاعدة الإدارية لولاية تضم 204 ألاف نسمة ـ حسب إحصاء سنة 1966). (*) وتتكون قابس المدينة ـ التي تم تقسيمها منذ سنة 1957 إلى أربع دوائر ـ من البلدتين القديمتين المعروفتين بـ « المنزل » في عالية وادي قابس، و«جارة» بسافلة هذا الوادي. وقد كانت توجد بين هذين الربضين عداوات قديمة وأحقاد متأصلة ومنازعات ضاربة في أعماق التاريخ، وقد انضاف إلى

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذين التجمّعين، منذ انتصاب الحماية الفرنسية، حيّ عصري جديد أطلق عليه اسم باب البحر أو قابس الميناء، ويقع في أدنى المدينة، ومبان أخرى أحدث عهدا تمتد في اتجاه الجنوب. وقد حلّ الدمار بكلّ من المنزل وجارة في سنتي 1959 و 1962 من جراء الفيضانات الجارفة بوادي قابس. وقد تم اليوم كبح جماح هذا الوادي بواسطة قناة تحويلية متفرعة عن مجراه تجرف مازاد عن الحدّ الطبيعي من مياهه وتصُبّها مباشرة في البحر، ذلك أن مدينة قابس تقع بأسفل منخفض يحدق به شمالا أحد منعطفات الوادي وتحدّه جنوبا مرتفعات سيدي أبي لبابة - حيث يوجدمقام الرجل الصالح شفيع المدينة وحاميها، الذي يقال إنّه من صحابة الرسول -، ومشارف «المنارة » ذات المشهد الشامل البديع، حيث كان ينتصب في العصر الوسيط برج بأعلاه منارة، وحيث أقيم بعد سنة 1962 حيّ شعبي يؤوي المتضرّرين من الفيضانات السابقة.

ويوجد بواحة قابس، حسب ما يؤكده ع. البشراوي الذي خصّها بدراسة حديثة العهد، عدد من الأشجار يساوي 1.400.000 أصل، منها 650.000 من النخيل (وهي ذات تمور غير جيدة)، أي ما يعادل نسبة 47% من المجموع.وتأتي بعد ذلك 107.000 من أصول الرمان من النوع الممتاز تحتلّ بها قابس المرتبة الثانية في الانتاج التونسي، ثم أشجار الخوخ وكروم العنب وأشجارالمشمش، ولا يصلح الزيتون ولا تكون زراعته ناجحة إلاّبجهات كتّانة وطبلبو ووذرف والمطويّة. وتبلغ أشجار الموز مرحلة الإثمار والنضج، لكنّ عددها قليل. أمّا الزراعات على وجه الأرض فهي تتمثل في الحبوب، بمقدار قليل، والأعلاف وخاصّة البرسيم، ثم التبغ والحناء والخضر والبقول، ومنها « السّكوم » أو الهليون، الذي دخل المنطقة حديثا. وأما الماشية فعددها قليل إذ أنّ تربية الحيوان تكتسي في الغالب طابعا عائليا وصبغة تكميلية من حيث القيمة. والبحر على سواحل قابس - على قلة عمقه وكثرة أسماكه - يكاد يكون غير مستغلّ. هذا وقد بلغ توسّع الواحة أقصى حدوده بحكم ارتباطه بطاقة الرّي، ذلك أن الطبقة المائية الجوفية المستغلة فوق طاقتها وإمكاناتها (قرابة 60 بئرا عميقة من 1890 إلى اليوم، قد قاربت حدّ النّفاد).

وقد تمّ منذ مدة اختيار مدينة قابس لتكون مركزا لتنمية الجنوب التونسي، فوقع في هذا الاطار بناء ميناء يتسع لايواء سفن تبلغ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

حمولتها 50.000 طنّ، وتركيز معامل الصناعات الكيميائية المغربية I.C.M، وهي شركة مختصة في صناعة الأسمدة الأزوتية، وينقل إليها الغاز أنبوب يربط بينها وبين حقل البرمة ويزوّد بالطاقة معمل الآجر والمولّد الكهربائي المركزي. هذا وتوفر الصناعات التقليدية والسياحة لمدينة قابس نشاطا إضافيا قابلا لأن يزداد توسعا ونموّا .

التاريخ : قابس هي التسمية العربيّة للمدينة التي كان يطلق عليها في العصور القديمة اسم تاكاب Tacap أو تاكابا Tacapa أو تاكابيTacapae بصيغة الجمع. واللفظة العربية مستمدّة من الصيغة المتداولة للكلمة في حالة المفعولية، وهي تاكابس Tacapas، مع إسقاط أداة التعريف اللوبية البربرية (تا) . وقد كان موقع قابس معمورا بالتأكيد منذ العهد الحجري الجديد، كما نتبين ذلك من الآثار المتعددة. وبعد ذلك كان الفينيقيون، على أقرب الظنّ، هم أوّل من أسس بذلك الموقع وكالة تجارية مختصة في المبادلات مع بلاد نوميديا وفي التجارة عبرالصحراء. وقد تحول هذا المصرف التجاري إلى مرفإ قرطاجي ثمّ أصبح فيما بعد مستعمرة رومانية. وقد توفرت لدينا منذ ذلك الحين بعض المعلومات المدققة عن المدينة.

ومنذ عهد الامبراطور الروماني تيبريوس (14-37 للميلاد) بدأت أشغال إحياء المنطقة بصورة شاملة ومنظمة كما تشهد بذلك عملية التقسيم المئوي. وقدتم ربط تاكابس بقرطاج بواسطة الدرب الساحلي الكبير. وفي سنة 14 فتحت طريق استراتيجية جديدة تصلها ــ عن طريق قفصة ـ بتلابت وحيدرة حيث كان يرابط الفيلق الثالث « أوغسطا » . وبفضل ما كان البونيون قد بذلوه من جهود تمهيدية، ولكن أيضا بفضل هذه الشبكة من الطرقات التي نشّطت حركة الميناء، وأخيرا بفضل مياه وادي قابس الغزيرة ومحاسن السلم الرومانية الشاملة، شهدت المدينة ازدهارا كبيرا يختلف الباحثون في تقدير مداه الحقيقي. وكان محورها يوجد بدون شك فوق الهضبة التي يحتلها اليوم مقام سيدي أبي لبابة. ثم أصبحت خلال الفترة المسيحية مركزا لأسقفية. لكنه لم يتمّ تحصينها إلاّ في زمن متأخرّ جدّا. ويقول ش. ديل Ch.Diehl في كتابه **إفريقيا البيزنطية**، ج I، ص 229 ، ما يلي: « كانت قابس إلى أواسط القرن السادس على الأقل لا تزال بدون أسوار». وقد كانت حمايتها تقتصر على وجود

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قلعة Castellum تسد الطريق في وجه الزحف والهجوم عليها ، وهي طريق البرزخ أو المعبر الذي يربط ليبيا بالمزاق ويمرّ بين ساحل البحر وشط الفجاج. وفي هذا الموقع بالذات أصيبت الجيوش البيزنطية بهزيمة مرّة سنة 547 م في مجابهة مع قبيلة الأشتريكس Astrices . ولا شك أنّ مدينة قابس القديمة Tacapas قد تمّ تحصينها على إثر هذه الهزيمة بسور بقي قائما إلى القرن السادس عشر على أقلّ تقدير. هذا ولا تحتفظ قابس اليوم بأي معلم من معالم ماضيها القديم ... وقصارى ما يمكن ذكره في هذا الباب بقايا «السدّ الروماني» على وادي قابس، وبعض الاساطين والتيجان المعاد استعمالها في جامع سيدي إدريس أو في مقام سيدي أبي لبابة، وبعض مواد أخرى أقل أهمية من ذلك استعملت في عدد من مباني الأحياء القديمة .

أما الظروف التي تم فيها دخول قابس في حظيرة الاسلام فهي محفوفة بالغموض. لكنه من الثابت مع ذلك، ورغم تأكيدات الوزير السراج المتأخرة العهد (انظر **الحلل** ج I ، ص 344)، ان عبد اللّه بن سعد لم يحاصرها أثناء غزوته ببلاد المزاق سنة 27 هـ 648/647 م... فلم يتم فتحها إلاّ بعد ذلك بزمان، خلال الحملات التي قادها معاوية بن حديج أو خلفه عقبة بن نافع بين سنتي 34و 50 هـ650/ و670 م. ثم تمّ الجلاء عنها بعد انهزام عقبة وموته بتهودة (حوالي سنة 64 هـ/684 م) فاستقر كسيلة القائد البربري المنتصر بالقيروان. ومن هناك بسط نفوذه، حسبما يذكره ابن عبد الحكم (انظر **الفتوح**، ص 71/70) على المناطق المجاورة ومنها منطقة « باب قابس »، ومن هذا الباب قامت جيوش الكاهنة حوالي سنة74 هـ / 693 ـ 694 م بطرد حسان بن النّعمان خارج البلاد التي جاء بنيّة استرجاعها. لكنّه عاد فدخل هذه البلاد من نفس الباب بعد مرور بضع سنوات .

ومنذ ذلك الوقت دخلت قابس نهائيا في نطاق الاسلام وأصبحت حياتهاجزءا لا يتجزّأ من حياته. ولم تسلم بالخصوص من الزوبعة الخارجية العنيفة التي هزّت أركان افريقية بأكملها بين سنتي 122 و 155 هـ 740/772 م. ففي سنة 123 هـ 741 م. قام عكاشة بن أيوب الفزاري، وهو من قبيلة زناتة ومن أتباع مذهب الصفرية، بالاستيلاء على قابس، وأصبح خطره يهدّد القيروان حتى هزم وقُتل (سنة 125 هـ 743 م). وبعد ذلك ببعض سنوات، وفي ولاية

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عبدالرحمان بن حبيب، سقطت المدينة من جديد في قبضة الخوارج، من أتباع الأباضية في هذه المرّة. وقد جَرَى استرجاعها مرّة أخرى وتمّ التغلّب على الثائر اسماعيل بن زياد النفوسي وقتله حوالي سنة 131هـ749/748م وكان اغتيال عبد الرحمان بن حبيب (سنة 137 هـ/ 755 م) مؤذنا باندلاع قلاقل أخرى واشتعال نار ثورة خارجية جديدة بقيت المدينة خلالها في أخذ ورد بين ممثلي الاتجاهات والمذاهب المتقابلة المتصارعة. فقد استولى عليها أبو الخطاب الاباضي في أوائل سنة 141 هـ / وسط سنة 758 م. وقام ابن الاشعث بتخليصها سنة 144هـ/ 761م. قبل أن تفلت من يده مرّة أخرى. وفي خاتمة المطاف دخل المدينة يوم 20 جمادى الأولى من سنة 155هـ / 28 أفريل 772م. يزيد بن حاتم المهلبي مؤسس الدولة المهلبيّة واضعا بذلك حدّا، طيلة ربع قرن، للاضطرابات الدامية التي عمّت المنطقة على امتداد عشرات السنين .

وفي عهد الدولة الأغلبية أصبحت قابس مركزا لمقاطعة كاملة ومقرّا لواليها، وقد ذهب الظنّ ببعضهم ـ بناء على قول الشماخي (في **السّير**، ص 203) الذي يشير إلى أنه كان يوجد بالمدينة «عامل» للإمام عبد الوهاب (168 - 208 هـ / 784- 823 م) ـ أن قابس كانت تابعة للدولة الرستمية. وفي حقيقة الأمر فإن هذا « العامل » لم يكن إلا جابيا كان يجمع الصدقات من الاباضيين المستقرين بمنطقة تلك «العمالة» ويوجّهها بطريقة تغلُب عليها السرّيّة والكتمانُ إلى تاهرت. ذلك لأننا نعلم بصورة قطعية أن المدينة لم تخرج قطّ طوال القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي، عن سلطة القيروان السياسية. وقد كانت تلك الفترة بالنسبة إلى قابس عهد سلام شامل لم يكد يكدّر صفوه سوى المعركة التي قام أثناءها الأمير ابراهيم الثاني في سنة 283هـ/ 896 م ـ غير بعيد عن أسوار المدينة ـ بسحق ثورة الاباضيين من قبيلة نفوسة الذين تفاقم خطرهم على الدولة. وفي القرن الرابع هـ / العاشر م. انتقلت المدينة إلى سلطةالفاطميين الذين ولّوا عليها بني لقمان من قبيلة كتامة، وقد خلد الشعراء ما كانوا يمتازون به من جود وكرم .

أمّا في عهد الدولة الصنهاجية فقد كانت قابس أقلّ سكينة وهدوءا وافُتتح هذا العهد بثورة قام بها الخوارج اكتُسحت فيها المدينة وألحقت بأرباضها وضواحيها أضرار جسيمة. وسعى الخليفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاطمي الحاكم (386- 411 هـ / 996- 1021م) بعد ذلك إلى فصلها، بمعية طرابلس، عن الدولة الصنهاجية، لكنه لم ينجح في ذلك في نهاية الأمر. وقد حكم المدينة باسم الصنهاجيين بنو عامر، ثم ابراهيم احد أشقاء باديس (386 - 406 هـ / 996 - 1016م)، وخلفه علبهامنصور بن مواس. وآخر من حكمها من ولاة المعزّ الصنهاجي (407 - 454 هـ / 1016 - 1062 م) كان ابن ولميّة، ثم أفلتت المدينة من حكم الصنهاجيين .

وفعلا، ففي منطقة قابس وبموقع حيدران مُني الصنهاجيون بالهزيمة الكبرى التي ألقت بقيادة إفريقيّة بأسرها في قبضة بني هلال. وينبغي الاعتراف بأن الهلاليين لم يلحقوا أي ضرر بالمدينة- التي كانت محاطة بأسوار حصينة - ولا بواحاتها ، رغم فقدانها كلّ حماية. وقد تمّ بدون شك الاهتداء إلى نوع من الاتفاق على التعايش بين الغزاة ووالي المدينة مقابل دفع مبلغ من المال في شكل جزية، بطبيعة الحال . ومنذ سنة 445 هـ / 1053 - 1054 م. أصبحنا نلاحظ لجوء عدد من أفراد الأسرة المالكة الصنهاجية إلى قابس وقد جاءوا يطلبون لانفسهم النجاة في تلك المدينة التي أصبحت بمثابة واحة أمن واطمئنان. ولم تبادر قابس إلى قطع صلتها فورا بعاصمة المهدية. ذلك أنّ واليها المعزّ بن محمد بن ولميّة لم يتخاصم مع الأمير الصنهاجي، الذي أغضبه سوء معاملته لأخويه ابراهيم وقاضي، ولم يعلن استقلاله بأمر المدينة تحت حماية مؤنس بن يحيى، إلا حوالي سنة 454هـ / 1062 - 1063 م. وقد كان ذلك - فيما يذكر التجاني (انظر **الرحلة**، ص 96) - «أوّل عهد المدينة باحتلال الأعراب من بني هلال». وقد خلف إبراهيم أخاه، ثم جاء دور قاضي الذي ضج أهل قابس بظلمه وطغيانه فانتفضوا عليه وقتلوه (سنة 489 هـ / 1096 م). وقد أدّى هذا الاغتيال ببني جامع - المنتسبين إلى قبيلة رياح الهلالية عن طريق بني دهمان - إلى الارتقاء إلى الحكم. أجل، إن بعض المؤرخين يؤكد لنا أنّ الخليفة الفاطمي المستنصر (427- 487 هـ/ 1036 - 1094 م)، حين رمى إفريقية بجموع بني هلال، قد كان جعل كلا من طرابلس وقابس من نصيب بطن « زغبة ». لكن هؤلاء الزغبيين اكتفوا في الواقع بطرابلس فحسب، في حين قام رجل دهماني من رياح يدعى مكّي بن كامل بن جامع (انظر التجاني **الرحلة**، من ص 71 97) بتأسيس دولة بقابس، بعد القضاء على أحد أشقاء الأمير الصنهاجي تميم (454- 501هـ / 1062 - 1108 م)، وهو

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عمر بن المعزّ الذي كان أهل قابس المتمردون قد عهدوا إليه بمقاليد الحكم في بادىء الأمر. وقد خلف مكّيا هذا ابنه رافع، وخلف رافعا عمّه رشيد بن كامل بن جامع، (حوالي 515-541هـ / 1121-1147 م) ثم خلف رشيدا - بعد فترة خاطفة من حكم المولى المغتصب يوسف — ابنه محمّد بن رشيد ، ثمّ مدافع بن رشيد .

ومنذ منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. إلى منتصف القرن السادس هـ / الثاني عشر م. — وسواء تعلق الأمر بعهد الولاة المستقلين تحت إشراف بني رياح، أو بفترة الحكم المباشر للأمراء من بني جامع - كان تاريخ قابس متميّزا بالاضطراب الشديد. وقد اتسم في الداخل بسلسلة الاجهاضات والخيبات المتمثّلة في حلقات الصراع العقيم من أجل الاستئثار بالحكم، كما غلبت عليه في الخارج السياسة التوسعية التي سلكها ملوك النورمان الحاكمين بصقلية، وقد كانوا يسعون إلى السيطرة على سواحل إفريقية. وبالرغم من عمليات حصار متعددة وغير مثمرة (في سنوات 474هـ / 1081-1082م، 479هـ / 1086-1087م، و 486 هـ / 1093-1094 م . وحوالي سنة 511هـ / 1117-1118 م) فانه لم يتم استرجاع المدينة من قبل اخلاف المعزّ (سنة 489 هـ / 1096 م، ثم سنة 542 هـ / 1147 م) إلا بشكل عابر وقصير جدا. وقد توخّت قابس في مواجهة هؤلاء الحكام الصنهاجيين سياسة تتسم بالعداوة الصريحة، ففتحت أبوابها لإيواء أعدائهم، ودفعت بجيوشها المنفردة أو المتكتّلة مع غيرها من الحلفاء، في مهاجمة عاصمتهم (سنة 476هـ / 1083-1084م. وسنة 493 هـ / 1099-1100م. وحوالي سنة 511 هـ/ 1117-1118م)، ولم تكتف بالتحالف ضدهم مع بني هلال بل وتحالفت أيضا مع نصارى النورمان من رعايا روجار الثاني الذي وجّه إلى الدعيّ المغتصب يوسف — بطلب منه - رسما بالتّولية مطابقا للتراتيب الجارية بمملكته وعددا من الأوسمة النصرانية، ثم سمى محمد بن رشيد خلفا له بعد أن تمّ احتلال المهدية (سنة 543 هـ / 1148 م) وكامل منطقة الساحل. ورغم كل هذه الصراعات فان المدينة لم تتعرض إلى أضرار كبيرة فيما يبدو، بل إنها ازدانت بقصر فخم هو قصر العروسين الذي شرع في إقامته، على أقرب تقدير، الوالي ابن ولميّة، وأتمّ بناءه رافع بن جامع الذي استأثر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بشرف تشييده، ولنذكر أيضا أن رشيدا قد قام في قابس بضرب السكة باسمه إمعانا منه في تأكيد استقلاله .

ثم جاء الموحدون فوضعوا حدا لذلك الاستقلال. هذا وكانت قابس قد فقدت بعد حريتها عمليا منذ سنة 541هـ / 1146-1147م، بدخولها تحت حكم النورمان بما فيه من سيطرة فعلية رغم ما كان يتسم به في الظاهر من السعة والتسامح. وقد ثارت المدينة على النرمان في سنة 553هـ / 1158 - 1159م. ثم افتتحها أبو محمد عبد اللّه بن عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ / 1160م. ولم تدم فترة السلام التي شهدتها إلا بضعة عقود من السنين. فسرعان ما نازع الموحدين عليها خصمان كانا يتحالفان تارة ويتعاديان طورا، وهما قراقوش صاحب طرابلس آنذاك وبنوغانية. وقد اضطر المنصور (580-596 هـ / 1184-1199 م) إلى القدوم بنفسه إلى إفريقية التي كانت على وشك الإفلات منه، فانتصر على أعدائه بالحامة(سنة 583 هـ/ 1187 - 1188م). وتمكن من استرجاع مدينة قابس التي كان قراقوش حليف بني غانية قد اتخذ منها قاعدة محصنة. ولم يلبث قراقوش أن عاد إلى الانتصاب بها، لكنه دخل إثر ذلك في نزاع مع حلفائه السابقين فأضاع المدينة من جديد، فعاد إليها الموحدون الذين اغتنموا تلك الفرصة السانحة. ثم عمد يحيى بن غانية ــ الذي قد كان خلف في الأثناء أخاه عليّا - إلى محاصرة قابس (سنة 591 هـ / 1195 م) بعد أن تمكن من القضاء على قراقوش واغتصب طرابلس من يده. وقام يحيى بإتلاف واحة قابس لحمل أهلها على الخضوع، فلم يترك بها ــ فيما ذكر لنا ــ سوى نخلة وحيدة قائمة، بقيت بمثابة الشاهد. وغلب عليها يحيى فاتخذها عاصمة لملكه وبسط نفوذه على كامل افريقية بما في ذلك مدينة تونس التي تمّ له الاستيلاء عليها عنوة سنة 600 هـ / 1203م. واضطر الناصر(596 - 609 هـ/ 1199-1213 م) إلى افتتاح كامل الجزء الشرقي من مملكته من جديد ، وأنزل بيحيى بن غانية هزيمة قاضية بالقرب من قابس (في ربيع الأول من سنة 602هـ / أكتوبر 1205 م)، واسترجع المدينة التي بقيت منذ ذلك العهد على وفائها لدولة الموحّدين .

لكن عهد هذه الدولة بافريقية كان قد أشرف على النهاية. فقد كان أبو زكريا يحيى (625- 647 هـ/ 1228 - 1249 م) مؤسّس الدولة الحفصية واليا على قابس عندما سماّه الخليفة الموحدي المأمون (624 - 629 هـ / 1227 -

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1232) أميرا على كامل إفريقية. وقد نجح في افتكاك مدينة تونس من يد أخيه المخلوع، بمساعدة عبد الملك بن مكّي، وهو صاحب ضياع وأراض وأكبر أعيان مدينة قابس تأثيرا ونفوذا. ومنذ ذلك الحين بدأ نجم مكّي في الصعود. وقد أصبحوا من سنة 681 إلى 796 هـ / 1282 ـ 1394 م. يمثلون دويلة بأتمّ معنى الكلمة بتلك الجهة، كانت تتمتع بحكم ذاتي واسع، بل وباستقلال كامل وحقيقي. وقد كان أبعد رجال هذه الأسرة الحاكمة صيتا وأقواهم شخصية وأثرا عبد الملك بن مكّي وأخوه أحمد الذي حكم بالخصوص جزيرة جربة بل واستطاع أن يبسط نفوذه مدة من الزمن على طرابلس. وقد كان هذان الرجلان الشقيقان، المنتسبان إلى قبيلة لواتة ، على جانب من العلم والثقافة، فكانا يحبّان تكلّف هيئة الفقهاء وتصنّع سلوكهم. وكانا أيضا من ذوي الفطنة والحكمة في التصرف،فاستطاعا في كثير من الأحيان أن يوجّها سياسة الحفصيين إلى ما يخدم مصالحهم وأغراضهم الذاتية، وكان لهما في تحديد هذه السياسة مساهمة نشيطة ودور فعال .

وفي شهر رجب من سنة 681 هـ / أكتوبر 1282 م، فتح عبد الملك أبواب مدينة قابس للدعيّ المغتصب ابن أبي عمارة.(1282 - 1284)، وأعانه على الاستيلاء على الحكم بتونس. ومن باب ردّ الجميل أهدى إليه ابن أبي عمارة « جميع الجواري الموجودات في قصر السلطان الهالك » (راجع برنشفيك، **الدولة الحفصية**، [النص الفرنسي] ج II ص 106) واتخذه وزيرا وخوّله بالخصوص سلطات مالية واسعة. لكن حكم ابن أبي عمارة لم يدم طويلا، فرجع عبد الملك إلى منطقة نفوذه بقابس. وفي سنة 1286 م قام الأمير أبو زكرياء بمحاصرة المدينة وبإتلاف واحتها ونخيلها. ولم يبق عبد الملك قاعدا مكتوف الأيدي خلال الاضطرابات التي تلت ذلك ـ فساند سنة 1287 ـ 1288 م. لكن بدون جدوى في هذه المرة ـ الدعيّ ابن أبي دبّوس القائم ضدّ الأمير إبي حفص (683ـ 692 هـ / 1284ـ 1293 م). وفي سنة 693 هـ / 1294 م. أعلن الخروج عن طاعة حكّام تونس والولاء لحكم بجاية، حيث عمد أحدُ أحفاد أبي زكرياء الأول الذي كان حاصر قابس سنة 1286م، إلى المطالبة بميراث جده في الحكم. وفي سنة 732 هـ / 1332م. وجد لديه عبد الواحد اللحياني، وهو أحد المطالبين بالحكم أيضا، العون والمؤازرة ضدّ الأمير أبي بكر (718 ـ 747 هـ / 1318 ـ 1346 م). وقد شهدت السنوات التالية بلوغ بني مكّي أوج قوّتهم. وقد نجحوا انطلاقا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

من سنة 751هـ / 1350 م.، بما كانوا يتميزون به من مناهضة للحاجب ابن تفراجين المشهور بقوّته وبشدّة مكره ودهائه، في توسيع منطقة نفوذهم وترسيخ دعائم سلطانهم وقد بلغوا من المكانة وبُعد الصيت حدّا دفع بدولة البندقية حوالي سنة 1355 م إلى إبرام معاهدة منفصلة معهم كان لهم فيها غُنم كبير. وفي نطاق عدائهم المتواصل لحكام تونس قام بنو مكّي بمؤازرة بني مرين في زحفتهم الثانية على البلاد (سنوات 752 ـ 757 هـ / 1352 ـ 1356م) بقيادة السلطان أبي عنان .

وبعد بضع عقود من السنين كان حلول عهد حكم الأمير أبي العبّاس (772 ـ 796 هـ / 1371 ـ 1394م) مؤذنا بالنسبة إلى كل مدن الجنوب بنهاية استقلالها. ولم يتيسر مع ذلك استرجاع مدينة قابس بصورة هيّنة. وفي شهر ذي القعدة من سنة 781هـ / فيفري ـ مارس 1380م. تم الاستيلاء على المدينة وسمّي يوسف بن الأبّار واليا عليها لبني حفص. وبمجرد حلول السنة الموالية استولى أحد أحفاد عبد الملك بن مكّي ـ ويدعى عبد الوهاب ـ على كامل المدينة وقتل واليها. فاضطر أبو العباس إلى محاصرتها بنفسه سنة 789 هـ / 1387 م. وقام بقطع نخيلها لحملها على الاستسلام ، مما أدّى ـ حسب قول ابن خلدون ـ الى تطهير مناخها وصحة هوائها « بعد أن كانوا يستوخمونه لاختفائه بين الشجر وفي متكاتف الظلال وما يلحقه بذلك من التعفن». عند ذلك أعلن عبد الوهاب الطاعة وقدم أحد أبنائه رهينة في يد السلطان الحفصي ودفع إليه غرامة كبرى. لكن عبد الوهاب قُتل في سنة 792هـ / 1390 م. على يد عمه يحيى بن عبد الملك ابن مكي الذي استبد بأمر قابس. وفي سنة 796هـ / 1393 ـ 1394 م، ظفر الأمير عمر ابن السلطان أبي حفص بيحيى فضرب عُنقَه. وانقرض أمر بني مكّي وانتهت فترة استقلال قابس وانفرادها بأمرها .

ومنذ ذلك العهد لم تلفت المدينة الانتباه إليها إلا نادرا. وقد أفلتت من جديد ، مثل كامل جنوب البلاد ، من يد آخر ملوك بني حفص الذين دخلوا في حماية الإسبان، قبل أن تنضوي مع كامل البلاد التونسية ـ التي منحت نظام ولاية «باشاليك» (سنة 1574) ـ تحت حكم الأتراك. وقام عثمان داي، الذي بذل جهودا كبرى من أجل إعادة السلم إلى ربوع البلاد، بتركيز جالية من «الكُولُغْليّة » ـ أي من الخلاّسيّين المولّدين من آباء أتراك وأمهات من أهل البلد ـ بناحية « جارة » من مدينة قابس .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

هذا وبحكم عمران المدينة بالحضر من السكان مع وجودها على مشارف الصحراء ، فقدتضررت أكثر من غيرها من المدن الأخرى من جراء حالة الفوضى التي سادت البلاد قبيل الاحتلال الفرنسي. وكان يتلاقى على استنزافها كلٌ من أعراب البادية- الذين كانوا يغورون في رمال الصحراء أو يلوذون بالأراضي الليبية عند اقتراب العساكر النظامية - والأعوان التابعين لسلطة البايات . لذلك لم تسلم المدينة من ويلات ثورة علي بن غذاهم (1864 م)، رغم أنها لم تكن في قلب ذلك الصراع. وفي سنة 1870 م. قام الخازندار بنهب المدينة بأتم معنى الكلمة .

وإبّان انتصاب الحماية الفرنسية حدث نزاع بين البلدتين المتنافستين اللتين تتألف منهما المدينة بخصوص الموقف الذي ينبغي اتخاذه.فاختار ربض « جارة » الخضوع، ومال ربض « المنزل » إلى المقاومة، مما جعل احتلاله يستوجب شيئا من المشقة، إذ بدأ يوم 24 جويلية 1881 م ولم يقع استكماله إلا في آخر شهر نوفمبر وبعد تدمير التحصينات تدميرا كاملا .

وأثناء الحرب العالمية الثانية تمت إقامة خطّ دفاعي بمارث (جنوبي مدينة قابس)، مما عرّض المدينة إلى القذف العنيف بالقنابل وألحق بها جسيم الأضرار، دون أن يجنبها كلّ ذلك السقوط في قبضة المحتلين الألمان (19 نوفمبر 1942). ثم استرجعتها القوات البريطانية والفرنسية يوم 29 مارس 1943.

الجغرافيا التاريخية : عرّفت قابس بأنهّا «واحة بحرية »، وهو تعريف صادق. وقد اقترن ازدهارها على اختلاف العهود بخصب زراعاتها الغزيرة النموّ وبنشاط مرفئها كمنفذ طبيعي للتجارة الصحراوية. وقد كان المؤرخ سترابن Strabon (الذي عاش من حوالي سنة 58 ق، م، إلى حوالي سنة 25 بعد الميلاد) يصفها بعد بأنها « سوق عظيمة » يتبادل الناس فيها البضائع الواردة من المناطق الصحراوية والسلع الموجهة نحو نوميديا. ويتحدث المؤرخ بلين الأكبر Pline l'Ancien (23 - 79 بعد الميلاد) عن اقتسام مياه الرّيّ بالعدل بين السكان على أساس نسبة محددة - وهو نظام مازال قائما إلى اليوم — وعن ازدهار الزراعات المصنفة إلى ثلاث درجات من الارتفاع : أشجار النخيل ، ثم أشجار الزيتون والتين والرمان وكروم العنب، ثم زراعة الحبوب والبقول والخضر.

ويجب بعد ذلك انتظار حلول القرن الثالث هـ / التاسع م. للحصول على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

معلومات جغرافيـة أخرى مدققة عن مدينة قـابس بعد أن دخلت الإسلام. فهذا ابن خرداذبه (المتوفى سنة 272 هـ / 885-886 م) يكتفي بالاشارة إلى أنها « مدينة الأفارقـة الاعاجم » (انظر **المسالك** ، ص 6 / 7). وفي هـذه العبارة مـا يوحي بأن «الأفـارقة » ـ أي الأعقـاب المنحدرين من اليـونان والـرومـان وكـذلك من البربـر ، غلب عليهم الطـابع الـلاتيني والعقيـدة المسيحية ـــ كانـوا يشكلون العنصر الأسـاسي الغالب من سكـان المدينة. وهـؤلاء « الأفـارقة » هم بـالتأكيـد أولائك الـذين يطلق عليهم اليعقـوبي (المتوفى حوالي سنة 282-292هـ / 895-905 م). اسم « العجم » ، مضيفـا أن سكان المدينـة كانـوا «كثيري الاختلاط» وأنه قـد كان فيهم أيضـا العرب والبربر. ويذكر اليعقوبي أيضا أن قابس كانت «مدينة ذات شأن وازدهار» وأنها «كثيرة الأشجار والثمار» .

وفي منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر ابن حوقل أن أكثرية أهلها من البربر ويشير إلى وجود جالية من اليهـود بها كانوا يخضعون لضريبة خاصة، ويـلاحظ ابن حوقل ان الطبيعة لم تميّز سكـان المدينة بقدر كبير من الجمال والنظافـة (راجع **صورة الأرض**، ص 72 ترجمة كـرامرز ـ فيات Kramers-Wiet، ص 66). كما يذكر لنا بـالخصوص، من بين منتجاتها الكثيرة المتنوعة، الزيت والصوف، وكميات كبيرة من الحرير الجيد الممتاز، والجلود الناعمة اللمس الزكيّة الرائحة التي تصدّر إلى كافّة أنحاء المغرب. لكنّ المناطق الخلفيـة للمدينـة كانت ـــ مع الأسف ـ تعجّ بـاللصوص من الخوارج الذين عمدوا إلى نهب الربض وإحراقه، مركّزين هجوماتهم بشكل خاص على ممتلكات الباعة وأهل الذمّة .

وفي نهاية القرن السـادس هـ / العاشر م. يقول عنها المقـدسي إنها مدينة «أصغـر من طـرابلس »، وإنها « مبنيّـة بـالحجـارة واللبن، كثيرة النخيل والعنب والتفـاح» (راجع **أحسن التقاسيم**، 12 / 13). وإن «أراضيهـا الخلفية آهلة بالبربر» وإن بسورها « ثلاثة أبواب » .

أما الوصف الـذي يقـدمـه لنـا البكـري عن المدينـة ـــ وقـد أخـذه عنـه الجغرافيـون اللاحقون في الغـالب ـ فهـو الأكثر تفصيلا . وهـو يعود إلى وسط القرن الخامـس هـ / الحادي عشر م.، أي إلى العهـد الـذي كـان يحكمها فيـه ابن ولمية بحمايـة مؤنس بن يحيى من شيـوخ بني هلال. كانـت المدينة آنذاك لا تـزال قائمـة داخل سورهـا العتيق المبني بـالحجر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المنحوت والذي يحدق به خندق تتدفق فيه المياه عند الإنذار بالخطر. لكن المدينة قد شهدت تطورا كبيرا منذ عهد ابن حوقل. فقد أحاط بها بالخصوص عدة أرباض بالجنوب والشرق ـــ بدل الربض الوحيد ـ وعدد من الأسواق والفنادق ، مما يدلّ على نشاط تجاري واسع. وقد ازدانت بجامع فخم وأصبح بها عديد الحمّامات .

أما النقص الوحيد الذي كان بها، فهو الفساد الذي طرأ على مناخها ـ وهو فساد حادث لم يعهد فيها من قبل ـــ بسبب إتلاف طلسم تم العثور عليه أثناء التنقيب عن بعض الكنوز. وأسطورة الطلسم هذه تشير بالتأكيد إلى تهديم معالم قديمة عتيقة كانت تقع داخل المدينة على مرتفعات سيدي أبي لبابة المشهورة بطيب هوائها وسلامة مناخها، ثم إلى بناء الأرباض ابتداء من منتصف القرن الرابع هـ / العاشر م في المنخفض الذي يحدق به منعطف الوادي. وفي نهاية القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. كان أبعدُ الأرباض عن السور القديم ـــ وهو الذي كان يحتل موقع حيّ «جارة» الحالي ـ قد تمّ تمصيرُه وتمدينه تماما كما تشهد بذلك مساجد سيدي ادريس وسيدي الحاج عمر وسيدي ابن عيسى، التي ينسب ج. مارسي G.Marçais بناءها إلى أسرة بني جامع (انظر **الهندسة المعمارية**، ص 77 ـــ 78)، والتي نجدها متجمّعة كلها في هذا الحي.وقد لاحظنا إعادة استعمال بقايا من معالم الماضي في بناء هذه المساجد وغيرها من المباني القديمة. وهكذا فمنذ منتصف القرن الخامس هـ / العاشر م. بدأت المدينة العتيقة تخلو من السكان لتزول نهائيا فيما بعد، تاركة المجال للأرباض. وقد أدّى ذلك إلى فساد الهواء ورداءة مناخ حياة السكان ، وهو الأمر الذي شهر به كل الرحالة والجغرافيين انطلاقا من البكري في حين لم يذكره أحد من قبل .

وكان سكان المدينة ـ فيما يذكره البكري ـ ينقسمون إذ ذاك إلى عرب و«أفارقة». مما يشير إلى أن عملية امتزاج الأجناس والعناصر لم تبلغ بعد حدّها النهائي. وقد كان هؤلاء السكان موضع تلميحات ساخرة- ينقلها لنا مؤلف **المسالك** في شيء من مجاراة أصحابها وتزكية أقوالهم ـ بسبب خلوّ مساكن المدينة من المراحيض واستعمال أهلها السماد البشريّ لإخصاب الحقول والأجنّة، وهي عادات لا تزال كلّها قائمة إلى اليوم (انظر ع. البشراوي، **الحياة الريفية في واحات قابس**، ص 317). وقد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

كان البربر يسكنون الأخصاص ويقيمون في الأكثر بالمناطق الخلفية من ضواحي المدينة. وهم يتكونون أساسا من قبائل لُواته ولماية ونفوسه ومزاتة وزُواغة وزُوارة وبعض مجموعات أخرى أقل أهمية وشهرة. وكانت واحة قابس تنتج كميات كبيرة من الموز ومن قصب السكر وكل أصناف الثمار التي كانت تزود بها مدينة القيروان. وكانت تنفرد في بلاد إفريقية بغابة واسعة من شجر التوت تسمح لها بإنتاج كميات وافرة من الحرير الجيد الممتاز. ولنذكر في هذا الصدد أن وثائق « الجنيزة » Geniza تثبت أن إفريقية كانت في القرن الخامس هـ ./ الحادي عشر م. من أكبر مصدّري الحرير.لكنّ س. د. غُويتاين S.D. Goitein لم يعثر بها على أيّة إشارة واضحة محددة إلى مدينة قابس. ويشير البكري في خاتمة كلامه إلى أنّ مرسى المدينة كان مُعْلَما عليه بمنارة طالما تغنّى الشعراء بروعتها ـ وهي منارة لم يبق منها اليوم سوى الموقع فوق مرتفع لا يزال يُطلق عليه اسم المنارة ـــ وأن هذا المرسى يستقبل السفن والمراكب «من كل أنحاء الدنيا» .

وفي منتصف القرن السادس هـ./ الثاني عشر م. يتحدث الإدريسي كذلك عن «الأفارقة »، لكن بصورة عارضة. وليس هناك من شك في أن أولائك الافارقة لم يعودوا يشكلون في ذلك العهد مجموعة هامة فعلا ومتميزة عن بقية سكان المدينة. ويضيف الإدريسي أن أهل المدينة «ينقصهم اللطف والرقة لكن لباسهم مقبول ونظيف » (راجع **النزهة**، ص 77). وقد كانت المدينة لا تزال آنذاك في أوج ازدهارها ونهضتها.ويمدح الإدريسي بالخصوص إنتاجها من الرّطب، وهو ضرب من التمور المعسّلة يتمّ ادّخاره في جرار ضخمة. وكانت لا تزال تنتج الزيت «وتُصدره بوفرة في كلّ صوب». إلاّ أنها قد كانت شهدت بعض التغيير: فقد أصبح ميناؤها صعب الإرساء بسبب ارتفاع الرواسب وقلّة عمق المياه وشدة الرياح بعد أن كان من قبلُ، حسب ما يرويه البكري، مزدحما بالمراكب. ولم نعد نجد ذكرا للمنارة البحرية. أما صناعة الحرير المتدهورة فقد لجأت الى قرية « قصر سجّة » بمنبع الوادي. وعلى عكس ذلك فقد احتلّت صناعة الجلد المكانة الأولى. وقد كان ابن حوقل نوّه بها من قبل في حين سكت البكري عن ذكرها .

أما ياقوت، الذي كان يؤلّف في أوائل القرن السابع هـ/ الثالث عشر م.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فهـو لا يفيدنا بجديـد، مكتفيا بنقـل ما كتبه البكـري حرفيّا. ويصف ابن الشباط (618 - 681 هـ / 1221 ـ 1282 م) قابس ـ فيما نقله عنه الـوزير السراج ـ بأنها «مـدينة كبيرة» ويـؤكّد أنـه يمكن تصنيف أهلها إلى ثـلاثة عناصر : عرب وبربر و« عجم » أي « أفارقـة ». وهذه آخر مرة نجد فيها إشـارة إلى انقسام سكـانها إلى هـذه العناصر الثـلاثـة. وفي أواخر القـرن السابع هـ / الثالث عشر م. خرج العبدري من عبـوره المدينة في طريقه إلى الحجّ بارتسام سيّء جدا، فقال عنها انها مدينة قذرة كريهة الروائح، وإن غرور أهلها على قدر جهلهم وفجورهم .

أما ما يـذكره عنها التجاني ـ الذي أقـام بها أربعة أيام في أواسط جمادى الأولى من سنة 706هـ / أواخر نوفمبر 1306 م. فهو من طراز مغاير تماما. فهو ينادي بإعجابه قائلا : « هي مـدينة جميلة بحرية وصحراوية ، وهي جنة على الأرض، وهي بعبارة أوجز دمشق الصغرى » إلا أن تحولا عميقا كان بصدد الحدوث. فقد كان السور القديم لا يزال قائما بدون شك، لكن محور النشـاط انتقل نحـو «الأرباض الـواسعـة التي كانـت تُؤوي أكثـر الأسواق» (راجع **الرحلة**، ص 86ـ87). وفي قلب المدينة كانت مئذنة المسجد الجامع قد فقـدت توازنها ومالت ميـلا منذرا بـالخطر. أما قصبـة المدينة وقصـر بني جامع وهو « قصر العروسيـــن العجيب الـذي لا مثيل له في الدنيا» فقد أصبحا خرابا (**الرّحلة**، 94ـ95). وكان هواء المدينة أوخم ما يكـــون، ووجوه الناس مصفّرة، والأوبئة متفشّيـــة متواترة بسبب نبـــات الدّفلـــة الـــذي يلـوّث المياه ـ فيما يذكـره التجاني ـ باستثناء منبعي « عين الأمير» و « عين سلام » .

ثم يجب بعد ذلك انتظـار أول القرن السادس عشر ـ أي مـا ذكره الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الافريقي : Jean-Léon l'Africain ـ الذي زار البلاد التونسية في سنة 1517 (**الوصف**،ج II، ص 398) للاستفادة بتفاصيل أخرى حـــول تـطـــور مدينـة قابس. فـقد كانت لا تـزال، فيما يبدو، «مدينة عظمى»، وكانت « الأسوار العاليـة القديمة » لا تزال تحيط بالمدينة العتيقة. لكنّ «إقدام الأعراب على نهبها وإتـلاف ما فيها قد أدى إلى نزولها وانحطاطهـا » . فتشتت سكانها في أنحـاء الواحـة. «وكانـوا سُود البشرة، بائسين فقراء، يشتغلون بفلاحـة الأرض أو بصيد السمك. وقد تلاقى على استنزاف مـا بيدهـم من النّزر القليل كلّ من أعـراب البادية وملك مـدينة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تونس » (راجع **الوصف**، جII ، ص 398). وبعبارة أوجز فقد بلغت المدينة إذ ذاك حدّ الانهيار الكامل والافلاس التام ، فلم نعُد نسمع شيئا عن ثمارها الوفيرة ولا عن صناعاتها وصادراتها نحو كلّ الجهات. ولم نعُدْ نأنس كلمة عن نشاط مرفئها ولا عن حركة أسواقها. فقد قضى اختلال الأمن وانعدامه على حركة البيع والشراء والمبادلات بما في ذلك التجارة عبر الصحراء التي كان لها ذلك الأثر العميق ـ عن طريق التزاوج مع الجواري السود من الرقيق ـ في لون بشرة سكان المدينة الذين أصبحوا يشكلون في آخر الأمر مجموعة منسجمة من العناصر وحد صفوفها الشقاء والبؤس .

وفي منتصف القرن التاسع عشر لم يتمكن ف. غيران V.Guérin من العثور على أي أثر للسور العتيق، ولم تبق سوى تلك المساكن المتداعية بمنطقتي «المنزل» و « جارة » والتي لا تكاد تستحق اسم البيوت، حسب رأي لافيت وسرفوني F.Laffite et I. Servonnet وكانت « المنزل » تعدّ عندئذ 3,500 ساكن في حين تعد « جارة » 4,000 ساكن، وذلك من عدد جملي لكامل سكان الواحة كان يقدر بـ10,000 نسمة تقريبا. وفي سنة 1873 خطرت ببال القبطان رودار Roudaire فكرة إيجاد بحر داخلي بإغراق منطقة «الشطوط» بواسطة قنال يربط بينها وبين خليج قابس. لكن الدراسات كشفت عن استحالة تطبيق هذا المشروع بصورة عملية .

ثبت المراجع

ـ **المصادر الجغرافية** (مرتبة حسب التسلسل الزمني) :ابن خرداذبه **المسالك**، وابن الفقيه، **البلدان** ، تحقيق وترجمة جزئية لحاج صادق بعنوان **وصف المغرب** ... Description du Maghreb، الجزائر 1949 ، ص 6 / 7 مع التعليق 57 ص 30 / 31 ؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج فيات G. Wiet، القاهرة 1937، ص 208 : ابن حوقل، **صورة الأرض**، ط. بيروت، بدون تاريخ ص 72 ـ 73 ترجمة كرامرز ـ فيات Kramers - Wiet، ص 66 ـ 67 ؛ المقدسي **أحسن التقاسيم**، تحقيق وترجمة جزئية لشارل بيلاّ Ch. Pellat بعنوان **وصف المغرب** Description de l'Occident، الجزائر 1950، ص 4 / 5، 12 / 13 / 64 / 65 و66 / 67؛ البكري، **المسالك**، تحقيق وترجمة دي سلان de Slane باريس 1965، ص7/ 22 ، 17 ـ 19/ 41 ـ 44، 45/ 47، 102، 85 / 172 ؛ الادريسي، **النزهة**، تحقيق جزئي لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر 1957 ص 76 ـ 77، 89، 94؛

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ياقوت، **البلدان**، بيروت 1957، ج IV، ص 289-290؛ العبدري، **الرحلة**، تحقيق ابن جدّو، قسنطينة بدون تاريخ، ص 68- 69 : التجاني، **الرحلة**، ط. تونس 1958، ص 58، 68، 71، 86 ـــ 117؛ صفي الدين البغدادي، **المراصد** تحقيق علي محمد البجاوي، القاهرة 1954، ج III ص 1054 ؛ ليون الافريقي Jean Léon l'Africain **وصف افريقيا** Description de l'Afrique، ترجمة عن اللاتينية لإيبولار A. Epaulard، باريس 1956، ج II، ص 398، 549؛ الوزير السرّاج، **الحلل**، تحقيق م.ح. الهيلة، تونس 1970 ج I ص 342 ـــ 373، 847 ـــ 848، 962؛ ف.غيران V.Guérin **رحلة أثرية في الايالة التونسية** Voyage archéologique dans la Régence de Tunis ، باريس 1862، ج I ص 190-197؛ زاكون Zaccone **تقييدات عن الإيالة التونسية** Notes sur la Régence de Tunis باريس 1875، ص 152-162؛ ريبيّي Rebillet، **جنوب البلاد التونسية** Le Sud de la Tunisie، ط. سوسة 1886، ص 15-101 ؛ ف. لافيت و ج. سرفوني J. Laffite et Servonnet **خليج قابس في سنة 1888** (Le golfe Gabes en 1888) (ط. باريس 1888، ص 216-240 - 315-332؛ مونوار Maunoir، **يوميات الطريق** Journal de route باريس 1905، ص 67-71.

- **الدراسات** :ع. البشراوي، **الحياة الريفية في واحات قابس** La vie rurale dans les Oasis de Gabès (أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة قدمت سنة 1970)؛ ر.برنشفيك R. Brunschvig **الدولة الحفصية** Hafsides، الفهارس؛ ل.كارطون (L.Carton **رسالة في أشغال الري الرومانية بجنوب الايالة التونسية** Essai sur les travaux hydrauliques des Romains dans le Sud de la Régence de Tunis في مجلة Bull-Arch، تونس 1888، ص 438ـ465 ؛ ج ديبوا J.Despois **افريقيا الشمالية** ،باريس 1958، الفهارس؛ ش. ديل Ch. Diehl **افريقيا البيزنطية**، باريس 1896، ج I، ص 228-233؛ ج II، ص 414ـ535 ؛ ل. فوشي L.Foucher **حضر موت** Hadrumetum، باريس 1964، ص 321-322؛ ج. غانياج J.Ganiage **أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية** (1861-1881) باريس 1959، ص 36، 38، 136، 145، 146، 219-236، 467؛ س.د. غويتاين S.D.Goitein، **مجتمع متوسطي** A.Mediterranean لوس انجلس 1967، ج I، ص 102، 278، 279، 469؛ س. غزال S.Gsell **التاريخ القديم لافريقيا الشمالية**، باريس 1913-1928، ج I، ص 64، 65، 203-204 ج II، ص 125-126، ج V، ص 247 ج. هيلار J.Hilaire **خلاصة عن**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الحفريات التي تمت سنة 1898 **بموقع قابس القديمة**، بمجلة Bull.Arch، تونس 1900، ص 115 ـ 125؛ هـ. ر. إدريس H.R Idris **الدولة الصنهاجية** Zirides؛ ش. أ. جوليان ch.A.Julien ، **تاريخ افريقيا الشمالية**، باريس 1956، الفهارس؛ ع. العروي، **تاريخ المغرب العربي**، باريس 1970، الفهارس؛ ج. مارسي G.Marçais **المعمار الاسلامي بالمغرب العربي**، باريس 1954، ص 77 ـ 87؛ أ.مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881 ـ 1911)، باريس 1965، الفهارس؛ المرزوقي، **قابس جنة الدنيا**، تونس 1962، 310 صفحات؛ ج. ف. موليزان J.F.Molezum **آثار تاكابس**، مجلة Bull.Arch، تونس 1885، ص 126 ـ 131؛ ب، رومانلي P.Romanelli **تاريخ المقاطعات بافريقيا الرومانية بافريقية** Storia delle province romane dell'Africa' (روما 1959 (انظر الفهرس)؛ محمد الطالبي **الدولة الأغلبية**، باريس 1966، الفهارس؛ ش. تيسو "Ch.Tissot، **جغرافيا للمقاطعة الرومانية بإفريقيا**، باريس 1884، ج II، ص 31، 196؛ ب. التركي، **التخلص من الصحراء نوويا، ارجاع البحر الداخلي بالمغرب الأوسط**

La dessaharation nucléaire = rétablissement de la mer intérieure au Maghreb central

التقرير الفني رقم 23 (1968) بمندوبية الطاقة الذرية، تونس؛ أ.س. زغلول ـ **تاريخ المغرب العربي**، القاهرة 1965، الفهارس؛ ب. أورجلس B.Orgels **واحة قابس**، ضمن مراسلة الشرق Correspondance d'orient، 1968، ص. 3- 89 .

(*) 92258 ساكن (حسب التعداد السكاني بقابس سنة 1984).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

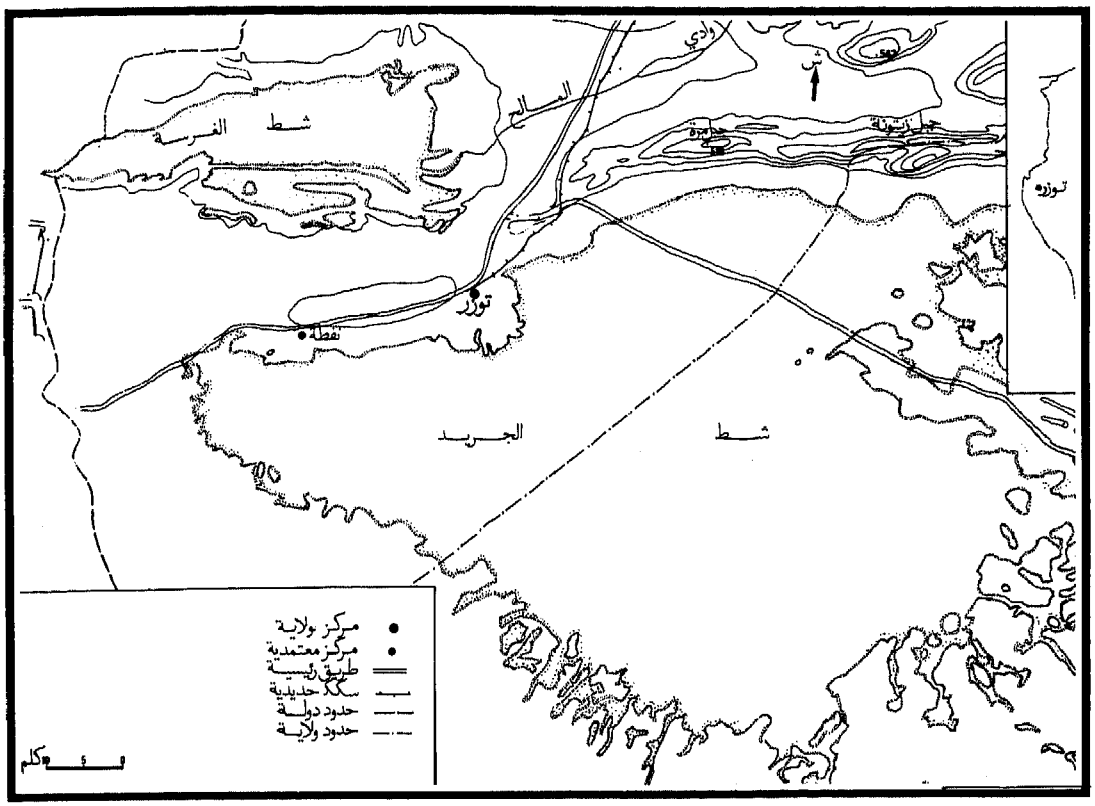

قَسْطِيلِيَّة

قسطيليّة أو قصطيليّة أو قسطيلَة اسم لموقع بالبلاد التونسية، أطلق في العصر الوسيط تارة على مدينة (وهي تَوْزر أو تُوزر)، أو في الأغلب على كامل المقاطعة التي كانت هذه المدينة قاعدتها ومركزها، وهي بلاد الجريد الحالية التي تكوّن اليوم جزءا من ولاية قفصة (*) (321000 نسمة، 17,45 كلم مربّع حسب إحصاء سنة 1966)، والتي تشمل منطقة الشطوط. والثروة الرئيسية لمنطقة الجريد لا تزال كما كانت في الماضي تتمثل في أشجار النخيل المثمرة، وعددها مليون شجرة تقريبا، منها نسبة 31٪ من صنف نخيل «الدقلة» التي يتهافت الناس على طلبها، (استطلاع سنة 1962). وتوفّر السياحة الصحراوية ـ المدعّمة بتجهيزات فندقية من الصنف

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الممتاز جدا أحياناـــ موارد تكميلية ذات قيمة بالنسبـة إلى هذه الجهة التي تعتبر اليوم من المناطق المحرومة .(**)

التاريخ : إن قسطيلية التي سبـــق إخضاعهـــا مـرّة أولى على يد عقبة بن نافع فيما يظهر، قدتمّ فتحها نهائيا للإسلام صلحا وبدون قتال على يد حسّـان بن النعمان. وهـذا مـا يفسرّ مـا كان يلقـاه سكّـان هـذه المنطقـة المسيحيّون، نسبيا، من حسن معاملة وطيب عيش. ومنذ ذلك العهد لم يبق تـاريخ هذه المنطقـة بطبيعة الحال، بمعـزل عن الاضطرابـات والفتن التي هزّت سـائر أنحاء إفريقية ولا سيّما تلك التي تـرتبت عن ثورات الخوارج في أواسط القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي، وعن تمرّد الجند في عهد الدولـة الأغلبية والحرب ضدّ داعي الفـاطميّين وثورة أبي يزيـد النكّاري. ووجد المذهب الإباضي في خضمّ هذه الفتن فرصة لكسب العديدمن الأتباع بـالمنطقـة. كما لاقى المذهب الشيعـي بعض النجـاح لاسيّما بنفطـة. وقـد ساعدت زحفة بني هـلال في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشرم. هي الأخرى، على ظهور مملكة صغيرة بالمنطقـة، سرعان ما احتوتها مملكة بني الـرّنْـد بقفصـة. وقـد نازع الموحّـدين بعـد ذلك على قسطيليـة أحـد المغامرين، ويدعى قراقوش، ثم أمراء بني غانية. وفي عهد الدولة الحفصية، في أوائل القرن الثـامن هـ/ الرابع عشر م.، قـامت بالمنطقـة مملكة صغيرة أخرى يحكمها بنـو يملول بمساعدة «مشيخـة» أو مجلس أعيان. وعاشت هذه المملكة حياة شديدة الاضطراب حتى تمّ القضاء عليها ـ مع الدويلات المحلية الأخرى ـ على يد الأمير أبي فارس (سنة 802هـ/1400م). وفي آخر الأمر تفاقم البؤس بصورة خطيرة أثناء فترة الفوضى التي شهدتها البلاد في القرن التـاسع عشر وأصبحت المنطقة عمليّا بـدون حماية ووقعت تحت ضربات البدو النّاهبين المبتزين من جهة ، وتحت وطأة الجبايات والضرائب المرهقة التي كانت تفرضها السلطة المركزية من جهة أخرى .

الجغرافية التاريخية : إن لفظ قسطيليّة لا يقتصر استعماله كاسم موقع على البلاد التـونسية فحسـب. فهذا يـاقوت (ج، IV، ص347 ــ 348) يذكر قسطلّة بـالأندلس، وقسطيلية بجهة البيرة. وهـو يشير أيضا إلى القسطل، اسم موضع بين حلب ودمشق. وقـد كانت قلعة «ميزارفلتـا » العتيقة بين تبنة وبسكرة سُمّيت أيضا بقسطيليّـة. وممّا لا شكّ فيه أن هذا الاسم من أصل لاتيني، وهو مشتقّ من « كاستلاّ » جمع « كاستلّوم » :Castellum, Pl)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(Castella) بمعنى القلعة. وقد أطلقه الفاتحون العرب أوّل الأمر على توزر(Thusuros) أهمّ قلاع المنطقة الحدودية المستندة إلى الواحات، ثم عمّموا هذا الاسم على كامل المنطقة الراجعة اليها بالنظر. ويقول اليعقوبي (المتوفى حوالي سنة 282 ـ 292 هـ / 895 - 905 م) إن هذه المنطقة تشمل أربع واحات « أولاها وأهمّها تسمّى توزر، وبها مقرّ الولاة، والثانية هي الحامّة، والثالثة تقيوس، والرابعة نفطة » (انظر **البلدان**، ص 212). وقد زالت منها اليوم تقيوس(Thiges) التي حلّت محلّها دقاش. ونفس هذا التحديد للمنطقة يرد أيضا عند معظم الجغرافيّين العرب اللاّحقين، ولاسيّما عند البكري وياقوت. أمّا ابن حوقل والمقدسي والإدريسي فإنهم يوردون وصفا للمدينة فقط دون ذكر لحدود المنطقة. لكنّنا قد نشاهد أحيانا بعض المؤلفين المتأخرين يتوسّعون كثيرا بحدود منطقة قسطيلية ـ التي اصبحت تدعى بلاد الجريد ـ ويجعلونها تشمل قفصة شمالا وبلاد نفزاوة في جنوب الشطوط (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، 199)، بل ويقحمون فيها حتى بسكرة وقابس وجزيرة جربة (انظر الحسن بن محمد الفاسي **وصف إفريقيا**، ج II، ص 442-443). أمّا تسمية « بلاد الجريد » أو « الجريد » بعبارة أوجز، فقد ظهرت لأوّل مرة في منتصف القرن الثامن هـ/ الرابع عشر م. في كتابات ابن خلدون الذي كان يستعملها بقدر ما يستعمل كلمة قسطيليّة ـ أو أكثر ـ للدّلالة على نفس المنطقة. ثم زال اسم قسطيلية القديم شيئا فشيئا حتى نسي اليوم تماما فلم يعد يعرفه من أحد سوى بعض أهل الاختصاص، حتى أنّ التجاني الذي كان يكتب في سنة 706 هـ/ 1306 م، وابن أبي دينار (حوالي 1110هـ / 1698 م) والوزير السرّاج (1149 هـ / 1736- 1737م) قد أصبحوا بعدُ لا يستخدمون الاسم القديم إلاّ في حال نقلهم عن مؤلفين سابقين. أمّا الحسن بن محمد الفاسي (Jean-Léon l'Africain =) الذي زار البلاد التونسية في سنة 1515 م. فإنه يجهل هذه التسمية تماما .

وحتى أواخر القرن الثالث هـ/ التاسع م. لم يكن العنصر العربي بعد ممثلا ببلاد قسطيلية، أو لم يكن على الأقلّ موجودا بصورة محسوسة. وفعلا فقد كتب اليعقوبي يقول : « ...السكّان من غير العرب ينحدرون من الروم القدامى ومن البربر والأفارقة » (انظر **البلدان**، ص 212)، أي البربر الذين غلبت عليهم اللّغة اللاّتينيّة والدين المسيحي. ويشير ابن خلدون من جهته، في معرض الحديث عن وقائع سنة 224هـ/ 839م ، إلى وجود بربر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مـــن قبـائل زواغـــــة ولواتـــة ومكناسة بتـــــلك المنطقـة (انظـــر **كتـــاب العبـر**، ج.IV، ص428). ولا نعتقد أن خـارطة السكّـان هناك قـد تغيرّت كثيرا حتى منتصف القـرن الخامس هــ/ الحادي عشر م.، أي إلى زمن زحفـة بني هـلال التي أدخلـت الى الجهـة عنـاصر قبـائل بني سليم وخـاصّة منهم بطن كعـوب. وقد تغيرّت مـلامح المنطقة بـدون شكّ تغيرّا عميقـا منـذ ذلك الحين، وأخـذت العقيـدة المسيحيـــة التي ثبتت حتى ذلك الوقت تزول شيئا فشيئـا. وقد أمكن التجاني في سنة 706 هـ / 1306 م. أن يشاهد عددا كبيرا من الكنائس المهجورة الخربة هناك (انظر **الرحلة**، ص 162). كما لاحظ أيضا باستنكار شديد تعاطي أهل الجهة أكل لحم الكلاب، وهي عادة عندهم مألوفة إلى اليوم .

ويجمع المؤلّفون العرب في العصر الوسيـط على اعتبار قسطيليّة بلادا ذات ثراء وازدهـار. ويقول البكري إن مجمـوع خراجهـا كان يبلغ في منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. 200,000 دينار مقابل 50,000 دينار فقط بالنسبة إلى قفصة. أمّا ابن خلدون فكان لا يملك دهشته وإعجابه في القرن الثامـن هـ / الرابع عشرم. أمـام كثـــــافة سكّـان هــذه البـــــلاد «المستبحرة العمران » (**كتاب العبر**، ج VI، ص 199) .

وقد كانت هـذه البلاد، التي بهر نظام توزيع ميـاه الريّ بها كلّ الملاحظين تنتج كميـات وفيرة من التمور. وفي القـرن الثالث هــ/ التـاسع م. يشير اليعقوبي الى وجود حقـــــــول زيتون هـامة بها، لم يبق منها بعد ذلك أثر. أمّـا قصب السكّر الذي كـان من أهمّ ثروات المنطقة في الــقرن الرابع هـ/ العاشر م. حسب قول ابن حوقل، فقـد أصبح مردوده هزيلا في القرن الخامس هـ/ الحادي عشر م. فيما يذكره البكري ، وكذلك الموز الذي كانت غـروســه تجد صعـوبة في الثبـات والنمـوّ هنـاك. وعلى خـلاف ذلك فإنّ الحوامض التي تنتج بالجهـة ـ وخـاصة منها الأتـرجّ ـ لم يكن لها مثيل. وكـان أهل المنطقـة يتعـاطـون أيضـا زراعـة الكتّـان والحنّـاء والكمّـون والكـرويّـاء، ويصطـادون بها الفنك الــذي كـان النـاس يتهـافتـون على اقتناءفروته.

وكانت قسطيليّة أيضا في القرن الرابع هـ / العاشر م.، حسب ما يؤكده ابن حوقل، ملتقى هـاما للطّرق التجاريـة يزدحم فيه التجّار القـادمون من كل بلاد. وكانت المنطقة تورّد على وجـه الخصوص القموح التي كانت أثمانها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

مرتفعة في العادة، وتصدّر التّمور (بثمن يساوي درهمين مقابل حمل جمل كامل كما يدقّقه لنا المقدّسي)، وكذلك الصوف (وهذا يقتضي وجود ماشية عديدة من الأغنام)، والمصنوعات الصوفيّة. وقد كانت التجارة عبر الصحراء مع بلاد السودان، بكلّ تأكيد، أحد أسرار ازدهار الجهة طوال العصور الوسيطة. ونحن نعلم أنّ والد أبي يزيد النكاري، الذي كان أصيل تقْيُوس أو توزر، كان من المشتغلين بتعاطي هذه التجارة (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج IV، ص 84).

ثبت المراجع

مصادر (مرتبة ترتيبا زمينا) ابن عبد الحكم ، **الفتوح** ، تحـ. مع ترجمة جزئية ل. أ. غاطو A. Gateau بعنوان Conquête de l'Afrique du Nord et de l'Espagne ، الجزائر، 1942، ص 65/64، والتعليق 66 ص 156 ؛ ابن خرداذبه، **المسالك**، وابن الفقيه، **البلدان**، تحـ. مع ترجمة جزئية لحاج صادق Description du Maghreb... ، الجزائر، 1949 ، ص 6 / 7، 31؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج. فيات G. Wiet بعنوان Les pays، القاهرة، 1937، ص 212؛ ابن حوقل، **صورة الأرض**، بيروت بدون تاريخ، ص 92؛ المقدّسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ، مع ترجمة جزئية لشارل بلا Ch. Pellat بعنوان Description de l'Occident... ، الجزائر 1950 ص 5 / 26 ، 27 / 60 ، 61 / 64 ، 65 / 65؛ البكري، تحـ. مع ترجمة لدي سلان (De slane بعنوان Description de l'Afrique Septentrionale، باريس ، 1965 ، ص 14/ 35، 48 - 49 / 102 - 105، 71 - 74146 / 75 452 / 153 148 / 284؛ الإدريسي، **النزهة** ، تحـ . جزئي لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر، 1957، ص. 75؛ ياقوت ،**البلدان**، بيروت، 1957 ج ، II، ص 57 ــ 58 ،ج VI، ص 347 ــ 348 التجاني، **الرحلة**، تونس، 1958، الفهرس، مادة الجريد؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، بيروت 1956 ــ 1959، فهارس المجلّدات IV و Vو VI و VII تحت موادّ قسطيليّة وبلاد الجريد والجريد؛ جان ليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي) **وصف إفريقيا**، ترجمة فرنسية عن اللاّتينية لـ أ .ايبولار A. Epaulard، باريس ، 1956، ج II، ص 442 - 443، 470 ؛ ابن أبي دينار، **المؤنس** ، تحـ. م. شمّام، تونس ، 1967، الفهارس في مادة قسطيلية والجريد؛ الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـ. م.ح. الهيلة ، تونس، 1970، الفهارس

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في مادة الجريد؛ ف. غيران V. Guérin **رحلة أثرية في الايالة التونسية** Voyage archéologique dans la Régence de Tunis ، باريس، 1862، ج. I، ص 250-270؛ ف. مايي V.Mayet **رحلة في جنوب البلاد التونسية** Voyage dans le Sud de la Tunisie ، باريس، 1887، ص187- 243 .

ـ **دراسات** : ح. عطية، **التعصير الفلاحي والهياكل الاجتماعية : أمثلة من واحات الجريد**، في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية، عدد 2 (فيفري 1965)، ص 59 ـ 93؛ ؛ ر. برانشفيك R. Brunschvig، **الدولة الحفصية**. الفهارس في مواد قسطيلية والجريد وتوزر؛ ص. فرشيو، **التفريق الجنسي في التغذية بالجريد** في منشورL'homme 1968 : ج. غانياج J. Ganiage، **أصول الحماية الفرنسية بتونس** (1861 ـ 1881). باريس، 1959 ، الفهارس في مادة الجريد؛ هـ.ر. إدريس H.R. Idris، **الدولة الصنهاجية**، الفهارس، في مادة الجريد وقسطيلية؛ ع. العروي، **تاريخ المغرب العربي**، باريس، 1970، ص 117،125،135، 136، 216؛ م.ن. الآجري، **الإحصاء العام للسكّان** (ماي 1966)، بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. العدد 17 و18 (جوان 1969)، ص 127 ـ 171 أ، مارتال A. Martel، **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** ـ 1881 ـ 1911، باريس 1965، الفهارس في مادة الشطّ والجريد؛ م. الرويسي، **ظاهرة النزوح بالجريد** في المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية. عدد 17 ـ 18 (جوان 1969). ص 567 ـ 586 م. السكلاني، **الحركة الداخلية بالجنوب التونسي** بالمجلة التونسية للعلوم الاجتماعية (ديسمبر 1970) ص 163 ـ 174؛ س.م. شتارن، **ثلاث ملحوظات موقعية شمال إفريقية** Thre North African Topographical Notes في مجلة ARABICA، ج I (1954)، ص 343 ـ 345؛ محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية**، الفهارس؛ ش؛ تيسو Ch. Tissot، **جغرافيا مقارنة للمقاطعة الرومانية بإفريقيا**، باريس، 1881، ج II ، 30ـ231ـ68ـ 684.

(*) توزر ولاية منذ سنوات عديدة

(**) تطوّرت النّهضة العمرانية والاقتصادية والاجتماعية في ولاية توزر تطوّرا ملحوظا منذ سنة 1966.

أما التعداد السكاني لمدينة توزر (حسب إحصاء سنة 1984) فهو : 21 604 ساكن

[المرجع : « هذه تونس ». نشر وزارة الإعلام ـ تونس 1990 ـ التّحرير ـ].

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

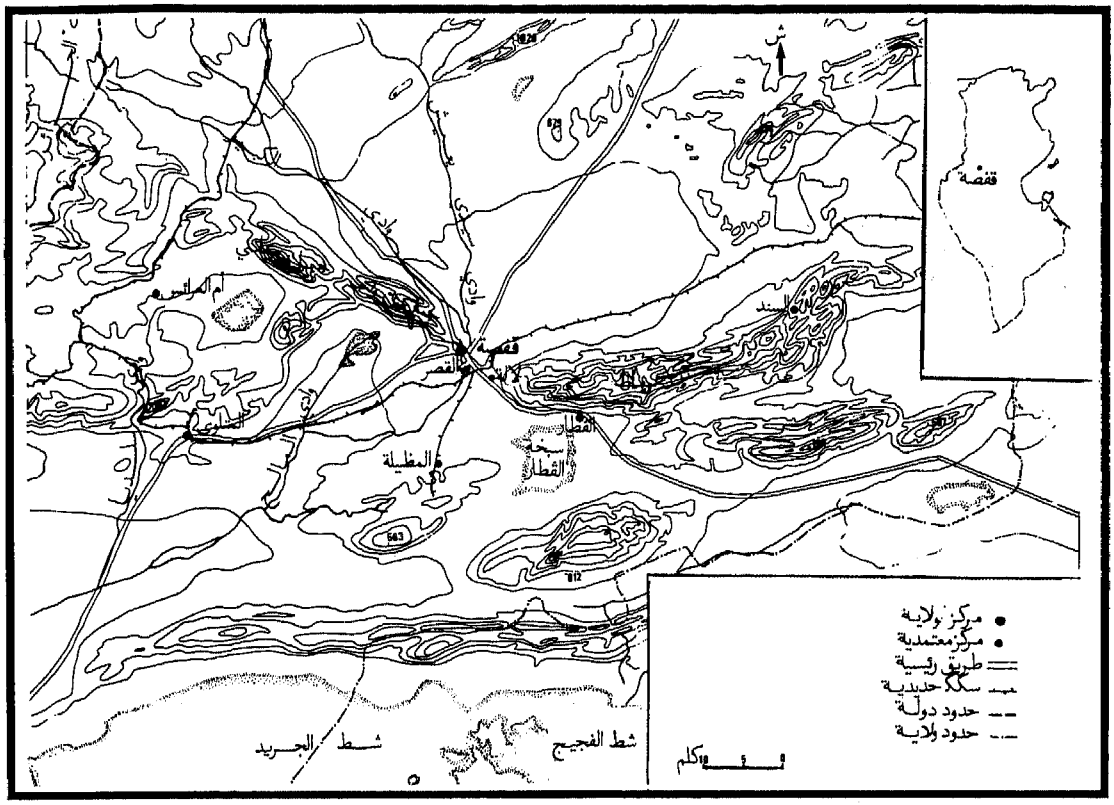

قفصة

قفصة مدينة بالبلاد التونسية تقع في الجنوب الغربي على بعد 360 كيلومتر من مدينة تونس، وعلى 200 كيلومتر من القيروان وعلى 100 كيلومتر من قابس، وتعدّ قفصة 30,000 ساكن. (*) وهي مركز ولاية تشمل 300,000 نسمة، (**) أهمّ ما يوجد داخل أرضها من الثروات مناجم الفسفاط بالمظيلة والمتلوّي والرديّف وأمّ العرائس، وقد تمّ اكتشاف مدّخراتها في سنة 1885. وتحتوي واحة قفصة على قرابة 100,000 شجرة من النخيل تمورها ضعيفة الجودة، تضاف إليها بساتين البرتقال واللّيمون والمشمش والتين وكروم العنب، وما زرع حديثا من الزيتون وبعض غروس الفستق على سبيل التجربة. والريّ بها مضمون بفضل عيون المياه الغزيرة المتدفّقة داخل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المدينة نفسها وبفضل الآبار الأرتوازية الفوّارة. هذا وإنّ قفصة - باعتبارها أولى الواحات على الطريق الرابطة بين القيروان ومنطقة الشطوط، وباشتمالها على آثار من العصور القديمة والغابرة من شأنها أن تشدّ إليها الزوّار - قد أنستْ في نفسها استعدادا لاقتحام مجال السياحة. وقد استطاعت بفضل هذه الميزة أن تستفيد ببعض الخدمات والمرافق الحديثة، مثل تحسين شبكة الطرقات والتجهيزات الفندقية، وإنشاء الحدائق العمومية، وترميم « المسابح الرومانية » وإصلاح قصبة المدينة وجامعها الكبير، وإعادة بناء جزء من الأسوار البيزنطية على الشكل القديم، وغير ذلك. كما شهدت الصناعات التقليديّة بها شيئا من النهضة والانطلاق ، وهي تتمثل بالخصوص في نسج الأغطية والبسط ذات الزخارف الساذجة والألوان الزاهية .

تاريخ المدينة : كلمة قفصة هي الصيغة العربية للتسميّة القديمة وهي « كبصة » Capsa. وانطلاقا من هذا الاسم عمد الباحث ج. مورغان J. Morgan منذ سنة 1909 إلى ابتكار لفظة « كبصي » Capsien لتسمية الحضارة المنتسبة إلى العهد الحجري القديم أو إلى العهد الحجري الأوسط، والتي كانت هذه المنطقة من أهمّ مراكزها، كما تشهد بذلك « حقول الحلزون » العديدة و غيرها من آثار الأنشطة التي ترجع إلى فترة ما قبل التاريخ .

هذا وإن ماضي مدينة قفصة يبقى متسما دائما بالغموض حتّى عندما ندخل العصور التاريخية. من ذلك بالخصوص إنّنا لانعلم بدقّة متى تمّ تأسيس المدينة ومن الذي قام بذلك. والرأي السائد قديما إنهّا من تأسيس أحد الآلهة وهو الهرقل الليبي أو الفينيقي. وإذا ضممنا هذا القول إلى بعض الدلائل الأخرى كان في ذلك ما يدفع إلى الاعتقاد بأن هذه المدينة بونيقيّة الأصل. على أنّنا لم نظفر بعد بأي اكتشاف أثري من شأنه أن يدعم هذا الافتراض. أمّا العرب فإنهّم يرون أنّ مؤسس المدينة هو شنتيان غلام النمرود ملك الكلدانيّين الأسطوري العجيب (انظر البكري، **المسالك**، ص 47 / 100). وفي الحقيقة فإن الباعث على إقامة المدينة- وإن بقيت أصولها غامضة - هو ما يتسم به موقعها من ميزات جغرافية. وكما يقول غزال Gsell (**التاريخ**، ج IV، ص 279) «فقد كان يوجد هناك ملتقى عدد من الطرقات الطبيعية المؤدية إلى كلّ من واحات الشطّوط، وقابس، ومقاطعة المزاق ومكثر وتبسّة ». ومن الجائز أن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

يكـون البونيقيّـون قد استقـرّوا بهذا الموقع الذي ليس فيـه إلاّ الخير لهم والغنم لما كانوا يتعاطونه من التجارة .

وفـي فترة لاحقـة أصبحت المدينة جـزءا من مملكة يوغـرطة الـذي كان يسعى إلى إبقائهـا دومًـا تحت حكمه بمعـاملتها معـاملة خاصّـة ومحاباة أهلهـا، ويذهـب فـي ذلك إلى حـدّ إعفـائها مـن دفع الضرائب والجبايات. وقـد دفـعت المدينة بعد ذلك ثمنا غـاليا عن هذه الحظوة بسبب ما كان فيها من معنى الإخلاص والـوفاء للملك النوميدي. فقد قام كايوس ماريوسCaïus Marius، الـذي أوكلت إليـه رومة مهمـة إخضاع يوغرطة، بحملة تتّسم بالجرأة والإقدام، أخـذ خلالهـا المدينة بغتـة ثم جعلها فريسة للنّيران (سنة 107 ق . م). لكنّها استطاعت أن تنهض من تحت الرماد وأن تعـود إلـى سالـف حياتهـا. فأصبحـت في عهـد الأمبراطور تراجانـوس (98- 117) مدينة ذات نظام بلدي يسهر على إدارتها قضاة على الطريقة القرطاجيّـة، وفـي هذا دليل على وجود تنظيم بونيقي قديم تمّ الاحتفـاظ به في الإمبراطـورية. ثمّ حـلّ عهـد الإمبراطور ديوقليسيا نوس Diocletien (284 ــ 305)، فعمـد البربر إلى ركـوب المزيد مـن مظـاهر العـدوان والتحـرّش. ولم يكن بوسع رومـة إلاّ أنّ تجلي رجالها وتتخلّ تدريجيا عن المنطقة. وتواصل تراجع الدخلاء وانحسارهم في عهـد الـوندال، وبمجـرد مـوت ملكهم جنسريق (428 ــ 477) أصبحت «كبصة» عاصمة لإمـارة بربريّة .ثم عادت إلى حظيرة بيـزنطة فاحتضنتها من جديد في عهد الإمبراطور يوسطينيانوس Justinien (527- 565) الذي كان قـد أعـاد بناء وحـدة الإمبراطـوريـة وأرجع إليها سـالف مجدهـا. بل أنّ «كبصـة» أصبحت عندئذ عـاصمة لمقـاطعة المزاق. وفي سنـة 540 حصّنها الإمبراطور صالومـون بسور جديـد وأطلق عليها اسم «كبصـة اليوسطينيانيّة» Capsa Justiniana

ولم يبق اليوم بقفصة من معالم ماضيها القديم الفخم سوى بعض الآثار القليلة النادرة، مثل « الأحواض الرومـانية » وبعض الأساطين والسواري وتيجـان الأعمدة، وموادّ أخـرى أقلّ قيمة من ذلك أعيد استعمالها في بنـاء المسجـد الجامع بوجـه خاصّ، وكـذلك في غيره من مباني المدينـة القديمة. علـى أن قفصة قـد كانـت حافظت حتى القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، على مـلامحها وطابعها كمـدينة عتيقة، بل وعلى استعمال لغـة مشتقّـة مـن اللاّتينية للتخاطب ـ وقـد انفردت بذلك

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بين مدن إفريقيّة كلّها ـ كما حافظت أيضا على الدّين المسيحي الذي كان معتقد قسم كبير من سكّانها. ويقول البكري (**في المسالك**، ص 47 / 100)، وقد كان يكتب في أواسط القرن الخامس هـ . / الحادي عشر م.، إنّ « المدينة كانت كلّها مبنيّة على أساطين وطيقان من رخام » وإنّ سورها القديم كان من السلامة والكمال بحيث « تخال أنّه قد فرغ من بنائه بالأمس القريب ». وبعد مرور قرن على ذلك يأتي الإدريسي ليؤكد أيضا (انظر **النزهة**، ص 75)، إنّ معظم سكّانها من البربر وانّ الأغلبية منهم تتخاطب «باللّسان اللاّطيني الإفريقي ». (راجع أيضا ليفيسكي T.Lewicki **لغة رومانية الأصل منسية من لغات إفريقيا الشمالية** بمجلة Rocznik Orient، ج XVII (السنة 1953، في مواضع مختلفة).

وقد لامست الموجات الأولى من الفتوحات الإسلامية أسوار مدينة قفصة منذ سنة 27 هـ / 647 م، أي بعد الانتصار في سبيطلة وموت البطريق جرجير Grégoire. وبعد مرور عقدين من السنين استولى عقبة بن نافع على المدينة عنوة. ثم خرجت بعد ذلك من يد المسلمين مع كامل إفريقية حتى جاء حسّان بن النعمان فاسترجعها نهائيا حوالي سنة 78 هـ / 697ـ 698 م .)

وفي أواخر القرن الثاني للهجرة / الثامن للميلاد، وأوائل القرن الثالث / التاسع م. كانت منطقة قفصة عامرة بالخصوص بالخوارج من قبائل لواتة وزواغة ومكناسة. وقد اشتركوا سنة 224 هـ / 839 م. في الثورة التي هزّت منطقة قسطيليّة، فعاقبهم الأمير الأغلبيّ أبو عقال على ذلك عقابا شديدا، هذا ويذكر الشمّاخي (في **السّيَر**، 203) أنّ الإمام عبد الوهاب (168ـ 208 هـ / 784ـ823 م). كان له بقفصة « عامل». وينبغي أن ندرك أنّ المقصود بذلك هو الجابي الذي كان يجمع الصدقات الشرعية من أتباع المذهب الإباضي ويوجّه بها إلى تاهرت بقدر متفاوت من السريّة والكتمان، وذلك لأنّ مدينة قفصة لم تكن يوما داخلة في حكم الدولة الرّستميّة .

وبعد أن خضعت قفصة لسلطان الفاطميّين، ثم الصنهاجيّين من بعدهم، أصبحت طيلة أكثر من قرن (445ـ 554 هـ / 1053ـ1159 م) عاصمة لدويلة مستقلّة بذاتها تشمل كامل بلاد قسطيلية، أي منطقة الجريد الحالي. فقد كانت زحفة بني هلال غيّرت فعلا وبصورة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عميقة المحيط السياسي والتوازن بين مختلف الأجناس والعناصر بالمنطقة كلّها، فانهارت أركان السلطة المركزية وعمّت الفوضى والاضطرابات كلّ الجهات. فعمد عند ذلك عبد اللّه بن محمد بن الرّند عامل المدينة من قبل الصنهاجيّين إلى إعلان استقلاله واستئثاره بالحكم (445-465 هـ / 1053 - 1073 م) .، كما فعل كثير غيره ، ودفع الجزية للأعراب البدو (ولاسيما منهم قبيلة رياح)، وتحالف معهم فرسّخ بذلك أسس نفوذه وضمن الأمن والطمأنينة في أرجاء مملكته. وقد ساعده كلّ ذلك على استجلاب الشعراء والفقهاء إلى بلاطه .

ثم جاء عهد الموحّدين الذين جمعوا في حكمهم بين كامل أنحاء المغرب، واضعين بذلك حدّا لانفراد قفصة بأمرها. وقد قام عبد المؤمن بن علي سنة 554 هـ/ 1159 م. بافتتاح المدينة عنوة بعد حصار شديد. ومنذ ذلك الحين شهدت قفصة حياة مضطربة مثل كامل مناطق الجنوب من إفريقيّة. ونازع الموحّدين عليها أحد المغامرين من أصل أرمني يدعى قراقوش، كما نازعتهم بالخصوص دولة بني غانية. هذا ولم يذعن بنو الرند لما حلّ بهم ولم يقبلوا بتنحيتهم عن السلطة، فأعاد الأمير ابن المعزّ هذه الدولة إلى الحكم من جديد استجابة لرغبة أهالي المدينة الذين أغضبهم عامل الموحّدين فوثبوا عليه وقتلوه. فخرج الخليفة أبو يعقوب يوسف من مرّاكش وجاء بنفسه سنة 575 هـ / 1180م. لمحاصرة المدينة ، التي لم يدم خضوعها زمنا طويلا. فلم تلبث أن سقطت في قبضة بني غانية. فاضطرّ المنصور، هو الآخر، إلى محاصرتها على رأس جيش عتيد (سنة 583 هـ / 1187 - 1188م)، وفي هذه المرّة أنزل بقفصة شديد العقاب فدكّت أسوارها من الأساس، ولم يسمح لسكّانها بالاحتفاظ بأراضيهم إلاّ على أساس اعتبارهم مزارعين بالشرّاكة .

ولم تكن حياة المدينة أقلّ اضطرابا من ذلك في عهد الدولة الحفصية. فقد غلب عليها في سنة 681 هـ / 1282 م. الدعيّ ابن أبي عمارة (681 - 683 هـ / 1282 - 1284 م). ثم استرجعت بعد ذلك استقلاليتها المعهودة في ظلّ حكم دويْلة محلية، وهي دولة بني العبيد الذين كانوا يدّعون النسب العربي. أمّا الأمير الحفصي أبو بكر الذي تميّز أوّل عهده - المتّسم بشدة التمزّق والاضطراب - بفقدان مقاطعات الجنوب، فقد حاصر قفصة في سنة 735 هـ / 1335 م.، واسترجعها ثمّ عهد بولايتها إلى ابنه أبي العبّاس. وقد سعى في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

نفس الـوقت، بواسطـة التنـازل عن بعض الأراضي لفائدة الفقـراء وذوي الحاجة من سكّـان المدينة، إلى تمتين الـروابط بينها وبين دولتـه. لكنّها لم تلبث مع ذلك، بعد فترة قصيرة من السيطـرة المرينية عليها (748-750هـ / 1348-1350م)، أن استعادت حرّيتها من جديد تحت سلطة أحمد بن عمر بن العبيد ، ثمّ ابنه محمد من بعده. وقـد اضطرّ السلطان الحفصي أبو العباس (772-796 هـ / 1370-1394 م) إلـى استرجـاع ملكـه بحدّ السـلاح. فضرب الحصار على قفصة في سنة 780هـ / 1378م.، وقام بتدمير واحتها لإرغـام أهلهـا على الاستسـلام، ثمّ ولّى عليها ابنـه أبـا بكـر. وبعـد ذلك، وفـي خضمّ الاضطرابات التي أعقبت مـوت الوالـي التركـي (سنة 793هـ / 1391 م)، قـام شخـص يدعى الدُّنَـيْـدن بإعادة الحكم من جديد إلى دولة بني العبيـد، مستأثرابه لنفسـه. فاضطَرّ أبو العبـاس إلى التدخّل مرّة أخرى. وفي أواسط سنة 795هـ / ربيع سنة 1393 م. حاصر المدينة من جـديد وعـاد فخرّب واحـة نخيلهـا. ومني ببعض الهزائم. ولم يتمكّن من السيطرة نهائيا على هذا الأمر- قبيل موتـه بأشهر - إلاّ بمشقّة وعناء. ولم يدم ذلك طـويلا، إذ نجم بنو العبيد بـالمدينة من جديد في عهـد خلفه أبي فارس (796 - 837 هـ / 1394-1434 م، الذي أجبـر هو الآخـر على محاصرة المدينة وافتتاحها عنوةً (سنة 802هـ /1400 م) ثم قام بتهديـم أسوارهـا من الأسـاس فقضى بذلك نهائيـا على دولـة المتمرّديـن. وبعـد انقضاء بضعة عقود من السنين، قام السلطـان ابو عبد اللّه محمد المنتصر (837-839 هـ / 1434 -1435 م) بزيارة المدينة وتـرميم القصبة التي أقام بها سلفه .

ومنـذ ذلك الـوقت لم يرد ذكـر قفصـة كثيرا في معـرض الأحداث. فبعـد محاولة غير ناجحة سنة 1530 م، أمكن للقائد التركي درغـوث - الذي أوكل إليه السلطان العثماني سليمان القانوني (1520-1566 م) حكم طرابلس - أن يفتتح المدينـة عنوة يـوم 20 ديسمبر 1556 م. لكنّ الاحتـلال التركي لم يـرجع إليها سـالف ازدهارهـا. فقد اجتمع على استنـزاف خيراتها كلّ من أعراب البـادية الرّحّل والحكـومة المركزيـة العاجـزة عن حمايتها فلم تفتأ تتدهـور وتتقهقر حتـى نزلت إلى مستـوى بلدة صغيرة مغمـورة احتلّتها الجيوش الفرنسية بدون عناء (يوم 20 نوفمبر 1881) إبّان انتصاب الحماية بالبلاد .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الجغرافيا التاريخية : قفصة مدينة من مدن السهوب تقوم بين جبال عرباطة بالجنوب الشرقي، وجبال أصاله وابن يونس بالشمال والشمال الغربي. على مرتفع يبلغ علوّه 345 مترا، وفي موقع اتسم في مختلف عصور التاريخ بمظهره المقفر الموحش، وقد كانت دوما مثالا للحاضرة الكبيرة التي يعود نجاحها وازدهارها إلى ما يوجد بها من رصيد مائي وسط منطقة يغلب عليها الجفاف والجدب، وإلى موقعها الممتاز الذي يجعل منها، حسب عبارة ش. تيسو ـ Ch.Tissot « بابا من أبواب الصحراء ومفتاحا من مفاتيح التلّ معا وفي نفس الوقت » (انظر **الجغرافيا المقارنة** ... ج II، ص 668). أمّا سالسطس Salluste (86ـ35 ق.م) فإنّه وصف قفصة بأنّها « مدينة كبيرة وعتيدة». لكنّه كان يلّح منذ ذلك العهد على ما ينشأ عن وجود الفيافي والقفار الشاسعة المحيطة بها من مناعة للمدينة، وصعوبة على الجيوش الغازية في الوصول إليها .

وبفضل مثل هذه المؤهلاّت العديدة للنجاح، أمكن لقفصة أن تحافظ إلى نهاية العهود التاريخية القديمة، ورغم تقهقر منطقة المزاق، على ما كان لها من أهمية وازدهار. وبعد الفتح العربي ازدادت انطلاقتها قوّة وثباتا. فقد أسلفنا القول انها حافظت طويلا على مظهرها وأسلوب حياتها العتيقين. وفي أواخر القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي يصف لنا اليعقوبي مدينة قفصة على النحو التالي ـ وقد كان أوّل جغرافيّ عربيّ يترك لنا بعض الملاحظات الشخصيّة المفصّلة حول المدينة ـ فيقول : « مدينة حصينة يحيط بها سور مبنيّ بالحجارة. وبداخل المدينة ينابيع ماء جارية، وسككها مفروشة بالبلاط، وأحوازها كثيرة الخصب وثمارها مشهورة » (راجع **البلدان**، ص 212). وفي أواسط القرن الرابع هـ / العاشر م. يذكر لنا ابن حوقل ـ الذي كان موجودا بالقيروان سنة 336 هـ / 947 م. (راجع **صورة الأرض**، ص 84 ترجمة كرامرز وفيات Kramers-Wiet، ص 92)ـ إنّ مدينة قفصة كانت « مستقلّة بأمرها » وأنّ ازدهارها كان « في غاية الكمال » قبل سنة 330هـ / 942 م.، وهي السنة التي قام فيها أبو يزيد النكّاري بتخريبها (**صورة الأرض** ص 92، الترجمة، 93). وقد نهضت من نكبتها بسرعة فيما يبدو، إذ أنّ المقدسي (المتوفّ سنة 378 هـ / 988 م). يذكرها في أواخر القرن الرابع هـ / العاشر م. من جملة أمصار إفريقيّة وحواضرها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الكبرى. وفي منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. يقدّم لنا البكري (المتوفّ حوالي سنة 461هـ /1068م)ـ ولم يكن قد زار البلاد بنفسه وإنّما كان ينقل أخباره عادة عن المؤرّخ الإفريقي الورّاق (المتوفّ سنة 363 هـ / 973-974م) ـ وصفا تمتاز قفصة فيه بكلّ المحاسن. وهذا الوصف الذي يعدّ من أكثر ما بلغنا عن المدينة تفصيلا في العصر الوسيط، يتحدّث بإطناب عما كان بها من معالم من عهود الأوّلين لا تزال على أحسن حال، ومن عيون فوّارة تزوّد بوفير المياه بساتينها الغنّاء التي كانت تنتج، فيما تؤتيه من الثمار، كميات وافرة من الفستق يتمّ تصديرها إلى كامل أنحاء إفريقيّة، بل وحتى إلى مصر وسجلماسة والأندلس، ويضيف البكري أنّه كان يوجد بها تمر في حجم بيض الحمام، وكان بضواحي المدينة وبجوارها مالا يقلّ عن المائتين من القرى الصغيرة والكور، تسمّى « قصور قفصة » ويعمّها الازدهار والرخاء. وآخر ما كانت تتميّز به من دلائل الثراء الذي لا مجال للشكّ فيه أنّ خراجها من الجبايات التي تدفع إلى الدولة كان لا يقلّ عن خمسين ألف دينار حسب ما يؤكده لنا الرواة. ومن الثابت أنّ هذا الوصف كان يصوّر أوج ما بلغته المدينة من مراتب الازدهار. وقد كان ذلك على أغلب الظنّ في زمن الورّاق. أي في آخر القرن الرابع الهجري / العاشرم. ويبدو أنّ هذا الازدهار قد تواصل خلال القرن الموالي، أي في عصر البكري، بالرغم عن هجمة بني هلال المباغتة، وقد اهتدى بنو الرّند إلى إقامة أسلوب في التعايش معهم كان يكلّفهم الكثير طبعا، لكنّه كان من قبيل الأمور التي يمكن تحمّلها. وبقيت المدينة على ازدهارها حتى أواسط القرن السادس هـ/ الثاني عشر م.، وهو العهد الذي كان يكتب فيه الإدريسي، وقد وصف قفصة بأنها « مدينة حسنة » بسورها السليم المتكامل ومياهها الغزيرة وأسواقها النشيطة النافقة التي تغصّ بالتجّار، وصناعاتها « القائمة » وواحتها الفسيحة ذات التمور « العجيبة » وأرباضها العامرة وبساتينها وأجنّتها ومزارعها المتنوّعة التي كانت تنتج فيما تنتج الحنّاء والقطن والكمّون وهي من الموّاد التي كان الناس يتهافتون عليها في العصر الوسيط .

وبحلول عهد دولة الموحّدين تغيرّ الوضع تغيرّا كاملا. فقد كانت مدينة شديدة التعلّق باستقلالها. وكثيرا ما تمرّدت على الحكّام وخرجت على السلطة المركزيّة، فدفعت ثمنا باهضا جزاء تعلّقها المفرط بالحريّة. وقد تمّ مرارا ـ كما أسلفنا ـ تهديم أسوارها وتحصيناتها من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الأساس وتدمير واحة نخيلها. ومنذ ذلك العهد بدأ تدهورها وتراجعها الاقتصادي. ففي القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يقتصر ياقوت (574-626 هـ / 1178-1229 م)، بعد التذكير بسالف محاسنها، على وصفها بأنها «بلدة صغيرة على تخوم إفريقيّة ... وسط أرض سبخاء قاحلة » (انظر **البلدان**، جIV، ص 382). أمّا قراها وضواحيها التي كانت أكثر تعرّضا لمخاطر الاكتساح والتدمير، فقد آل أمرها إلى الاندثار. ففي زمن ابن الشباط (618 - 681 هـ / 1221-1282 م) - فيما نقل عنه الوزير السرّاج (انظر **الحلل**، ج I، ص 437) — « لم يبق منها إلاّ القليل ». وفي أواسط القرن السادس عشر يقول الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي Jean -Léon l'Africain) بعد الإشارة إلى ما كان أمر به المنصور من تهديم وتخريب : «واليوم عمرت قفصة من جديد بالسكّان، لكنّنا لا نجد فيها سوى مبان متواضعة باستثناء بعض الجوامع. وسككها في غاية الاتّساع وهي مفروشة كلّها بالبلاط الأسود كشوارع نابولي وفيرنزا. وأهلها متحضّرون متّسمون بحسن المعاشرة، إلاّ أنهم فقراء لكثرة ما يثقل كواهلهم من الضرائب والجبايات التي يدفعونها لملك تونس» (انظر **وصف إفريقيا**، ج II، ص 444). ثم يستمرّ الكاتب في كلامه متحدثا عن فساد مناخها ومثنيا على ما تنتجه من أنسجة وأواني فخّار وتمور، ومادحا مابها من بساتين برتقال وحقول زيتون «زيته في غاية الكمال طعما ولونا ». وعلينا بعد ذلك أن ننتظر حلول القرن التاسع عشر، ورحلات غيران Guérin وزاكّون Zaccone ومايه Mayet لكي نظفر بأخبار أخرى عن المدينة وبوصف جديد لها، بعد أن أصبحت مجرّد قرية حقيرة بائسة .

ثبت المراجع

مصادر جغرافية (مرتبة حسب التسلسل الزمني) ابن خرداذبه، **المسالك**؛ وابن الفقيه، البلدان، تحـ وترجمة لحاج صادق بعنوان **وصف المغرب** Description du Maghrib...، الجزائر، 1949، ص 6 / 7 مع التعليق 74، 30 / 31؛ اليعقوبي، **البلدان**، ترجمة ج . فيات G.Wiet بعنوان Les Pays، القاهرة، 1937، ص 212 ؛ ابن حوقل، **صورة الأرض**، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 87، 92 (ترجمة كرامرز ـ فيات Kramers-Wiet ص 92، 93)؛ المقدسي، **أحسن**

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التقاسيم، تحـ. وترجمة جزئية لشارل بيلاّ Ch. Pellat بعنوان وصف المغرب Description de l'Occident، الجزائر- 1950، ص 4 / 64،5 / 65 ؛ البكري، المسالك، تحـ. وترجمة دي سلان de Slane، باريس، 1965، ص 14 / 35، 47 / 75، 102 ـ 100 / 148، 153 / 284 ؛ الإدريسي، النزهة ط. جزئية لهنري بيراس H. Pérès، الجزائر، 1957، ص 75، 80، 89 ؛ ياقوت، البلدان، بيروت 1957، IV† ص 382- 383؛ التّجاني، الرّحلة، ط. تونس، 1958، ص 114، 136 ـ 139، 147، 353، 356 ـ 357 صفيّ الدين البغدادي، مراصد الاطلاّع، تحـ. علي محمد البجاوي، القاهرة، 1954، ج III، ص 1113؛ جان ليون الإفريقي Jean-Léon l'Africain، وصف إفريقيا، ترجمة عن اللاّتينية لايبولار A. Epaulard باريس، 1956، ج II، ص 443 - 445؛ الوزير السرّاج، الحلل تحـ. م. ج. الهيلة، تونس 1970، جI ص 368، 379 ـ 381، 388، 436 ـ 437، 488 ـ 1005، 1007؛ ف. غيران V.Guérin رحلة أثرية في الإيالة التونسية Voyage archéologique dans la Régence de Tunis باريس، 1862، جI، ص 270 - 287 زاكون Zaccone، تقييدات حول الإيالة التونسية Notes sur la Régence de Tunis، باريس، 1875، ص 208 ـ 216. سياليس Céalis، من سوسة إلى قفصة De Sousse à Gafsa، باريس، بدون تاريخ، ص 153، 213 ف. مايه V. Mayet رحلة في جنوب تونس Voyage dans le Sud de la Tunisie باريس 1887، ص 171- 186.

ـ الدراسات : ل. بلوط L. Balout عهد ما قبل التاريخ بإفريقيا الشمالية Préhistoire de l'Afrique du Nord، باريس، 1955، ص 387 ـــــ 448 ؛ بودروو Bodereau، قفصة القديمة وقفصة الحديثة La Capsa ancienne et la Capsa moderne، باريس، 1907؛ ع. بوحديبة، ظروف عيش عمال المناجم بمنطقة قفصة، بمجلة Etudes de Sociologie Tunisienne تونس، 1968، جI، ص 165 ـ 233؛ ر. برانشفيك ـ R. Brunschvig، الدولة الحفصية Hafsides ج I ص 3، 6 ـ 9، 21، 149، 150، 158، 174، 189 ـ 190، 207 ـ 208، 305 ـ 328، ج II، ص 105 ـ 106، 186، 199، 220، 280؛ ج. ديبوا J.Despois إفريقيا الشمالية L'Afrique du Nord، باريس، 1958، الفهارس ؛ ش. ديل، إفريقيا البيزنطية l'Afrique byzantine، باريس، 1896، ج I، ص 126، 169؛ جII، ص 388، 391، 529، 560، 572 ؛ ل. فوشي L.Foucher حضر موت Hadrumetum باريس، 1964، ص 262 ـ 321 ؛ ج. غانياج J. Ganiage أصول الحماية الفرنسية بالبلاد الفرنسية (1861 ـ 1881)، باريس، 1959، ص 138، 145، 171؛ س غزال S.Gsell،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التاريخ القـــديم لإفريقيـــا الشمالية، باريس، 1913-1928، جII، ص 98- 99، ج V، ص 204 ، 278ـــ 279 ، ج VII، ص 231 -235 ؛ هـــ. ر. إدريس H.R.Idris **الدولـــة الصنهاجية** Ziride، جI، ص 222-223 396-399 ، جII، ص 470- 471 ؛ ش . أ .جوليان Ch.A.Julien، **تاريخ إفريقيـــا الشماليـــة**، باريس، 1956، ج II، ص 271 ؛ ع، العروي **تاريـــخ المغـــرب العربـــي**، باريـــــس، 1970، ص 117، 175، 220، 309؛ أ. مارتال A.Martel **التخـوم الصحراوية الطرابلسية للبـــلاد التونسيـــة** Les Confins saharo-tripolitains de la Tunisie 1881-1911 (1911- 1) باربـــس، 1965، جI، ص 243 - 244 ، 260 - 265 ، 276 -278 ؛ أ. سعد زغلول، **تاريخ المغـــرب العربي**، القاهـــرة، 1965، ص 113، 141ـــ143 ، 190- 191؛ م. الطالبي. **الإمـــارة الأغلبيـــة**. ص 219- 220 356 359. 672ـــ 677 ، 686 ؛ ش . تيســـو Ch.Tissot، **الجغرافـــيا المقـارنة للمقـاطعة الرومانيـــة بإفريقيـــا** Géographie comparée de la province romaine d'Afrique باريس، 1884، ج II ص 264، 265، 268 ؛ ج. توتان J.Toutain، **المدن الرومانية بالبلاد التونسية** des Cités romaines de Tunisie، باريس، 1896؛ ر.فوفراي R.Vaufrey. فترة ما قبل التاريخ بإفريقيـا Préhistoire de l'Afrique) ج I، المغرب العربي Le Maghreb ، باريس، 1955، ص 14 127- 195، 407-415 .

(*) 60970 ساكن (التعداد السكاني لسنة 1984 ـ المرجع : « هذه تونس » ـ نشر وزارة الاعلام ـ تونس ـ 1990).

(**) هناك تطور ملحوظ في التعداد السكاني لهذه الولاية.

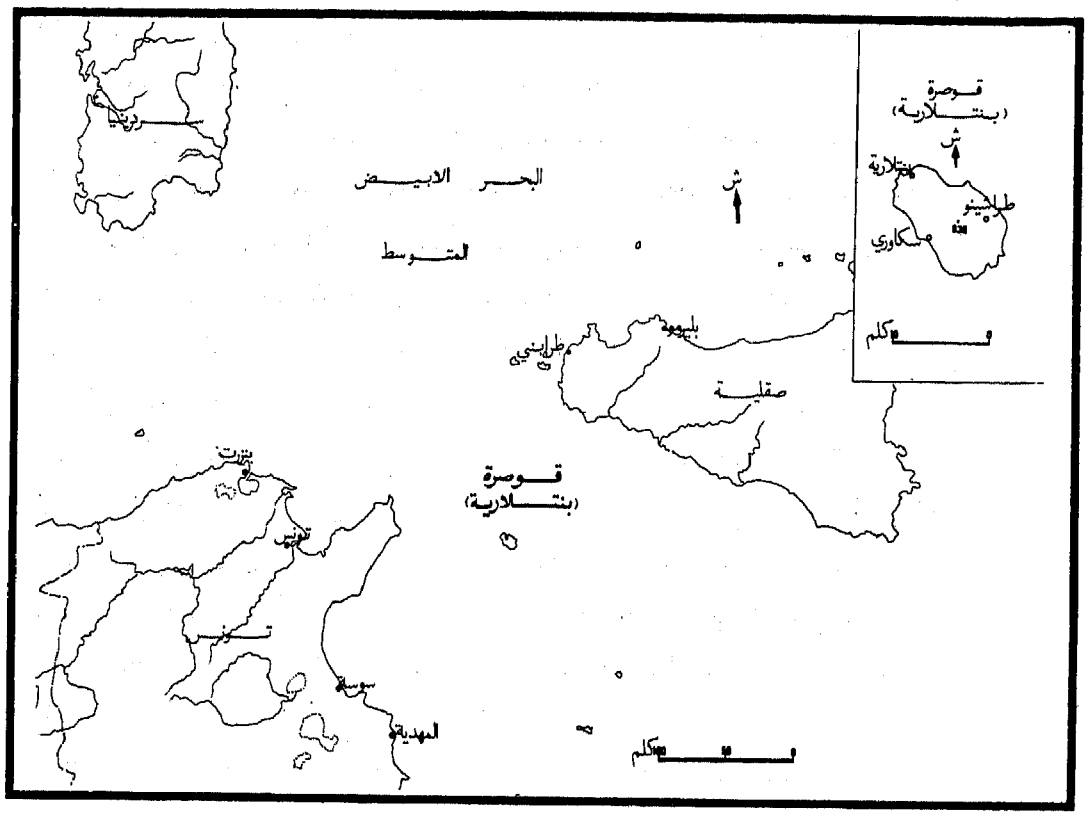

قوصرة

قوصرة أو قوسرَة، جزيرة إيطالية تسمى اليوم بنطلاّرية Pantelleria، تبعد 100 كلم عن صقليّة و 76 كلم عن المدينة التونسية قليبية (كليبيا) Clupea، وهي رعن بركاني مساحته 83 كلم 2 يخلو من الماء العذب يشرف من ارتفاع 836 م، سكّانه 10000. وتسمية قوصرة ـ، كما يرسمها ياقوت ـ ويقترح لها أصلا عربيا (قفة التمر)ـ وأغلب المصادر، هي في الواقع من أصل يوناني. وهو تحريف كوسيرا Cossyra ، ويتجلى بصفة أوضح في الشكل الذي وثقه واحتفظ به البكري : قُوسرَة. ومن جهة أخرى، لاريب أنهّا كانت تنطق بصفة دارجة قوصرَة ، ثم وقع تعريبها في النصوص، تماثلا مع صيغة عربية، فأصبحت قوصْرَة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ولما كانت قوصرة دون قيمة استراتيجية واقتصادية ، فإنهّا لم تشغل التاريخ إلاّ قليلا ، ولا تلتقط إلاّ معلومات قليلة في شأنها في المصادر العربية : فعند غزو عبد الله بن سعد بن أبي سرح لإفريقية (27 هـ / 647- 648م) تجمع سكّان جزيرة شريك (الوطن القبلي) بكليبيا ولجؤوا مؤقّتا إلى قوصرة. وبعد نصف قرن، حوالي 81 هـ / 700 م، ذهب عبد الملك بن قطن ـ وقد آل به الأمر إلى أن يصبح واليا للأندلس ـ لاجتياح الجزيرة، ويرجح أنه انطلق من مصر. وقد واصلت قوصرة إثر ذلك من دون شكّ استقبال الأساطيل الإسلامية الزائرة من حين لآخر لما بدأت في اجتياح البحر الأبيض المتوسط. وفي سنة 221 هـ / 836 م، كانت قوصرة باقية في أيدي البيزنطيّين، وكانت تستخدم قاعدة لأسطولهم المقاتل ضد أسطول الأغالبة الذين شرعوا منذ 212 هـ / 827 م في غزو صقليّة. ولا يعرف متى استولى عليها هؤلاء. لكنّها كانت ملكا لهم بعد، بلا شكّ، سنة 250 هـ / 864 م. وبداية من هذا التاريخ، غدت الجزيرة التي عربت وأصبحت مسلمة في الأثناء بصفة كاملة، جزءا من إفريقية، حتى العهد الموحّدي .

وبالطبع لم تفلت من الصراعات التي تواجه فيها نرمان صقلية والزيريّين. ففي نواحيها، غرق الأسطول المكوّن من 400 سفينة والذي جهزه المعز بن باديس (407 ـ 454 هـ / 1016 ـ 1062 م) لنجدة مسلمي صقليّة في ذي القعدة 416 / جانفي 1026. وهناك أيضا، تجمعت أساطيل بيزا Pise وجنوة Gênes سنة 480 هـ / 1087 ـ 1088 م، وكانت تعتزم مهاجمة إفريقيّة. وقد أنذر مسلمو الجزيرة تميما (454 ـ 501 هـ / 1062 ـ 1108 م) بواسطة الحمام الزاجل بالخطر الذي يعترضه. وفي سنة 517 هـ/ 1123 م.،نهب الأسطول النرماني قوصرة، في طريقه إلى المهدية،واجتاحها،وقتل سكّانها.وأخيرا،في سنة 543هـ/ 1148 ـ 1149م، استولى الأسطول الصقليّ الذي يقوده جورج الأنطاكي Georges d'Antioche على الجزيرة، قبل أن يذهب لانتزاع عاصمة الزيريّين .

وقد استرجع قوصرة دون شكّ إثر ذلك الموحّدون الذين قدموا لتحرير إفريقية من الحضور المسيحي، وتوحيد المغرب، ولم يكن ذلك لوقت طويل. ففي معاهدة عقدت بتاريخ 15 جمادي الثانية 618 هـ / 6 أوت 1221م، مع الإمبراطور فريديرك الثاني Frédéric II ، تخلّى حاكم تونس الموحّدي عن قوصرة لصقليّة، بشرط أن يتمكن مسلمو الجزيرة من التمتّع

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالاستقلال الإداري والقانوني، و أن يدفع نصف الضرائب المأخوذة منهم لإفريقية (ماس لاتري Mas-Latrie، معاهدات... Traités، باريس، 1886، ص 153 - 155) ومن هنا، اتبعت قوصرة مصير صقليّة، وارتبطت خلال بعض الوقت بمملكة أراغون Aragon، وتحصلت حسب المحتمل من القطلونيّين Catalans على تسميتها الجديدة ببنطلارية Pantelleria. غير أن حكام تونس لم يتخلّوا بصفة كاملة عن استعادتها.وتضبط معاهدة غريبة بتاريخ 1403م. الشروط التي يمكن لحاكم أراغون أن يستولي على جربة، وحاكم تونس على قوصرة. لكنّ هذه المعاهدة الغريبة لم تطبّق على الاطلاق.

وقد بقي سكّان قوصرة طويلا مسلمين، حتى أن ياقوت (المتوفى 626 هـ / 1228م) يحدّد أنهّم كانوا في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. يتكوّنون من الوهبية - أصيلي جربة ؟ - الذين كان شظفهم ملائما تماما لوضع الجزيرة ومواردها الشحيحة. وعملت السلط المسيحية الجديدة كلّ العمل على الاحتفاظ بهم. وهكذا نرى، سنة 1438 م، الفونس الآراغوني Alphonse d'Aragon يشكو إلى سلطان تونس من أن بعض الموظفين الحفصيّين كانوا يشجّعون هجرتهم. وطالب سفيره بعودة المهاجرين، وربما بإقرار أفارقة جدد في الجزيرة. ولا ندري في أي تاريخ بدأت المسيحية في قوصرة، لكنّ فازلّو Fazello الذي يذكره آماري Amari تاريخ Storia III، 895) ، يخبرنا أنّه منذ بداية القرن العاشر هـ/ السادس عشر م. كان المسيحيّون والمسلمون بها يرتدون نفس الملابس ويتكلّمون عين اللّسان. وهذه اللغة حسب بوني Bonnet - التاجر البروفنسي الذي استرقّ بتونس، وتمكّن من الفرار منها - كانت، في التاريخ الذي لجأ إلى قوصرة، أي سنة 1670، هي نفس اللّغة التي يتكلّم بها في مالطة، وقد كانت إذن عربية، لا بد أنهّا قد تغيرّت بعد بصفة عميقة .

وقد كانت موارد الجزيرة دائما شحيحة يقدر. وكانت غاباتها توفّر خشبا ذا نوعية ممتازة، ويقال إنّه كان يصطاد فيها الماعز الوحشي. وفي منتصف القرن السابع عشر، حسب بوني Bonnet كانت كلّ تجارة الجزيرة تتمثل في الخمور، والفحم، والخشب، وكان سكّانها ينقلونها إلى صقليّة ومالطة (ب . غرانشان P. Grandchamp، تاجر بروفنسي.14 ...Un marchand Provençal..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البيليوغرافيا : المصادر ـ البكري، **المسالك**، تحـ دي سلان De Slane، باريس، 1965، 45 / 97 ؛ نفسه، **جغرافية الأندلس والمغرب**، تحـ ا. ا. الحاجي، بيروت ، 1968، 226 - 227 ؛ ابن الأثير، **الكامل**، ط. بيروت 1965-1966، VI، 339 ، IX، 349 ، X، 166، 197، 198، 612، XI، 125؛ ياقوت ، ط. بيروت، 1957، IV، 413؛ صفيّ الدين البغدادي، **مراصد**، القاهرة، 1955، III، 1133، (يلخّص ياقوت)؛ ابن عبد المنعم الحميري، **الروض**، تحـ . جزئي أ. ريزيتانو U.Rizzitano، في مجلّة كليّة الآداب، جامعة القاهرة، (ماي 1956)، XVIII، 172-173؛ البلوي، **تاج المفرق**، مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس،رقم 15060،و24 وجه؛ ابن خلدون، **المقدمة**، بيروت، 1956، 454، 455؛نفسه،**العبر**،بيروت،1956-V،9، 433، VI، 331. الدراسات : ح.ح عبد الوهاب، **قصة جزيرة قوصرة العربية**، في المجلّة التاريخية المصرية 2II / (القاهرة، 1949)، 55 - 73 (أعيد نشره في ورقات، II، تونس،1966، 277 - 316 ، ترجم بالفرنسية في أعمال الجمعية الملكية للدراسات التاريخية Procedings of the Royal Society of historical Studies (القاهرة، 1951)، 57-78 ؛ م . آماري M. Amari **تاريخ مسلمي صقلّية** Storia dei musulmani di Sicilia، كاتان Catane 1933 - 1935 ، الثبت في مادّة بنطلارية؛ هـ. براسك H. Bresc، **بنطلارية بين الإسلام و المسيحية** Pantelleria entre l'islam et la chrétienté في كراسات تونس Cahiers de Tunisie LXXV - LXXVI (1971)، 105-128؛ ر. برانشفيق R.Brunschvig، **الحفصيون** Hafsides، I، 225 26، 249، 272؛ شـ . أ : دوفورك (Ch. E. Dufourcq)، **إسبانية القطلونيّة و المغرب في القرنين الثالث عشر و الرابع عشر** (L'Espagne Catalane et le Maghreb aux XIIIè et XIVè siècle)، باريس، 1966، الثبت في مادة بنطلاريّة ؛ ب. غرانشان P.Grandchamp، **تاجر بروفنسي** Un marchand provençal esclave à Tunis (1669 - 1670) ، تونس ، 1939، 13، 14؛ هـ.ر.إدريس R.Idriss، **الزيريّون** (Zirides)، 168 174 288 335 356 527؛ م. الطالبي، **الإمارة الأغلبية** Emirat Aghlabide، 267، 439.

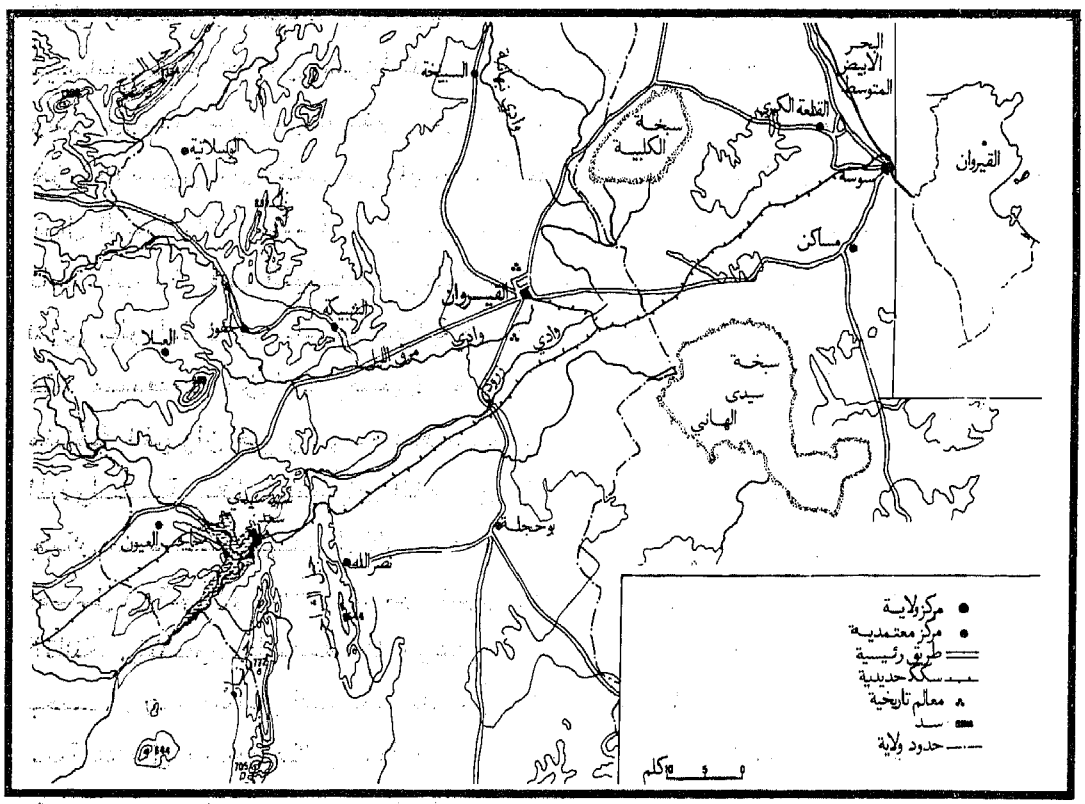

القيروان

القيروان، مدينة في وسط البلاد التونسية تبعد مسافة 156 كيلومترا عن مدينة تونس، ومسافة 57 كيلومترا عن مدينة سوسة، وتقع على ارتفاع 60 مترا فوق مستوى سطح البحر. وهي مركز ولاية تشتمل على 336,000 ساكن(*)يعيشون فوق مساحة تساوي 680,000 هكتار. وقد كان عدد سكّان المدينة يبلغ 34,000 شخص في سنة 1956، فتطوّر إلى 47,000 شخص (في إحصاء سنة 1966)، ثمّ إلى 56,000 نسمة سنة 1972.(**) وتشهد درجات الحرارة بالمدينة فروقا عظيمة إذ أنها تتراوح بين بضعة درجات مئوية تحت الصفر في الشتاء وبين 40 درجة أو أكثر في فصل الصيف. وتهبّ على المدينة ريح السّموم الصحراوية بمعدّل 21 يوما في السنة. أمّا معدّل نزول الأمطار فهو يتراوح بين 250 و 300 ميليمتر في السنة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بالمدينة نفسها وضواحيها، ويصل إلى 500 ميليمتر بالمناطق الغربية من الولاية. ويتفاوت نزول الأمطار بصورة كبرى من سنة إلى أخرى، إذ تنتقل المنطقة من الجفاف إلى الفيضانات البالغة حدّ الكوارث، وقد كانت فيضانات سنة 1969 من أكثرها تدميرا وإتلافا للمنشآت والخيرات. وإنّ سدّ وادي زرود، الذي سوف يشرع قريبا في بنائه(***) ، والذي سيمكّن من خزن 80 مليون متر مكعّب من المياه، وكذلك سدّ وادي مرق اللّيل الذي لا تزال الدراسات المتعلقة به في مراحلها الأولى، (****) سوف يسمحان باجتناب مثل هذه الفيضانات وتفاديها، وبتوسيع رقعة الأراضي القابلة للريّ بالزيادة في مساحتها الحالية البالغة 14,000 هكتار (منها 8,000 هكتار فقط مستغلّة في الزراعة بصورة فعلية). وفعلا فإنّ الوجهة الغالبة على منطقة القيروان هي وجهة فلاحية أساسا. وقد سمحت الجهود المبذولة خلال العشريّتين الماضيتين بتطوير زراعة الأشجار المثمرة بشكل ضخم. فهذه الولاية تعد في سنة 1972 ما يساوي 350,000 أصل زيتون و 2,800,000 شجرة لوز. وتأتي أشجار المشمش في المرتبة الثالثة. وتتفاوت المساحات المزروعة قموحا بشكل كبير بين سنة وأخرى بحسب وعود أمطار الخريف. فقد مرّت هذه المساحات من 58,000 هكتار سنة 1968إلى 200,000 هكتار سنة 1972. وكانت في حدود 75,000هكتار في سنة 1956 ثمّ بلغت 225,000 هكتار سنة 1959. وفيما يتعلّق بالمواشي فقد كانت تعدّ في سنة 1972: 260,000 رأس من الأغنام و14,000 من البقر و 20,000 من الماعز و 11,000 من الإبل. أمّا القطاع الصناعي فإنّه لا يزال في طور المخاض، وهو يشمل حوالي عشر مؤسسات صغرى (في ميادين الصّباغة والنّجارة وصناعة الحلوى والتصبير الغذائي) تستغلّ كلّها ألف شخص تقريبا. وليس من المنتظر أن يشهد هذا القطاع توسّعا كبيرا. على أنّ المنزلة الأولى في نشاط مدينة القيروان تبقى لقطاع الصناعات التقليدية. فصناعة الخشب والنحاس والحلفاء، وإنتاج المصوغ والقناديل والغرابيل، وممارسة الصّباغة والنسج التقليديّين تشغّل في جملتها 1,200 من الحرفيّين. لكنّ شهرة القيروان تعود بالخصوص إلى الصناعة اليدوية للزرابي الصوفية الكثيفة. فقد تمّ منذ مدّة إنشاء الديوان القومي للصناعات التقليدية ، ممّا سمح بتدريب وتكوين عاملات مختصات جديدات في ورشاته وبإدخال شيء من الحداثة على أشكال الزخارف. إلاّ أنّ ذلك لم يجرّد هذه الصناعة التقليدية من طابعها العائلي ومن صبغتها النسائية أساسا. فكان عدد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

«السدّايات » العائلية يبلغ 4500 آلة في سنة 1972. وتطوّر إنتاج الزرابي من 56,000 متر مربّع سنة 1962 إلى 130,000 متر مربع في سنة 1972 ، ومازال قابلا للزيادة والنموّ. لكنّ هذه الجهود كلّها لم تسمح مع ذلك بتحقيق التشغيل الكامل بسبب ارتفاع نسبة الولادات وتزايد النسل على وجه الخصوص. لذلك فإنّ ثلث السكّان الذكور النشيطين يوجدون في حالة تشغيل منقوص أو في عطول كامل عن العمل.

وتتكوّن القيروان حاليّا من «المدينة» القديمة ذات الأزقّة الضيّقة الملتوية حيث تحافظ الأسواق أو تكاد على الطابع العامّ الذي اكتسته منذ القرن الثامن عشر. وهذه «المدينة» لا تزال اليوم محاطة بأسوار ذات شرفات، مبنيّة باللّبن، تحصّن جنباتها بين المسافة والأخرى دعائم وأكتاف قائمة مستديرة. ويزيد طول هذه الأسوار على الثلاثة كيلومترات، وبغرب المدينة وشمالها الغربي تمتدّ أرباض «القبليّة» و«الجبليّة» و «جلاص»، وفي الناحية الجنوبية، بين باب الجلاّدين (أي ممارسي صناعة الجلود) - الذي أطلق عليه منذ الاستقلال اسم باب الشهداء ، وهو باب الدخول إلى المدينة القديمة - وبين محطّة السكّة الحديدية، تقع المدينة العصرية حيث توجد الدواوين الإدارية والبنوك والنّزل وغير ذلك، وقد تمّ بناء حيّ شعبي، يدعى حيّ سيدي سحنون، بالناحية الغربية. ويوجد بها حي آخر، وهو حيّ المنصورة، يحتوي على أربعمائة بيت من الطراز العصري هي على ملك أشخاص أكثر يسرا. أمّا أهمّ المعالم التاريخية بالمدينة، بالإضافة إلى الجامع الكبير، فهي جامع الأبواب الثلاثة الذي تشكّل واجهته أنموذجا جميلا من المعمار الأغلبي - وقد أقيم هذا المسجد سنة 252 هـ / 866 م. على يد محمد بن خيرون المعافري الأندلسي، وجرى إصلاحه وترميمه في القرن الخامس عشر -، ثمّ فسقية الأغالبة بباب تونس، ومقام سيدي الصاحب، — وقد كان في أوّل الأمر مقاما بسيطا وقديما جدّا يؤوي قبر أحد صحابة الرسول عليه السلام، وهو أبو زمعة البلوي. وفي ذلك الموقع قام الباي حمّودة باشا المرادي بتشييد المبنى الحالي - وكذلك مقام سيدي عمر عبادة الذي تمّ بناؤه في القرن التاسع عشر.

- **تأسيس القيروان** : كل الغزوات العربية، التي آلت إلى فتح إفريقية والتغلّب علي الروم البيزنطيّين بها، كانت في أوّل الأمر تجتهد في تجنّب الطريق الساحلية. وكان الفاتحون يدخلون البلاد عن طريق قسطيليّة (أي

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بـلاد الجريـد)، ويسعون مـن هناك إلى بلـوغ منـاطق الـوسط والشمال. وبحكم اجتنابهم في الشرق ساحل البحر- المليء بالمخاطر بالنسبة إلى جموع من الفاتحين لم تتوفّر بعـد لديهم قوّة بحريّة كافيـة - وحيادهم في الغرب عن الجبال المؤاتية لنصـب المكامن وحدوث المباغتات، فـإنه لم يكن لهم بدّ من سلوك المعبر المؤدي حتما إلى ناحية قمّـونية، أي القيروان. فهذه المدينة التي كانت في بادىء أمرها قاعدة عسكرية، إنّما نشأت كنتيجة لهذه الخطّة الاستراتيجية النـابعة من غضون تضـاريس البلاد ومن أصـول التقنيات القتاليـة التي اختارهـا الفاتحون واعتمـ ـا .وينسب تأسيسهـا عادة إلى القـائد عقبةبن نـافع. على أنّ تأسيس المدينـة قـد تمّ في الحقيقة على عـدّة مراحل، واعتراه كثير من التردّد، وساهم فيه عدد من القوّاد العسكريّين .

لقد مكّنت معركة سبيطلة (في سنة 27 هـ / 647 - 648 م) عبد اللّه بن سعد ابن أبي سرح من التحكّم عمليّا في قـيَـاد مقـاطعة المزاق البيزنطيّـة، بعد تراجع البيزنطيّين إلى ما وراء خطوطهم المَحصّنة الخلفيّة التي كانت تحمي مقاطعـة البروقنصليّة. وليس من المحـال ولا من الغريـب أن يكون أولائك الفاتحون الأوّلون قد بلغوا آنذاك في غاراتهم نواحي القيروان، قبل الانجلاء عـن البـلاد مقابل جزيـة ذات وزن وقيمـــة. بـــل انّ ابـن ناجي يشير (في **المعالـــم**، ط. تونس 1320 هـ / 1902 م، ج I، ص 30) إلى وجود مسجد بالقيروان أطلق عليه اسم ابن أبي سرح، وهو نوع من الاعتراف والاحتفاء بذكرى بلوغ الرجل تلك الرّبوع .

وفيما بعـد تـزداد الأمور وضوحا و دقّـة. فقـد قام معاويـــة بن حديج بثلاث حمـــلات على إفريقية، ذلك، على التـوالي، سنة 34 هـ / 654 - 655 م، وسنة 41 / 661 - 662 م، ثم 45 هـ / 665م. وعبر في المرّات الثلاث نفـس الممرّ الذي سلكـه سلفـه، ووصـل إلى منطقة قمّونية حيـث نـزل بجيشـــه. ويخبرنـــا بتفاصيل ذلك ابن عبد الحكم فيقـول انّ ابن حديـــج فـــي سنة 34 هـ / 654- 655 م.» افتتـــح قصورا وغنم مغانـم عظيمة واتخّـذ قيروانـا عنـد القـرن » (انظـر **الفتـوح** ط. جـزئية مع ترجمـــة لـــ أ. غاطـــو A. Gateau، الجزائر، 1948، ص 57). ونجـد معاويـــة بن حـديج نـــازلا من جديـد عنـد القرن سنة 41 هـ / 661- 662 م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، ط. كولان وليفي بروفنصال Colin et Lévi-Provençal، ليدن، 1948، ج I، ص 15). كما نجـده مرّة أخـــرى بالقرن سنة 45 هـ / 665م. (انظر المالكي،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرياض، تحـ. حسـين مؤنس، القاهـرة، 1951، ج I، ص 17 - 18 ؛ ابـن عذاري **البيان**، ج I، ص 16، ابـن ناجي، **المعالـم**، ج I ص 39-40) . وفي هذا الباب يقول المالكي إن: «ابن حديج اختطّ مـدينة عنـد القرن قبل تأسيس عقبة القيروان، وأقام بها كامل المدّة التي بقي فيها بإفريقية ». ويؤكد ذلك ابن ناجي من جهتـه فيقول : « وعند عـودته إلى قمّونّيـة ابتنى ابن حديج بناحيـة القرن مسـاكن سماها القيروان، وكـان موقـع القيروان الحالية لا يزال غيـر مسكون و لا معمـور » (**المعالم**، جI. ص41). أمّا الموضع الذي سمّاه ابن حـديج «القـرن» (أي الجبل) فهـو يستمـدّ تسميتـه من علـوّ مـوقعـه. وهو بـدون شكّ ذلك الجبيـل الصغير (على ارتفـاع 171 مترا) المعروف اليـوم ببطن القرن و الواقع على مسافـة 12 كيلومترا بالشمال الغربي من مـدينة القيـروان الحاليـة على طريـق جلولـة في مكـان يعتبر اليـوم منطقـة سياحيّة. (انظر م، صولينياك M.Solignac، **بـحوث في التجهيـزات المائيـة**، بمجلّة، A.I.E.O، الجزائر، المجلّد X، (1952)، ص 12، التعليق 10). فالاختيار الأوّل بخصـوص تأسيس القيروان وقع حينئـذ على مكـان مرتفع في مأمن من الهجومات المباغتة ومن مخاطر الفيضانات. هذا ولئن لم تحافظ «قيروان» معـاويـة بـن حـديج على دورهـا كعاصمـة لافريقية فإنهّا لم تفقـد مـع ذلك وجودهـا، واقتصـر الناس بعد ذلك على تسميتهـا بالقـرن. فبمـوقع القـرن هزم في سنـة 124 هـ/ 742م، الثائـر الخارجيّ عكاشـة علـى يـد حنظلـة ابن صفـوان والي إفريقية. وقـد ورد ذكر القـرن مرّة أخـرى في أواخر القـرن الثاني هـ / أوائل القـرن الثامـن م. (انظـر: أبو العرب، **الطبقات**، تحـ .ابن شنب، باريس، 1915 ، ص 67 ، المالكـي، **الرياض**، ج I، ص 18). ثـم لا نقـف بعـد ذلك علـى أثر لها عنـد المؤلّفين، فـلا يـذكرها البكـري ولا الإدريسي، في حـين يكتفـي ياقوت بقوله إنّ القرن جـبل بإفريقيـة (**البلدان**، ط. بيروت، 1957، ج IV، ص 333).

وفـي سنـة 50 هـ / 670 م. قام الخليفـة معاويـة مـؤسس الدولة الأمويـة بفصل إفريقيـة عن حكـم ابن حديج ليعهـد بولايتـهـا إلى عقبة بن نافع، مُقـرّا مـع ذلك ابن حديـج على ولايـة مصـر. وعندما حـلّ عقبـة بمقرّولايتـه ،، لم يعجب بـالقيروان الـذي كـان معاويـة بن حديـج بنـاه (انظر ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 64). وتذكر المصادر (ابن عبد الحكم، **الفتـوح**، ص 64 - 66، المالكي، **رياض النفـوس**، ج I ،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ص 6 ، 7 ، 19، ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 19 ـ 20 و ابن ناجي، **معالم الإيمان**، ج I، ص7- 9)، مع كثير من التفاصيل والجزئيات المشوبة أحيانا بمسحة العجائب والخوارق، كيف ركب عقبة مع مشاهير مرافقيه، وفيهم جماعة من الصحابة، لارتياد موقع جديد. فوقع اختياره على موضع سهل كان كثير الشجر والنبات تأتي إليه الهوام والوحوش. وهناك أقيمت مدينة القيروان الجديدةوقد ركّز بها عقبة فورا الجهازين اللاّزمين لتستقيم فيها ظروف الحياة الطبيعية السليمة، فبنى المسجد الجامع ودار الإمارة وجها لوجه. ثمّ ظلّ ساهرا على إقامة المدينة وتشييدها كامل مدّة ولايته الأولى ـ وهي خمس سنوات ـ ولم يخرج فيها لغزوة أو لحرب .

أمّا أبو المهاجر دينار الذي خلف عقبة في الولاية فقد «كره أن ينزل في الموضع الذي اختطّه عقبة بن نافع » (ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 68). وقد أحرق ـ فيما ذكر لنا (راجع ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 22، ابن ناجي، **المعالم**، ج I، ص 42-43) ـ ما أقامه سلفه وانتقل بالعاصمة مسافة ميلين على طريق تونس في منطقة يسكنها البربر. وقد أطلق على هذه العاصمة الجديدة ـ التي تمّ العثور على آثارها منذ عهد قريب ـ اسم « تاكروان » (انظر ابن ناجي، **المعالم**، ج I، ص 43). ويوحي الجرس البربري لهذا الاسم وكذلك المحيط العمراني الذي اختير للمدينة بالبرنامج السياسي الجديد للحكم المركّز على التقارب مع السكّان الأصليّين للبلاد، وهي السياسة التي استهلّ أبو المهاجر نهجها .ولم تَرُقْ هذه السياسة الخلافة المركزيّة، فتوجّه عقبة من جديد إلى إفريقية سنة 62 هـ / 682م. وكان أوّل ما بادر به هو إرجاع العاصمةإلى الموقع الذي سبق اختياره لها. ومنذ ذلك العهد سوف تبقى القيروان بمكانها لا تتحوّل عنه .

وتشير كلّ الدلائل إلى أنّ هذا الموقع قد كان فيمامضى مركزا لمدينة رومانية أو بيزنطية أدركها الفتح الإسلامي بعد أن آلت إلى الخراب كعدد من مثيلاتها. وقد أفادت أولى المباني التي أقامها العرب، بدون شكّ، من إعادة استخدام موادّ الآثارالمتوفّرة بكثرة على عين المكان. وهناك موّاد متفاوتة القيمة الأثرية، موجودة ضمن المعالم التاريخية أو بالمساكن البسيطة، تمّ الكشف عنها حتّى في أسس مبنى الجامع الكبير بمناسبة القيام مؤخّرا بأشغال للترميم والإصلاح (خلال السنوات 1969 ـ

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1972). وبناحية الشمال يوجد، غير بعيد عن القيروان، مكان يدعى «الأصنام» (راجع التجاني، **الرحلة**، ط. تونس، 1958 ، ص 118؛ ابن عذاري، **البيان**، ج I ، ص 58- 59)، وهو يستمد اسمه، فيما يبدو، من كثرة عدد التماثيل التي عثر عليها الفاتحون العرب هناك. ويؤكد البكري .(**المسالك** ، ط.دي سلان (de Slane) ، باريس ، 1965 ، ص 22 / 52ـ53) أنّ سوق الضرّب (أي بطحاء دار ضرب السكّة والنقود) كانت فيما مضى موقعا لكنيسة. هذا وتؤكّد المصادر بوضوح أنّ مدينة القيروان أقيمت على موقع مدينة قديمة كانت للأوائل تسمّى قونيّة أو قمّونيّة (انظر ابن عبد الحكم، **الفتوح**، ص 58، 74 ؛ المالكي، **الرياض**، ج ا، ص 12، 18، 19، 21؛ البكري، **المسالك**، ص 75 ؛ ياقوت ، **البلدان**، ج IV، ص 399، 915 ؛ ابن ناجي ، **المعالم** ، ج ا، ص 39ـ41) . وليس هناك ما يدعو إلى الشكّ في صحة هذه الشهادات التي يزكّيها ويؤكّدها العديد من الدلائل الأثرية التاريخية.

وتبقى بعد ذلك مسألة اختيار موقع المدينة. فمن الناس من يرى أنّ هذا الاختيار لم يكن موفّقا كثيرا ، ويتساءل لماذا حصل تخيّر هذا الصقع النائي من منطقة السهوب الذي لا يلائم ما تقتضيه العواصم الكبرى من تطوّر ونموّ اقتصاديّ. وقد فتح ابن خلدون هذا الباب لمن بعده فذكر أنّ العرب عرفوا « بقلّة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن » واستشهد على صحة ماذهب إليه بما حصل في البصرة والكوفة والقيروان حيث كان اختيار مواقعها بعيدا عن التوفيق والصواب (راجع **المقدّمة** ص 647). ثم جاء عدد من المؤلّفين المعاصرين فشاطروه هذا الرأي . (انظر ج. ديبوا (J. Despois) ، **القيروان : أصل وتطوّر عاصمة إسلامية قديمة**. في حوليات الجغرافيا ، مجلّد XXXIX (1930) ، ص 161 ، ب . سباغ ؛ **القيروان** ، ط.زوريخ 1963 ، ص 16). وفي الحقيقة فإن اختيار موقع القيروان لم يكن من الرداءة والفساد بحيث خيّل لبعضهم. وينبغي أن لا يغيب عنّا أنّ مدينة قديمة كانت قد ازدهرت من قبل بذلك الموقع. ذلك أنّ هذا الموضع لم يكن عند تأسيس القيروان على ما آل إليه فيما بعد من الجفاف والجدب. أجَلْ ، إنّه لم يحدث بها انقلاب مناخي، لكنّ البشر بها قد اعتراهم التغيير وبدّلوا تبديلا. فهذا ابن عذاري (انظر **البيان** ، ج ا، ص 20) يفيدنا بأنّ عقبة أصدر أمره بأن يقطع الشجر حتى يتمّ بناء المدينة. ويخبرنا البكري (انظر **المسالك**، ص 26 / 61) من ناحية أخرى بأنّ غابة زيتون

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القيروان في القرن الرابع هـ / العاشر م. كانت من الكثافة بحيث أنهّا تفي لوحدها بحاجة المدينة كلّها من الخشب دون أن يلحقها ضرر أو يمسّها نقص يذكر. كما يفيدنا ج. ديبوا أيضا (في نفس المصدر المذكور) أنّ أرض المنطقة خصبة وثريّة بفضل ما يحمله إليها وادي مرق اللّيل ووادي زرود من «طمي مخصب» فقد كان يكفي حينئذ إيجاد حلّ لمشكلة الماء. إلاّ أنّ هذا المشكل ـ الذي كان الرومان قد اهتدوا إلى طريقة السيطرة عليه ـ وجد الحلّ كذلك على أيدي العرب. فقد عثر هؤلاء ، على مسافة بضعة أميال جنوبيّ الموقع الذي اختاروه لتأسيس القيروان ، على منشأة لخزن المياه أطلقوا عليها اسم «قصر الماء»، يزوّدها مجرى مبنيّ يجلب المياه الملتقطة من العيون على بعد 33 كيلومتر غربا ، بمنطقة مامس التي تسمّى حاليا «هنشير الدويميين» (راجع صوليناك ، المصدر السابق الذكر ، ص 19 ـ 21 ـ 126 ـ 161) . وقد توقّف عقبة بن نافع بقصر الماء عند رجوعه إلى دمشق في سنة 55 هـ / 675 م. (راجع ابن عبد الحكم ، **الفتوح**، ص 68). ثم أصبح المكان بعد ذلك موضع تجمّع القوافل المتجهة إلى المشرق (انظر : أبو العرب، **الطبقات** ، ص 25 ؛ المالكي ، **الرياض** ، ج ا، ص 30 و69 ـ 70 ، ابن ناجي ، **المعالم** ، ج ا، ص 52، 147؛ ابن عذاري ، **البيان**، ج I، ص 32، 44، 259). وقد حقق العرب نهوض المنطقة بعد خرابها وأعادوا إليها سالف ازدهارها بمواصلة سياسةالريّ التي اتبعها وسلكها من سبقهم وتوسيع آفاقها. وقد كانت الآبار والمواجل ـ التي لا يكاد يخلو منها بيت أو مسجد (انظر ابن ناجي ، **المعالم** ، ج ا، ص 13ـ 25؛ البكري ، **المسالك** ، ص 23 / 53) ـ تقدّم للناس مساعدة محسوسة تضاف إلى طاقة المنشآت المائية الكبرى، وأشهرها بحقّ ما أقامته دولة الأغالبة. لذلك نرى كل الرحالين والجغرافيّين العرب ينوّهون حتى أواسط القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بثراء تلك المنطقة. وبعبارة موجزة فإنّ المنطقة التي وقع عليها الاختيار لتأسيس القيروان ـ علاوة على ما كان يتوفّر فيها من خصائص استراتيجية ـ كانت تتميّز أيضا بأنهّا قابلة للإحياء الزراعي حتّى توفّر البنية الأقتصادية الضرورية لنموّ مدينة كبرى وتطوّرها. ولم تتحوّل هذه الجهة إلى منطقة سهوب وسباسب إلاّ بسبب تقاعس الانسان وقعوده عن الجهد والعمل.

ـ **تاريخ القيروان** : اضطر أهل القيروان إلى مغادرة المدينة بمجرّد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تأسيسها. فقد أودت كارثة تهودا ، جنوبيّ بسكرة ، بحياة عقبة بن نافع مؤسّس القيروان الأوّل ، وبحياة جميع من خرج معه من أصحابه في الجيش ، فقتلوا عن آخرهم.فكانت هجرة المسلمين نحو المشرق ، واستقرّ كُسَيْلَة القائد البربريّ المنتصر بمدينة القيروان ــ وقد بقي بها بعض سكّانها من العرب المسلمين ـ واتخّذها عاصمة لملكه السريع الزوال (64-69 هـ / 684 ـ 689 م). فجاء بعد ذلك زهير بن قيس البلوي ثم حسّان بن النعمان بالخصوص ، فقاما باسترجاع المدينة.

ومرّ بعد ذلك من السنوات أربعة عقود هادئة مطمئنّة قبل أن يعود البربر من جديد إلى تهديد عاصمة المغرب تهديدا جديّا. وفي سنة 124هـ / 742 م. كانت المدينة على وشك السقوط تحت سيل جيوش الخوارج، إلاّ أنّه قد تمّ إنقاذها في آخر لحظة بفضل انتصارين غير منتظرين حصل أحدهما بالقرن والثاني بالأصنام. ولم يحالفها الحظّ سنة 140 هـ / 757ـ 758م. فاستولى عليها «الورفجومة» من الخوارج الصّفرية بإعانة البعض من سكّانها، وأخضعوها لسيطرتهم أكثر من سنة كاملة، وقضوا على من كان بها من القرشيّين، أي الطبقة الأرستقراطية من أهل المدينة. وحرّرت القيروان في شهر صفر من السنة الموالية (جوان ـ جويلية 758 م.) على يد أبي الخطّاب الإباضي القادم إليها من طرابلس. وقد استخلف بعد ذلك على ولايتها عبد الرحمان بن رستم الذي سوف يكون فيما بعد مؤسس الدولة الرستميّة بتاهرت. ولم تلبث المدينة طويلا على تلك الحال، ففي شهر جمادى الأولى من سنة 144هـ / أوت 761 م. جاء محمّد بن الأشعث فأعادها إلى جادّة الولاء للمشرق، وقام بتحصينها بأمر من الخليفة العباسي المنصور، وبنى أوّل سور حولها (وقد شرع في إقامته في شهر ذي القعدة من سنة 144هـ / فيفري 762 م، وفرغ من بنائه في رجب 146 هـ / سبتمبر ـ أكتوبر 763 م). لكنّ هذه التدابير والأشغال التي استوجبتها الأحداث المذكورة لم تجعل القيروان بمأمن من ويلات الدهر ومصائبه. ففي سنة 154 هـ / 771 م. حاصرت المدينة جموع متحالفة من خوارج البربربين صفريّة وإباضية. وقد بلغت الحال بسكّانها الى حدّ أكل «دوابهّم وكلابهم وسنانيرهم » (راجع ابن عذاري **البيان**، ج I، ص 76). ولم تجدهم المقاومة نفعا إذ تمّ أخذ المدينة عنوة بعد أن أضرمت النار في

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أبوابها وأحدثت ثغرة بسورها. وكان ذلك آخر ما أنزل بها الخوارج من المحن والمصائب، فقدم يزيد بن حاتم المهلّبي (155-171 هـ / 772-788 م). موفدا من المشرق على جناح السرعة، ومعه عدّة ووسائل، فاستعاد أمر المدينة بيده ووضع حدّا نهائيا للاضطرابات والفتن التي أحدثتها حركات الخوارج بإفريقية.

لكنّ خطرا جديدا حلّ بالبلاد، وهو خطر الجند. فأصبحت القيروان موضوع صراع بين قوّاد الجند المتمرّدين على السلطة. وفي سنة 194هـ / 810م. قام الأمير الأغلبي إبراهيم الأوّل (184-196 هـ / 800-812 م) بتهديم أسوارها وتفكيك أبوابها عقابا لها على محالفتها الجند المتمرّدين. ثمّ عادت إلى مثل صنيعها الأوّل، ففي سنة 209/ 824 م. فتح سكّان القيروان أبواب مدينتهم - وقد كانت أعيدت إلى مواضعها - لمنصور الطّنبذي. وكان العقاب في هذه المرّة جذريّا، إذ عمد الأمير زيادة اللّه الأوّل (201-223 هـ / 817-838م). إلى « هدم سور القيروان حتّى ألصقه بالأرض » (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 100) جزاء على ما اقترفه سكّانها. وبذلك أمكن للأمراء من بعده أن يحكموا في شيء من الهدوء والطمأنينة إلى زمن ظهور الدعوة الشيعية بإفريقيّة. ولم تساند قلعة المذهب السنّيّ أمراءها المهدّدين بالخطر، بل وقفت منهم موقفا سلبيا - إن لم يكن معاديا تماما - حتى خرج آخر الأمراء الأغالبة من عاصمته متسترّا تحت جنح الظّلام، واضطرّ قائد جيوشه إلى الالتحاق به تحت وابل من الحجارة .وقد زاد حكم الفاطميّين في توسيع شقّة القطيعة بين مدينة عقبة بن نافع وبين السلطة التي أصبحت إذ ذاك بأيدي أهل الزيغ والضلال. واندلعت النار الكامنة يوم 20 شعبان من سنة 299 هـ / 11 أفريل 912م ، عندما قام شجار ثمّ دارت معركة بين نفر من كتامة المفرطين في الاستعلاء والتغطرس وبين أصحاب الدكاكين من االباعة الساخطين المغتاظين ، فمات في هذه الواقعة مئات من الضحايا (راجع ابن عذاري ، **البيان** ، ج ا، ص 166؛ ابن الأثير، **الكامل** ، ط. بيروت ، 1966 ، ج VIII، ص 53). وكان لعبيد اللّه المهدي من حسن التدبير ما حمله على تهدئة النفوس والخواطر. لكنّ ذلك لم يحل دون مساندة أهل القيروان لثورة أبي يزيد النّكّاري الخارجي (332-336هـ / 943-947م). وعندما خاب أملهم بعد ذلك في نجاح هذا الثائر تخلّوا عنه ، فلم ينجهم ذلك من نزول العقاب بهم ، إذ قام المنصور ، بعد التغلّب على الثائر وقتله ، بالقبض على جماعة كبيرة من أهل القيروان وأمر بتعذيبهم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وضرب أعناقهم.ولم تلق دولة الصنهاجيّين، قبل رفضها المذهب الشيعي ، قبولا أحسن من سابقتها. بل انّ ولاية المعزّ (407 - 454هـ / 1016 - 1062م) الحكم قد جرى استهلالها بمحاولة لاغتيال هذا الأمير - حينما كان يؤدّي أوّل زيارة رسمية إلى القيروان - صحبتها ثورة رهيبة مفزعة (15 محرّم 407 هـ / 24 جوان 1016 م) عمد فيها سكّان المدينة إلى تقتيل كلّ الذين يشتبهون فيهم التشيّع، دون تثبّت أو تمييز. كما تمّ تحريق جثث الضحايا، وأضرمت النار في كلّ ما وصلت إليه أيدي المتمرّدين. ثمّ امتدت الفتنة إلى المنصورية التي عرفت بدورها التخريب والسلب والنّهب، وبالرّغم عن مساعي الحكّام في تهدئة الخواطر فقد اندلعت حركة تمرّد أخرى بعد بضعة أشهر بمناسبة مواكب عيد الفطر التي أشرف عليها المعزّ (1 شوّال 407هـ / 3 مارس 1017)، وسالت الدماء غزيرة من جديد. وجاء ردّ السلطة عنيفا في هذه المرّة، وأبيحت القيروان لنهب جند المنصوريّة، فلم ينج من النهب دكّان واحد وأضرمت النيران في الأسواق الكُبرى. وكان ذلك إيذانا بمحن أكبر ومصائب أعظم. ولئن لم يقم بنو هلال، بدون شكّ، بتخريب كلّ مدن إفريقية، فمن الثابت أنهّم دمّروا تدميرا كاملا ما كان تبقى من عظمة القيروان وشموخها. وقد شرع الهلاليّون في محاصرة القيروان منذ سنة 446 هـ/ 1054 م، فتخلّى لهم عنها المعزّ وانصرف إلى المهديّة فنزل بها في سنة 449هـ / 1057.

ومنذ ذلك العهد لم تبرز القيروان كثيرا على مسرح الأحداث. وعلى عكس بعض المدن الأخرى مثل قابس وقفصة وتوزر والمهديّة وسوسة وصفاقس، فإنّ القيروان لم تسبّب للحفصيّين أي حرج أو متاعب، ولم تظهر بها أية دولة من دول الطوائف في عهد حكمهم. على أنّ البدو الرّحّل من أعراب المنطقة قاموا بدور على الساحة السياسية، فحاولوا - بعد فوات الأوان - أن يتصدّوا لعبد المؤمن بن علي مؤسس دولة الموحّدين الذي كان قد أخضع كامل إفريقية. وهُزموا شرّ هزيمة في تلك المعركة وقتل قائدهم محرز بن زياد من قبيلة رياح (سنة 556هـ / 1061م ؛ انظر ابن خلدون ، **كتاب العبر**، ج VI ،ص 494).

وفي سنة 582 هـ / 1086-1087 قدم المنصور الموحّدي على جناح السرعة من المغرب الأقصى للقضاء على خطر بني غانية الداهم قبل استفحاله. فخرج من تونس إلى القيروان حيث نزل بجيش قبل القيام بهجومه على منطقة الحامّة وتدارك ماكان لحق عساكره في بادىء الأمر من

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

النكسات (راجع ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، ص 510). وبعد ذلك بسنوات قليلة استولى يحيى بن غانية على مدينة القيروان وكامل إفريقيّة. لكنّ هذا النصر الذائع الصيت كان عاجل الزوال، فعادت القيروان بسرعة إلى حكم الموحّدين ثمّ الحفصيّين من بعدهم. وفي سنة 669 هـ/ 1270 م. أحدث نزول لويس التاسع ملك فرنسا بقرطاج انزعاجا في جميع أنحاء البلاد. واهتزّت القيروان ــ وهي المدينة المباركة التي أسسها عقبة بن نافع ـ شوقا إلى الجهاد في سبيل اللّه . وقد كان في نيّة المستنصر الحفصي أن يتحوّل بقاعدة حكمه من تونس القريبة من الخطر الداهم إلى القيروان (راجع ابن خلدون، **كتاب العبر**، ج VI، ص 670). لكنّ الوباء الذي وضع حدّا للنزاع المسلّح حرم المدينة من هذا الشرف. وبعد ذلك بسنوات عادت القيروان إلى القيام بنوع من الدور السياسي بمساعدتها «الدعيّ» ابن أبي عمارة (681 ـ 683 هـ/ 1283 ـ 1284م) على اغتصاب الحكم. وبمبايعة القيروان إيّاه إذْ مكّنته حسب ما ذكر لنا (انظر ابن خلدون ـ **كتاب العبر**، ج VI، ص 691)ـ من تحقيق دخول كلّ من صفاقس وسوسة والمهديّة في طاعته، اقتداء بها. وقد ذكر اسم القيروان كذلك أثناء المنازعات بين الأمير أبي يحيى أبي بكر والأمير أبي ضربة (718ـ 724 هـ / 1318 ـ 1324م)، لكن أهمّ حدث جرى بها في ذلك العهد كان في شهر محرّم من سنة 749 هـ/ أفريل 1348 م. إذ انتصر البدو من العرب على أبي الحسن المريني، الذي كان غلب على إفريقيّة، وحاصروه بالقيروان (انظر ابن خلدون، **كتاب العبر**، جVI، ص 564 ، 814 ـ 816 ، 819). ولئن تمكّن من فكّ هذا الحصار والرجوع إلى تونس، فإنّ هذه الهزيمة كانت إيذانا بأفول نجمه نهائيّا وأدّت إلى جلائه عن البلاد.

وبعد ذلك لا نسمع ذكرا للقيروان حتى نهاية الدولة الحفصيّة التي تردّى آخر ملوكها في مهاوي الخزي والعار. لذلك لم يجد القائد التركي خيرالدين، الذي كان قد غلب على مدينة الجزائر، صعوبة في الاستيلاء على مدينة تونس (في 18 أوت 1534) وإعلان سقوط دولة الحفصيّين. وقد عمد هذا القائد، في جملة ما قام به من أعمال، إلى تركيز حامية من الجند بالقيروان. وفي السنة التالية أعاد شارل الخامس Charles Quint امبراطور إسبانيا الأمير الحفصي مولاي الحسن إلى عرشه (في 14 جويلية 1535) تحت الحماية الإسبانية. لكنّ جنوب البلاد، كلّه بقي خارجا عن نفوذه.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فأصبحت القيروان إذ ذاك عاصمة لإمارة مستقلّة يحكمها رجل من الأولياء الصالحين من قبيلة الشابيّة يدعى سيدي عرفة. وفي سنة 1542 حاول مولاي الحسن الحفصي إرجاعها إلى نطاق حكمه لكنّ عساكره خذلوه. وهكذا احتفظ الشابيّة بحكم المدينة حتى قدوم الرايس درغوث الذي انطلق من طرابلس، وجاء فطرد الشابيّة واحتل المدينة (يوم 3 جانفي 1558) وأقام عليها حيدر باشا واليا. وفي سنة 1574 ضمّ حيدر باشا قواته إلى قوات طرابلس لمساندةسنان باشا الذي قدم على رأس أسطول ضخم فوضع حدّا نهائيا للدولة الحفصيّة وللسيطرة الإسبانية (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ط. تونس 1963، ج II، ص 18ـ21، الذي يضع هذه الأحداث في سنة 981 هـ / 1573 م). وقد نظّمت البلاد التونسية عندئذ بشكل ولاية تركية (باشاليك) وعينّ على رأسهاحيدر باشا والي القيروان سابقا. (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ج II، ص 27) .

وفي عهد الدولة المرادية ازدادت القيروان تدهورا وأفولا. أجل، لقد أظهر حمودة باشا المرادي بعض الاهتمام بالمدينة، فقدم إلى الجهة في سنة 1631 وأطرد منها قبيلة أولاد سعيد وركّز بالمدينة حامية من «صبايحيّة الوجق ». لكن ما لبثت أن حلّت الحرب الأهلية بين علي باي وأخيه محمّد. وانضمّت القيروان إلى صفّ هذا الأخير، فأصبحت بعد اتفاق سنة 1678، الذي قسّم البلاد بين الأميرين المتنازعين ، عاصمة حكمه (انظر ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، جII ، ص 55). وقد ناوأت القيروان بعد ذلك مراد الثالث « أبا بالة » (1699ـ1702) فحاصرها وفرض عليها غرامة جماعية كبرى. ثمّ أبيحت نهبا لخليل باي طرابلس مكافأة له على محالفته ومساندته في الحرب ضدّ الجزائر. وفي السنة التالية (1701) أصدرت الأوامر إلى سكّان القيروان وأجبروا على تخريب كامل مدينتهم بأيديهم، باستثناء الجوامع ومقامات الأولياء الصالحين التي تمّ الإبقاء عليها (انظرابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، جII، ص 76). وإثر اغتيال الطاغية مراد الثالث تمكّن إبراهيم الشريف من تدارك ما حصل من أضرار. وتمّ الترخيص لأهالي القيروان في سنة 1703 بالرجوع إلى مدينتهم ورفع أنقاضها وإصلاح ما خرب منها (ابن أبي الضّياف **الإتحاف**، ج II،ص 81).

ثمّ أفاد أهل القيروان فيما بعد من عطف حسين بن علي (1705ـ 1735) مؤسّس الدولة الحسينيّة، الذي حرص بالخصوص على ترميم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المساجد والجوامع، وكانوا أوفياء له حتى النهاية.وقد لجأ حسين بن علي إلى القيروان وحاصره بها ابن أخيه علي باشا مدة خمس سنوات قبل أن يتمّ القبض عليه وضرب عنقه (في 13 ماي 1740). وتمّ في نفس الوقت شنق أربعين رجلا من وجوه القيروان وتهديم سور المدينة (ابن أبي الضّياف، **الإتحاف**، ج II، ص 112 ـ 118). وبتولية الأمير محمد الرشيد (1756 ـ 1759) ابن حسين بن علي ، حظيت القيروان من جديد برعاية السلطة وبعرفان أولاد مؤسّس الدولة، فأعيد بناء سورها ومُنحت عددا من الإعفاءات الجبائية وتحسّنت حال أهلها تحسّنا ملحوظا. ولم تجد نفس الحظوة في عهد الأمير حسين الثاني (1824- 1835)، إذ تمّ تغريم أهلها بمبلغ باهض ممّا أدّى بهم إلى الإفلاس واضطرّهم إلى بيع ما يملكون لتسديد ما فُرض عليهم. لذلك كانت القيروان ـ في سنة 1864 من أنشط مراكز ثورة علي بن غذاهم. ففي رحاب المدينة عقدت قبائل جلاص بقيادة السبوعي بن محمد السبوعي ندوة مع قبائل بني زيد والهمامّة والفراشيش، إلاّ أنّ هذه الندوة لم تسفر عن أي عمل ملموس. وبعد ذلك بسنوات، إبّان انتصاب الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية سنة 1881، نالت القيروان كذلك شرفا وفخرا إذ أنها كانت من أقوى مراكز الدعوة إلى مقاومة الدّخلاء. وقد انعقدت فيها ندوة بالجامع الكبير من 15 إلى 20 جوان سنة 1881 جمعت ممثلين عن قبائل مختلفة. وقررت هذه الندوة اللّجوء إلى باشا طرابلس لطلب النجدة والعون.وإذ لم يسفر هذا المسعى عن أية نتيجة، فقد حصل الاقتناع بأنّ كلّ عمل مسلّح منفرد هو بمثابة سعي لاطائل من ورائه، فتمّ في آخر الأمر احتلال المدينة بدون مقاومة ولاقتال يوم 26 أكتوبر 1881، وانفرد أبناء جلاص وحدهم مدّة من الزمن بالقيام ببعض عمليات المقاومة المحدودة .

ـ **الجغرافيا التاريخية** : إنّ مدينة القيروان التي كان مؤسسها يتمنّى لها أن « يعزّ اللّه بها دينه إلى آخر الدّهر » (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 19؛ ابو العرب، **الطبقات**، ص 81)، قد أدّت مهمّتها إلى حدّ لا بأس به. فهي لا تزال إلى اليوم مدينة مباركة مبرورة معظمة، لكنّها فقدت منذ قرون دورها كمدينة كبرى. وقد مرت أحيانا، كما رأينا، بأوج العظمة، كما شهدت أعظم الكوارث والمصائب .

وكان عقبة بن نافع قد بدأ باختطاط موقع المسجد الجامع ودار الإمارة.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وحول هـذين المعلمين ـ وداخـل منطـقة يبلـغ طـول محيطها 13,600 ذراع (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج.I ص. 21) أي ما يقارب 7,5 كلم ـ تمّ تقسيم الأراضي وتوزيعـها على القبـائل، مثلما حصـل من قبل بالبصرة والكـوفة ـ وقـد تمّ تأسيسـها في ظروف مماثلـة. لكنّنا لا نملك معطيـات مدقّقـة بهـذا الشـأن باستثنـاء بعض الإشـارات والتلميحـات. فنعلم مثلا (انظر البكري، **المسالك**، ص 23) أنّ بني فهر- وهم بطن من قريش ينتسب إليه مـؤسس المدينة ـ كانوا نـزلوا شماليّ المسجد الجامع في عهد هشـام بن عبد الملك (105-125 هـ / 724-743 م). وحتى في القرن الثالث هـ / التاسـع م. فإن أحـياء المدينـة قد حـافظت على طابع التقسيم المعتمد بـوضوح علـى النسب والقبيلة أو على الـدين والمعتقد . فمن ذلك مـا ذكر لنـا من وجـود حـارة يحصـب (انظـر القاضي عياض، **المدارك**، تحقيق جـزئي لمحمد الطـالبي بعنـوان **تراجم أغلبيّة**... تونس، 1968.ص71)،ورحبة القرشيّين(القاضي عياض، **المدارك**،ص369)، ودرب الفرشـاش(نفس المصدر،ص359)،وسوق اليهود(نفس المصدر،ص 359)

وقد تمّ بناء القيروان من بادىء أمرهـا بناء متينا أعيد فيه استخدام المواد المحصّلة من بقايا المباني القـديمة. وهي متوفّرة بكثرة في ذلك الموقع. وتمّ تصوّرها من أوّل وهلة ـ كما يشـهد بذلك اتساع محيطها ـ كمصر عظيم من شـأنه أن يجمع عـرب إفريقيـة كافّة، وكـانوا في بادىء الأمـر يتألّفون أساسا من الجند الفاتحين، يـرافقهم غالبا أهل بيتهم. وأغلب الظنّ أن عدد سكّان المدينة لم يكن يقلّ في الأصل عن الخمسين ألف نسمة تقريبا .

وكما كـان الشـأن بالنسبـة إلى البصرة والكوفـة من قبل، فإنّ القيروان لم يكن لها في بـادىء الأمر سـور يحميهـا، فبقيت مـاينـاهـز القـرن، مدينـة مفتوحـة على ما حـولها. ثم اضطـرتها صروف الزمـان ـ كما رأينـا ـ إلى الاحتماء منذ سنة 144 هـ / 762 م. خلف أسوار سمكهـا عشرة أذرع. (انظر البكري، **المسالك**، ص 24). وقد كانت ولاية يزيد بن حاتم المهلّبي محمودة العواقب على المديـنة، فبادر بتنظيم أسـواقها وأفـرد كـلاّ منها بصنف مـن النشـاط (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 78). وقد كـان لهذا الرجل من الشهـرة والهيبة ما حمل عددا من الشعـراء والعلماء إلى الوفود عليـه والإقامـة بجواره. وبـذلك كانت القيروان تمهّـد السبيل لكي تصبح مركزا من أهمّ مراكز الحضارة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وبلغت المدينة أوج عـزّها وازدهارهـا في القرن الثـالث هـ / التـاسع م. إذ أصبحت عاصمة مستقلّة بأمرها. وأقيم بجوارها سنة 184هـ / 800م. قصر إمارة محصّن، وهـو قصر العباسيّة. ثم تـلاه سنة 263 هـ / 877 م. قصر إمارة ثان أضخم بناء وأوسع أرجاءوأكثر فخامة وترفا، وهو قصر رقّادة. وقـد نشأ عن اتّسـاع المدينـة وتعاظم أمـرهـا شيء من الحرج لأصحـاب السلطـان. فلم تعـد المدينـة في حـاجـة إلى الحمايـة بل أصبح من الـلاّزم الاحتماء من خطرها وتوقّي شرّهـا. وترتّب عن كلّ ذلك أن فقدت القيروان أسوارها في الظـروف التي أوردنا ذكرها. أمّا مقاييس المدينـة وأبعادها إذ ذاك، فيشيـر البكـري (**المسالك**، ص 25 ـ 26) إلى أنّ «السّماط » المحـاذي للجانب الغربي من الجامع الكبير كـان طوله ـ من باب أبي الـرّبيع جنوبا إلى باب تـونس شمالا ـ مـيـلَيْنْ وثُلُث الميل، وهو ما يسـاوي (بحساب 1600 متر كمقـابل لميـل البكَـرِي) أربعـة كيلـومترات إلاّ قليـلا. ويمكن أن نفترض أنّ عـرض المدينـة كـان يعـادل طـولها. ومثل هـذه المسـاحـة يقتضـي عددا مـن السكّـان يبلغ عدّة مئـات من الآلاف وتؤكّد هذا التقرير دلائل أخـرى : فقد كانت المدينة تعـدّ ـ حسب ما يـرويه البكري دائما ـ مـا لا يقلّ عن 48 حمّامـا. وقد أحصي في إحـدى المرّات، بمناسبـة عاشوراء، عـدد الثيران التي تمّ ذبحها لسدّ حاجـة استهلاك السكّان، فبلغ ذلك 950 ثـورا. وهو مـا يمثّل مقدارا من اللّحـوم لا يقلّ عن 200 طنّ. فهل يكون مثل هذا القول من باب المبالغة فحسب ؟ وحتى إذا سلّمنا بذلك فإنّ مثل هذه الإشارة توحـي بوجود عدد لا يستهان به من السكّان بالمدينـة. ويذكر اليعقوبي ـ الذي كان يكتب في النصف الثاني من القرن الثالث هـ / التـاسـع م. ـ أنّ زائر القيروان يلقى بها أنـاسـا من مختلـف العنـاصر والأجناس. فمن عرب ينتسبون إلى قريش ومضر وربيعة وقحطان وغيرها من القبـائل، وفرس من خـراسـان، إلى بربـر وروم (لاتينيّين) وغير ذلك. (انظر كتاب **البلدان** Les Pays ترجمة ج . فيـات G.Wiet، القاهرة، 1937، ص 210). وإلى جانب المسلمين، وهم الأغلبيّة، فقـد كـان يوجـد بها يهـود ونصارى . ولقد رخّص الوالي الفضل بن روح (177-178هـ / 793 ـ 794م). بإقامة كنيسـة بالمدينـة (انظـر ابن الرقيق (منسوب). **التاريخ**، تحـ .م. كعبي، تونس، 1968، ص 185). وقد كان لكنيسـة القيروان في أواسط القرن الثالث هـ / التاسـع م. عدة رؤسـاء (عياض، **المدارك**، ص 132). وتدلّ النقائش المكتوبـة على أنّ نصارى القيروان حافظوا على استعمال الـلاّتينيّة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في كتابات شواهد قبورهم حتى القرن الخامس هـ / الحادي عشر م .
هذا ولم تعُدْ منشآت خزن المياه المقامة منذ خلافة هشام بن عبد الملك (105 ـ 125 هـ / 724ـ 743 م). كافية لكل هذه الخلائق (انظر البكري، **المسالك**، ص 26). ومن الثابت أن عدد السكّان قد استمر في التزايد في عهد الأغالبة، وهو ما يفسرّ إقامة خزّانات جديدة للمياه لسدّ الحاجات المتطوّرة. وقد كانت الفسقية العظيمة المتخذة بباب تونس من قبل الأمير أبي إبراهيم أحمد (242 ـ 249 هـ / 856ـ863م)ـ والتي لا تزال آثارها تملك إعجاب الناس إلى اليوم ـ أفخم وأضخم إنجاز بين المنشآت الأربع عشرة الأخرى المماثلة لها .

أمّا الجامع الكبير، وهو أقدم وأشهر معلم ديني في المغرب الإسلامي، فقد واكب هو أيضا نسق التوسّع بالمدينة وتجدّد مظهره. وقد اتخّذ هذا الجامع شكله وحجمه الحاليين منذ القرن الثالث هـ / التاسع م.، باستثناء بعض الجزئيات. وقد كان جدّد بناءه حسّان بن النّعمان، ثمّ تمّ توسيعه نحو الشمال وبناء مئذنته الحالية في خلافة هشام بن عبد الملك على أقرب تقدير. وجدّد بناءه بعد ذلك يزيد بن حاتم سنة 157هـ / 744 م ثم جاء الأمير زيادة اللّه الأوّل فقام بتهديم كامل الجامع، باستثناء المئذنة فيما يبدو، وأقام بناءه من جديد (سنة 221 هـ / 836 م) مع المحافظة على اتجاه جدار القبلة الذي قد كان حدّده واتخذه عقبة بن نافع، (رغم ماكان في ذلك الجدارمن انحراف نحو الجنوب يبلغ 31درجة تقريبا). وقام الأمير أبو إبراهيم أحمد بالزيادة في توسيع الجامع، وتجميله (سنة 248 هـ / 862 ـ 863 م). ومنذ ذلك التاريخ لم تدخل أشغال الترميم والتجميل المتعاقبة التي جرت بالجامع أي تغيير على شكله ومظهره العامّ. وقد أضاف إليه المعزّ بن باديس الصنهاجي (407 ـ 454 هـ / 1016 ـ 1062م) المقصورة الحالية التي عوّضت مقصورة الأغالبة المحوّلة إلى مكتبة. وقد جرت بالجامع أشغال توسيع وتجميل أخرى في عهد الدولة الحفصية، ثمّ في القرن السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر. وآخر ترميم تمّ القيام به كان من سنة 1970 إلى 1972.

هذا وقد ساعد تطوّر المدينة على نهضتها الفكرية فأصبحت القيروان في القرن الثالث هـ / التاسع م. من المراكز الثقافية الرئيسية في بلاد الإسلام. وكان الإمام مالك (المتوفّ سنة 179هـ / 795م) يعدّها، مع الكوفة والمدينة، إحدى عواصم العلوم الإسلاميّة الثلاث (راجع ابن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ناجي. **المعالم**، ج II، ص 38). وفي القيروان قام يحيى بن سلاّم البصري (124-200 هـ/ 741-815 م) قبل الطبري بزمان طويل بتأليف وتدريس كتابه في التفسير (الذي وصلنا منه بعض أجزاء : ويوجد منه مخطوطان بتونس، أحدهما بالمكتبة الوطنية برقم 7447 ، والثاني ضمن رصيد كتب مكتبة حسن حسني عبد الوهاب). وقد كان هذا الكتاب أوّل المؤلّفات الضخمة الشامخة في تفسير القرآن عند المسلمين. أمّا أسد بن الفرات (حوالي 142-213 هـ/ 759-828م) فإنّه حضر دروس مالك وأخذ عن محمد بن الحسن من أصحاب أبي حنيفة وعن عدد كبير من الشيوخ بالمشرق، ثم ضمّن الخلاصة الشخصية لكلّ ما تحصّل لديه من شيوخه في رسالته **الأسدية**.وأخذ عنه العلم عدد وافر من الطلبة الذين استمروا بعده في العمل على طريقته وفي نشر تعاليمه. وقد كان من الجائز أن يكتب لمساعي أسد بن الفرات أن تؤول إلى قيام مدرسة قيروانية متميّزة في الفقه أو مذهب قيرواني لو لم تكسفه شهرة الإمام سحنون (حوالي سنة 160-240 هـ / 777-854م)، الذي كان إمام زمانه بدون منازع، وقد أصبحت **مدوّنته** الضخمة، التي يروي لنا فيها تعاليم مالك برواية ابن القاسم، دليلا لأهل القيروان، لا ينفكّ لسانهم يلهج بذكر ما ورد فيها. وقد أقبل الناس على دروس سحنون من كلّ حدب وصوب، وجاؤوه حتى من الأندلس حيث كان يقوم بنشر تعاليمه وآرائه ما لا يقلّ عن 57 واحدا من تلاميذه المعروفين. هذا ولئن لم يترك لنا علماء اللّغة القيروانيّون مؤلّفات هامّة، فإنّ نشاط أهل القيروان في هذا الباب كان من الأهميّة بمكان، حتّى أنّه حمل أبا بكر الزّبيدي على إفرادهم بباب خاصّ في كتابه **طبقات النحويّين واللّغويّين**، (ط. القاهرة، 1954، ص 245-272). أمّا الطبّ فقد مثله عن جدارة كلّ من زياد بن خلفون وإسحاق بن عمران وإسحاق بن سليمان (انظر البكري **المسالك**،ص 24؛ ابن أبي أصيبعة، **عيون الأنباء**، ط. وترجمة أ. نورالدين وهـ . جاهييه H.Jahier الجزائر، 1958، ص 2 -9) أمّا مؤلّفاتهم فقد نقلها قسطنطين الإفريقي، منذ القرن الحادي عشر إلى اللّغة اللاّتينيّة، ودرّست بمدينة سالرنو .

ولم يكن عهد حكم الشيعة الفاطميّين مؤاتيا لقلعة المذهب السنيّ. وكانت قبائل كتامة الظافرة تطالب الحكّام، كجزاء على ما تكبّدته من متاعب في مساندتهم، بإطلاق أيديها في نهب المدينة ذات الخيرات الوفيرة. وفي نهاية الأمر، لم يلحق القيروان كبير أذى، فاستطاعت - رغم إقامة مدينة منافسة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بجوارها، وهي صبرة المنصورية (سنة 336 هـ / 947 - 948 م)، ورغم المساعي المبذولة في نقل الأنشطة التجارية من القيروان إليها - أن تحافظ على ازدهارها ومكانتها الاقتصادية، وأن تصمد في وجه عدد من الكوارث الطبيعيّة مثل الزلزال (سنة 299هـ / 911 - 912م)، وحريق الأسواق (13 ذو الحجة من سنة 306 هـ / 17 ماي 919م)، والفيضان (سنة 308 هـ / 920 - 921 م) والمجاعة والوباء (سنة 317 هـ /929 م). وقد اتفق كاتبان متعاصران في الشهادة بصمود المدينة وثباتها، وهما ابن حوقل (في كتاب **صورة الأرض**، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 94)، والمقدّسي (في كتاب **أحسن التقاسيم**، تحقيق وترجمة جزئيان لشارل بيلا Ch.Pellat، الجزائر، 1950، ص 14 - 17) بل إنّه قد تمّ إدخال تحسينات على تزويدها بالماء، إذ أنّ الخليفة المعز لدين اللّه الفاطمي قد قام فعلا ببناء قناة تجلب الماء من الجبال لتملأ الفسقيات والمواجل بالمدينة بعد المرور عبر قصر صبرة (انظر المقدّسي، **أحسن التقاسيم**، ص 15). وكان يشقّ المدينة ما لا يقلّ عن 15درب كبيرا، وصلتنا أسماء عدد منها (انظر المقدسيّ، ص 17). كما أنّ مساحتها قد زادت أيضا عن ذي قبل . ويذكر لنا المقدّسي (ص 15) أنّ « ضلع المدينة كان يساوي ثلاثة أميال إلاّ قليلا» (وهو ما يعادل 5,5 كلم تقريبا على أساس 1900 متر كمقابل لميل المقدّسي). ويمكن أن نستنتج من هذا أنّ عددسكّانها قد ازداد بصورة ملحوظة، وقد بلغت بذلك أوج أتّساعها وأقصاه .

ومنذ ذلك الوقت دخلت القيروان ــ كما دخلت إفريقية بأكملها- مرحلة الركود ثم التقهقر الحتمي الذي لامناص منه رغم ماكانت تشهده بين الفينة والأخرى من توثبات مكّنتها فقط من الاحتفاظ بشيء من المكانة والاعتبار- دون أن تعيد إليها يوما ماكانت عرفته من سالف المجد - في نطاق بلاد كتب عليها نهائيا أن تبقى ناقصة ضعيفة. وقد صاحب نقل الخلافة الفاطميّة الى القاهرة (سنة 361هـ/ 972م) امتصاص شديد لموارد إفريقية واستنزاف لخيراتها. وحمل الفاطميّون معهم إلى مصرمدّخرات الذهب والفضّة التي كانت موجودة بالبلاد. وفقدت القيروان نهائيا صفتها ودورها كعاصمة. ولم يحفل الأمراء الصنهاجيّون الأول بالإقامة فيها كثيرا، بل إنهم أنهكوا قواهم في حروب لانهاية لها بنواحي المغرب الأوسط والمغرب الأقصى. ولقد تمّ ابتزاز خيرات المدينة - وكانت لا تزال مزدهرة في أول عهد الصنهاجيّين ــ إرضاء لرغبات خليفة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القاهـــرة. وقام عبـد اللـــه الكاتب مبعوث الخليفة ونـائبه بابتزاز ما لا يقلّ عن مبلغ 400,000 دينار في سنة 366 هـ / 976-977م. أخذها من عند 600 من أعيـان المدينة، فـارضـا على بعضهم دفع 10,000 دينـار بمفرده (انظـرابن عذاري **البيان**، ج I، ص 230) وقد كان في ذلك إفـلاس العدد الأوفرمنهم. وبعد مرور بضعة عقـود من السنين عرفت القيروان سنة 395 هـ / 1004 - 1005م **القحط** والمجاعة وأصيب أهلها بوباء مهول احتفظ لنا ابن عذاري (في **البيان** I، ص 256 -257)، - فيما نقله عن ابن الرقيق — بوصف مُؤثّر له. فقد كان الموتى يدفنون بالمئات في أخـاديد جماعية. وقد اقفرّت البيوت من أهلها وتعطّلت المصالح من أفران ومخابز وحمّامات وغيرها. وخلت المدينة من السكّان وفـرّ الناس في وجوه البلاد، ووصل الهاربون نجـاة بانفسهم حتى صقليّة .

وبعد ذلك بسنوات أجبر التجّار من جديد في عام 405هـ / 1014 - 1015م. على الانتقال إلى صبرة. وإليهـا تحوّلت قبائل صنهـاجة كـذلك. وكانـت الأمور تجري كما لو أنّ بعضهم كـان يسعى جاهـدا في خنق قلعة المذهب السنيّ التي تعاورتها المحن والمصـائب من كلّ جانب فتلاشى ازدهارهـا وثراؤها وتنـاقص عدد سكّـانها، حتى أنّ طول سـورها — المتصل بمدينـة صبرة بواسطة مجاز أو معبر خاصّ - والذي سارع بإقامته سنة 444 هـ / 1052 - 1053م. الأمير المعزّ بن باديـس عندما كان مهددا يبحث عـن أسباب النجاة، لم يتجاوز 22,000 ذراع، أي ما يقـارب 10,5 كلم. (راجع البكري، **المسالك**، ص 25) . وهكذا فقد عادت المدينة تقريبا إلى حجم النواة الأصليّة التي أقرّ حدودها عقبة بن نافع. وإذا ما كـانت المعطيات المرقّمة الواردة في مراجعنا صحيحـة — وهذا أغلب الظـنّ - فيجب التسليم بـأنّ المدينة قـد تـراجعت رقعتها إلى ثلث حجم المساحة التي كانت بلغتها في أوج ازدهارها. ومعنى هـذا أنها أصبحت ، وهي على أبواب مـاكـان ينتظرهـا من المحن الكبرى ، مجرّد شبح باهت من الصـورة الزاهية التي كـانت عليها فيما مضى. لكنّ الفكـر احتفـــظ فيها مع ذلك، ولمدّة طـويلة، بشيء من الازدهـار. وقـــد واصل عـــدد من العلمـاء والمفكّريـــن مسيرتهم المشرقـــة على آثـار من سبقهـــم. فكـان منهـــم مـــن فقهاء المالكيـــة ابن أبـي زيـد القيرواني (المتوفى سنة 386 هـ / 966 م)، والقابسي (المتـوفّى سنة 403 هـ / 1012م) ومن الأشاعرة القـلانسيّ (المتوفّى سنة 359 أو 361 هـ / 969 أو 971 م)، ومن الأطبّاء ابـــن الجزّار (المتوفّى سنـــة 395 هـ / 1004 —1005 م)، ومن

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المؤرّخين ابن الرقيق (المتوفى بعد سنة 418هـ / 1028 م). ومن المنجّمين ابن أبي الرجال (المتوفّ حوالي سنة 426 هـ / 1034 ـ 1035م) ـ وقد ترجم مؤلّفه **كتاب البارع في أحكام النجوم** إلى اللّغات القطلونية واللاّتينيّة والعبريّة والبرتغاليّة القديمة ـ ومن الشعراء ابن رشيق (المتوفى سنة 456 هـ / 1064م). وابن شرف (المتوفى سنة 460 هـ / 1067 م)، وغير هؤلاء كثير. (انظر الشاذلي بو يحيى، **الحياة الأدبية بإفريقية في عهد الدولة الصنهاجية**، ط. تونس 1972). لكنّ هؤلاء الأعلام كانوا بمثابة مشاعل الختام أو مصابيح النهاية في مدينة انهارت بنيتها الاجتماعية والاقتصادية وأوشكت أن تنزل بها الضربة القاضية التي كانت تترصّدها. وقد حلت بها المصيبة فعلا بنزول بني هلال عليها وقد عمدوا إلى نهب المدينة وتخريبها في اليوم الأوّل من شهر رمضان سنة 449 هـ / 1 نوفمبر 1057 م، أي بعد مرور يومين فقط على خروج المعزّ بن باديس من صبرة والتجائه إلى المهديّة. وقد قام ابن رشيق في قصيدة مؤثرة (انظر **الديوان**، ط. بيروت، بدون تاريخ، ص 204-212) برثاء المدينة الشهيدة. وقد كان منتصف القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. منعرجا حاسما لا بالنسبة إلى تاريخ القيروان فحسب، بل وفي تاريخ إفريقيّة بأكملها، فكان نهاية عهد غلبت عليه سمات الازدهار، وفاتحة عهد آخر أقلّ تألّقا بكثير. وقد تراجعت مظاهرالحياة العمرانية والحضريّة بوضوح أمام أساليب عيش البداوة من رعي وترحال، وغلب الطابع البدوي على كامل البلاد وتغلغل في أعماقها كالآفة المزمنة حتى القرن التاسع عشر. وفي خضمّ هذا السياق الجديد المتّسم بالتدهور والانحطاط استحالت القيروان من مدينة كبرى إلى قرية بائسة من قرى السهوب، وكانت رقعتها لا تزال تضيق مع مرور الأيام بعد ما هجر أغلب ما تبقّى من سكّانها. وبعد مرور عشر سنوات على ضربة بني هلال القاضية، تمّت إقامة سور مرتجل أحاط بالجامع الكبير وببقايا أحياء المنطقة الغربية. وهذا السور الذي يكاد يحاذي رسمه السّور الحاليّ للمدينة، كان يمتد على مسافة تفوق بقليل الثلاثة كيلومترات. ويذكر الإدريسي (انظر **النزهة**، نشرة جزئية لـ هـ. بيراس H.Pérès، الجزائر 1957، ص 80) أنّ القيروان لم تعد في العهد الذي كان يكتب فيه ـ أي في أواسط القرن السادس هـ / الثاني عشر م.، قبيل قدوم الموحّدين بقليل ـ سوى « أطلال دراسة وآثار طامسة »، وإنّ ما بقي منها محاط بأسوار غير كاملة من تراب وطين، وأنهّا أصبحت في يد العرب

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

البدو الذين كانوا يأخذون الجزية والجبايات من سكّانها القلائل المعدمين. أمّا رقادة وصبرة فلم تلبثا حتى اندثرتا تماما .

وفي عهد دولة الموحّدين، ثمّ في عهد الدولة الحفصيّة على وجه الخصوص، شهدت البلاد من جديد فترة من السلم النّسبية، فأمكن للقيروان أن تنهض جزئيا من تحت الأنقاض. وخلال القرن السابع هـ / الثالث عشر م. تمّت إحاطة المدينة بأسوار أكثر حصانة بفضل جهود الأهالي. ومع انطلاق حركة الطرق الصوفيّة وازدهارها أخذت المدينة تمتلىء بمقامات الأولياء الصالحين (انظر ابن ناجي، **المعالم**، ج IV، ص 227). لكنّ سكّانها الذين أصبح معظمهم من العناصرالبدويّة المتحضّرة، كانوا أقلّ رقّة ولطفا من ذي قبل . لذلك نجد ياقوت (المتوفّ سنة 626 هـ / 1228 م. يقول في كتابه : « لم يعد يوجد بها اليوم سوى صعاليك لا خيرفيهم» (**البلدان**، بيروت، 1957، ج IV، ص 420). ولم يكن رأي العبدري فيها بأفضل من رأي ياقوت، وقد زارها متبرّكا حوالي سنة 688 هـ / 1289م. (انظر **الرحلة المغربيّة** تحـ.م. الفاسي، الرباط، ص 64، 66، 82) .

وفي الحقيقة فقد بدأت بالنسبة إلى القيروان حياة جديدة في مستوى أشدّ تواضعا وأكثر بساطة. وذلك أنهّا استطاعت في خضمّ ذلك السيّاق العامّ من التدهور المستمرّ، أن تحتفظ بمكانة محدّدة بفضل قدرتها على التكيّف مع وظيفتها الاقتصادية الجديدة. وهذه المنزلة، لئن كانت لا تتناسب حقّا مع ما شهدته المدينة في الماضي من العظمة والمجد، فهي مع ذلك منزلة محترمة إذا ما قيست بغيرها من مدن البلاد. وقد تمثّلت وظيفتها الجديدة في أن تكون سوقا و مركزا تجاريا بالنسبة إلى البدو. فكانت أسواق المدينة، بعد أن تضاءل حجمها وتمّ إبعادها نحو الغرب، تزوّد أولائك البدو ببعض الموّاد الضرورية لحياتهم مثل الجلود والأقمشة والمعادن. وكانت المدينة تتلقى في المقابل موادّ النشاط الرّعوي . وقد وصفها الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بليون الإفريقي= Léon l'Africain بعد أن زارها سنة 1516 ، أي في نهاية عهد الدولة الحفصية، فقال عنها : « لا يرى بها اليوم سوى بعض الحرفيّين المساكين أغلبهم من المشتغلين بدباغة جلود الضأن والماعز، وهم يبيعون ما يصنعونه بجلودهم من ملابس في المدن النوميديّة التي لا توجد بها أقمشة مصنوعة ببلاد النصارى » (انظر **وصف إفريقيا**، ترجمة إيبولار A.Epaulard، ط. باريس 1956، ج II، ص 398). وبعد ذلك، ولاسيّما في أوائل عهد الدولة الحسينيّة، تمالكت القيروان نفسها

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

وأصبحت تحتلّ المرتبة الثانية بين مدن البلاد. وقد تحدّث عنها في أوائل القرن الثامن عشر الوزير السرّاج (المتوفى سنة 1149هـ / 1736-1737م). فقال: «لا تعرف في هذا الزمان، بعد تونس، مدينة أكبر من القيروان في كامل إفريقية. وإنّك لتجد من بين أهلها أفضل العلماء وأبرع الناس وأحذق التجّار » (انظر **الحلل**، تحـ. الهيلة، تونس، 1970، ج Iص244). ويؤيد هذا الرأي ما كتبه ج. أ. بيصونال J.A.Peysonnel إذ قال: «القيروان مدينة من أعظم مدن هذه المملكة. وهي تقع بسهل سبخ الأرض ودائرتها نصف فرسخ. وهي تعجّ بالسكّان وتجارتها نشيطة. وقد تمّ تخريبها مرارا ثم أصلحت على أحسن وجه في عهد الباي حسين بن علي... وبها تصنع بكثرة أنسجة الصوف والبرانيس والسفساري وغير ذلك من الأصناف الخاصة بالبلاد...» (**قصة رحلة على سواحل بلاد البربر، بإذن من الملك في سنة**1724و 1725 نشر ديرودي لامال Dureau de la Malle باريس ، 1838، ج I ، ص 113؛ انظر أيضا ج I، ص 160). ويذكر ر.ل.ديفونتان R.L.Desfontaines من جهته، وكان قد زار القيروان في شهر جانفي 1784 انهّا كانت «أكبر مدن المملكة بعد تونس، بل وإنهّا أحسن بناء وأقلّ قذارة من تونس ... وتجارة القيروان تتمثل أساسا في صناعات الجلود التي يستخدمها الأهالي في وجوه متعدّدة فيصنعون منها الأعنّة والسروج والنعال الخاصة بالبلاد. كما يصنع أهل القيروان الأنسجة الصوفية المسماة « باراكان » وحياة السكّان بهذه المدينة أسعد من أي مكان آخر بسبب إعفائهم من دفع الجبايات مقابل الخدمات التي أسدوها لجدّ الباي الحالي ». (**مقتطفات من رحلة في إيالتي تونس والجزائر تمّ القيام بها من سنة** 1783 **إلى سنة** 1786، نشر ديرودي لامال. باريس، 1838، ج IIص 61). أمّا ف. غيران V.Guérin الذي قضّى بها ثلاثة أيام من 18 إلى 20 أوت 1861، فهو يعتبر أيضا أنهّا بسكّانها البالغ عددهم الإثني عشر ألفا « من أكثر مدن الإيالة سكّانا بعد تونس » (**رحلة أثريّة في الإيالة التونسية** ط. باريس، 1862، ج II، ص 334). وكانت مرتبتها قبل صفاقس التي لا يزيد عدد سكّانها على 10,000 ساكن، وقبل سوسة والمنستير والمهديّة التي لم يكن عدد سكّان كلّ منها يزيد على 5000 إلى 8000 نسمة. ومع ذلك فإنهّا أصبحت تقوم في ذلك العهد «وسط صحراء حقيقيّة لا تكاد تجد فيها شجرا كبيرا ولا صغيرا» (ف. غيران، المصدر السابق ج II، ص 326). وبعبارة موجزة فإنّ مدينة عقبة بن نافع، بالرغم

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

عن تدهور أحوال منطقتها الخلفية من الأراضي، قد برهنت على كلّ وحتّى زمن انتصاب الحماية، عن قابليّة للحياة والاستمرار تفوق قابليّة عدد من المراكز الأخرى ذات الموقع الأفضل .

هذا ومن الثابت المؤكّد أنّ قدرتها على البقاء والدوام متصلة بمالها من إشعاع روحي وديني. فقد كانت « بما يناهز الخمسين «زواية» والعشرين مسجدا» (كما يقول ف. غيران في المصدر السابق، جII، ص 328)، العاصمة الروحية للبلاد بلا منازع في منتصف القرن التاسع عشر. وكانت تعتبر إذ ذاك مدينة مقدّسة يحجّر دخولها مبدئيا على غير المسلمين. أمّا اليوم فإنهّا لم تعد على تلك الدرجة من القداسة، وقد أصبحت معالمها الدينية مفتوحة بكل حريّة في وجه السيّاح. وقد أصبحت مدينة عقبة تأتي في المرتبة الخامسة بالبلاد من حيث عدد السكّان، وهي أقلّ عواصم الولايات تجهيزات. لكنّها مازالت تمتاز مع ذلك بنوع من الهالة وتجلب إليها أجلّ الضيوف وأشهر الزوّار. وعندما يجري اليوم ذكر وحدة بلدان المغرب العربي فإنّ من الناس من يرى أنّ «عاصمة هذا الاتحاد الفدرالي بين دول المغرب المستقلة ينبغي أن تكون مدينة القيروان وهي العاصمة الروحية للمسلمين بهذه الربوع منذ قرون. وقد يكون في ذلك رمز لاسترجاع العالم الإسلامي سالف أمجاده»(انظر صحيفة **لابريس** بتاريخ21 / 9 / 73، جريدة يوميّة تصدر بتونس).

ثبت المراجع

إنّ مصادر هذا الموضوع أكثر من أن يتمّ الإحاطة بذكرها جميعا. وقد سبقت الإشارة إلى أهمّ هذه المصادر في أثناء هذا البحث .

ـ **الدراسات** : بالإضافة إلى ما ورد ذكره في صلب نصّ هذا البحث فإنّه تجدر الإشارة إلى :تـ . البشروش، **حكم البايات المراديّين في القرن السابع عشر**، أطروحة دكتوراه مرحلة ثالثة. أكس اون بروفونس 1973، ص 15، 19، 115- 116،137،142؛ جاك بارك، **الجديد عن بني هلال**، بمجلّة S.I.. ، مجلّد XXXVI (1972) ص 99 ـ 113؛ ر.برانشفيك R. Brunschvig، **بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الحفصية**، ط. باريس. 1947، ج I، ص 357 ـ 376 ؛ كلود كاهن Claude Cahen **بعض كلمات عن الهلاليّين والبداوة**، بمجلة JESHO مارس 1968، ص 130 ـ 2 13 أ. صياسي A.Çayaci **المسألة التونسية والسياسة العثمانية** 1881 ـ 1913). ط، نوشاتال، 1963،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفهارس، (ترجمة عربيّة . عبد الجليل التميمي، ط. تونس 1973، الفهارس)؛ النابلي والمحجوبي وسالنصن Salomonson **المقبرة الرومانية برقّادة**، ط. تونس، 1971 ، في مجلّدين؛ ب ، فاغو P. Fagault ، **تونس والقيروان**، ط. باريس، 1889 تدوين وقائع رحلة تمت سنة 1887، ص 216 ، 282 : ج. غانياج J. Ganiage **أصول الحماية الفرنسية بتونس** (1861 ـ 1881)، ط. باريس، 1959، الفهارس؛ هـ. ر. إدريس H.R.Idriss، **بلاد البربر الشرقية في عهد الدولة الصنهاجية** ـ القرن XXII ط. باريس، 1962، ج II، ص 411 ـ 428؛ نفس المؤلّف، في **حقيقة الكارثة الهلالية**، حوليات E.S.C مجلد XXIII (1968) ص 390 ـ 396 ؛ نفس المؤلف، **الزحفة الهلالية ونتائجها**، في Cah. de Civ. Médiévale ج XI، 3 (1968)، ص 353 ـ 371؛ أ. ليزين A.Lézine : **تقييدات عن آثار افريقية**، ج I : **المثال القديم لمدينة القيروان** (مع ضرورة الاحتياط في استخدام هذا المرجع)، ج II : **حول باب قديم من أبواب الجامع الكبير بالقيروان**، في مجلّة الدراسات الإسلامية R.E.I المجلّد XXV (1967)، ص 53 ـ 77؛ أ. **ليزين** وب . سباغ P.Sebag ، **ملاحظات حول تاريخ الجامع الكبير بالقيروان**، في مجلة معهد الآداب العربية IBLA . عدد 99 (1962) ص 245 ـ 256؛ ديك دي لونلاي Dick de Lonlay، **في تونس، ذكريات سبعة أشهر ضمن الحملة العسكرية**. (ط. باريس، 1882، إعادة طبع سنة 1938، ص 251 ـ 325؛ عمار المحجوبي، **شهادة جديدة في النقوش الأثرية عن المجموعة المسيحية بالقيروان في القرن الحادي عشر**، في مجلة أفريكا Africa المجلد I ط، تونس، 1966)، ص 85 ـ 105 ؛ ج. مارسي G.Marçais ، **تونس والقيروان**، ط. باريس، 1937؛ نفس المؤلّف، **الفنّ المعماري الإسلامي بالمغرب العربي**، ط. باريس، 1954، الفهارس ؛ مارسي ول. بوانصو L.Poinsot، **مواد قيروانية من القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر**، في كتيبين، ط. تونس، 1948 ـ 1952؛ أ.مارتال A.Martel، **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881 ـ 1911)، ط .باريس، 1965، الفهارس؛ ش. مونشيكور Ch.Monchicourt، **دراسات قيراونية**، في المجلّة التونسية R.T 1931 ـ 1936، ب. بوني P.Penet **القيروان وسبيطلة والجريد، دليل مصوّر للسياح في الجنوب الغربي التونسي**، ط. تونس، 1911 ، ص 1 ـ 41 ؛ ج. بونسي J.Poncet. **أسطورة «الكارثة» الهلاليّة**، في حوليات E.S.C، المجلّد XXII (1967) ، ص 1099 ـ 1120؛ ب . روا B.Roy و لـ بوانصو، **النقائش العربيّة بالقيروان**، في كتيبين. ط.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باريس، 1950 ـــ 1958؛ هـ. صالادان H.Saladin، **تونس والقيروان**، ط. باريس، 1908، ص 98 ـ 140؛ محمد الطالبي، **الإمارة الأغلبية**، ط. باريس، 1966، الفهارس؛ نفس المؤلّف، **القيروان والمذهب المالكي الأندلسي**، في مجموعة الدراسات الاستشراقية، ليفي بروفنصال، ط. باريس، 1962، ج I، ص 317- 337 ؛ فؤاد سعد زغلول، **تاريخ المغرب العربي**، ط. القاهرة، 1965، الفهارس؛ ع. الزغل، **تعصير الفلاحة والسكّان شبه الرحّل**. ط. لاهاي، 1967، ص 27 ـ 31، 64 ـ 78 ؛ **وضعية التشغيل في ولاية القيروان**، نشرية مرقونة أصدرتها وزارة التخطيط، تونس، فيفري 1973.

(*) تعد ولاية القيروان 421.607 ساكن حسب تعداد 1984.

(**) تعد مدينة القيروان 72.254 ساكن حسب تعداد 1984.

(***) أقيم سد « وادي زرود » سنة 1976.

(****) تم بناء سد « وادي مرق الليل » سنة 1978.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

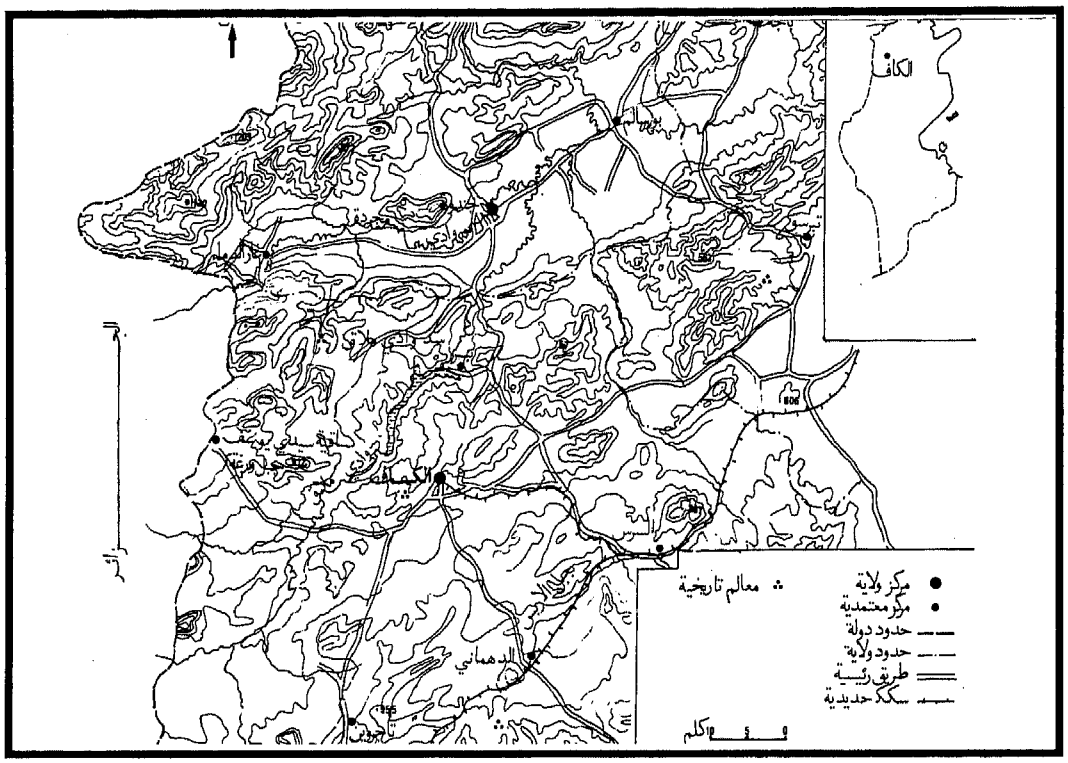

الكـــــاف

الكاف مدينة من مدن البلاد التونسية (تعدّ 18,000 ساكن)، وهي عاصمة لولاية تشمل 306,000 نسمة (حسب إحصاء 3 ماي 1966)*. وتقع الكاف بمنطقة التلّ العالي على مسافة حوالي ثلاثين كيلومترا من الحدود الجزائرية وعلى ارتفاع يتراوح بين 700 و 850 مترا. ومنذ سنة 1962 جرت محاولة لتعويض الفلاحة المفردة التقليدية المركّزة على زراعة الحبوب دون سواها بتلك الجهة بفلاحة تعتمد مزيدا من تنويع الزراعات المختلفة. إلاّ أن تجربة التجميع التعاضدي للأراضي قد تمّ التخلّي عنها ابتداء من شهر سبتمبر 1969. وقد كانت المدينة أيضا موضع جهود ذات بال بُذلت في مجال التعمير والبناء وفي ميدان النهوض الثقافي . وفي نطاق هذه المساعي أصبح يقام

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

بهذه المدينة مهرجان خاص بالقائد البربري «يوغرطة» الذي أضحى بمثابة البطل لهذه المنطقة .

- **تاريخها** : هذا ومن الثابت أن موقع مدينة الكاف كان معمورا منذ العهد الحجري الأول. لكننا لا نعلم بالتحديد متى تمّ تأسيس المدينة نفسها. وهي بدون شك من المنشآت اللوبية أو البونية. وقد وَرَد ذكر اسم المدينة لأوّل مرّة في النصوص القديمة سنة 241 قبل الميلاد في معرض الحديث عن الجند المرتزقة الذين وجّهتهم إليها قرطاج على إثر الحرب البونية الأولى بقصد إبعادهم وحماية العاصمة من خطرهم المهدّد.. وقد كان اللاتينيون يطلقون على هذه المدينة اسم « سكّا فينيريا » Sicca Veneria تعظيما لاحدى الإلهات البونيات التي تمّ تقميصها شخصية « فينوس » إلاهَة الحبّ. ويبدو من الثابت، ان معبد هذه الآلهة كان مركزا لتعاطي طقوس الخناء الشعائري. وأثناء حكم الامبراطورية الرومانية أطلق على المدينة اسم. «كولونيا جوليا سيرتا نوفا » Colonia Julia Cirta Nova ثم دخلت في حكم المسلمين تحت اسم « شقّة بَنَارية » (وهو تحريف لعبارة سكّا فينيريا)، وبقي هذا الاسم يُطلَق عليها باستمرار في النصوص العربية إلى نهاية العصر الوسيط. ولم يكن ابن خلدون (المتوفّ سنة 808 هـ / 1406 م) يعرف لها غير هذا الاسم. وقد ظهر اسم الكاف لأوّل مرّة عند المؤرّخ ابن أبي دينار، الذي كان يكتب حوالي سنة 1110 هـ/ 1698 - 1699 م، وعند الوزير السرّاج (المتوفّ سنة 1149 هـ / 1736 ـ 1737 م) الذي رأى من اللازم عند استشهاده بكلام ابن الشبّاط في سياق الحديث عن شقّة بنارية أن يؤكّد أن « هذه المدينة هي التي تسمّى اليوم الكاف» (انظر **الحلل** ج I / II ، ص 525)، ممّا يدلّ على أن الاسم القديم قد كان دخل تماما في طيّ النسيان . وقد يكون هذا التغيير في التسمية حدث مع حلول العهد التركي (1574) الذي مكّن المدينة من تحقيق انطلاقة جديدة. هذا وينبغي أن نشير أخيرا إلى أنّه يوجد بالبلاد التونسية ماينا هز العشرين موقعا تحمل أسماء يدخل في تركيبها لفظ « الكاف » (انظر ر. فوفراي R.Vaufrey، **افريقيا قبل التاريخ**، فهارس المجلّدين I و II ؛ ل. بالوت L.Balout، **افريقيا الشمالية قبل التاريخ**، الفهارس؛ ج. غانياج (J. Ganiage)، **أصول الحماية الفرنسية بتونس**، ص 35 ـ 62؛ **الدليل الازرق للبلاد التونسية**، الفهرس). وقد ورد ذكر موقع باسم «الكيفان» (جمع كاف) بالقرب من مدينة فاس (راجع الحسن بن محمد

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الفاسي Jean-Léon l'Africain، **وصف افريقيا**، ج I، ص 229 التعليق رقم 270) كما يذكر ياقوت الحموي (**معجم البلدان**، ج IV، ص 431) قلعة ببلاد الشام تحمل اسم الكاف، وهي بدون شك تلك التي يسميّها ابن خلدون « الكهف » (راجع **كتاب العبر**، ج V، ص 842) والتي افتكّها السلطان الظاهر بيبرس (658ـ676 هـ / 1260ـ1277م) من الاسماعيليين. ويتبينّ من هذا أنّ تسمية الكاف كانت شائعة جدّا . وهي بدون شك تحريف اللّفظة العربية كهف (أي غار) بسقوط حرف الهاء الهوائي. وقد جرى إطلاق هذه التسمية على كل تجمّع سكني يقام في موقع كهوف ومغارات ولا سيّما إذا كان ذلك الموقع مرتفعا. ومن هذا الوجه فإنّ مدينة الكاف تستحق اسمها بكل جدارة. وهذا ما يقوله عنها الكاتب تيسو Tissot في كتابه **الجغرافيا المقارنة** ...ج II، ص 378 : « هذه المدينة المستقرّة فوق واحد من أوّل المرتفعات في كتلة جبلية متلاحمة يمكن اعتبارها بحقّ قلعة طبيعية، تشرف على السهول الكبرى للسرّس وزنفور والأربص ووادي ملاق، كما تتحكّم في إحدى الطرقات الرئيسية الرابطة بين مدينة تونس والبلاد الجزائرية» .

وقد شاع ذكر هذه « القلعة الطبيعية » في أيام حرب القائد البربري يوغرطة الذي اتخذها حصنًا من حصونه. وإثر دخولها في حكم رومة، تمّ رفعها إلى مرتبة «مستعمرة » فشهدت ازدهارا حقيقيا في عهد الامبراطورية الرومانية، وكان لها بعض الإشعاع في الفترة التي كان ارنوب دي سكّا Arnobe de Sicca العالم بأساليب البلاغة (والمتوفّ حوالي سنة 327م) يدرّس بها. وتحتفظ الكاف من ماضيها القديم بالعديد من الآثار المعروفة اليوم (مثل كنيسة دار القوس المقامة تقربا للقديس بطرس، وعدد من الفسقيات الكبرى، والتماثيل المختلفة، والكتابات والنقوش ولوحات الفسيفساء، وغير ذلك). هذا وقد سمحت الحفريات التي أجريت مؤخرا باكتشاف معالم أخرى (كنيسة بيزنطية، وحمامات، وغيرها) لم يتمّ بعد نشر دراسات عنها. أمّا المسجد الجامع بالمدينة فهو ليس سوى معلم قديم تمّ إدخال تحوير طفيف عليه بإضافة مئذنة ومحراب .

وفي عهد دخول الإسلام إلى المغرب، تمّ فتح مدينة الكاف (حوالي سنة 69 هـ / 688 - 689 م) وعدد من المراكز الأخرى بالمنطقة على يد زهير بن قيس البلوي بعد انهزام كسيلة بمامس (انظر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المالكي، **الرياض**، ج I، ص 30؛ ابن الشبّاط، **صلة السمط**، مخطوط بالمكتبة الوطنية بتونس، رقم 3208، الورقة 82 ـ ظهر، والورقة 83 ـ وجه) ومنذ ذلك العهد، وعلى مدى العصر الوسيط كلّه تراجعت أهميّة مدينة الكاف ونزلت مرتبتها فتقدمت عليها الأُرْبُص التي أصبحت أهمّ قاعدة محصّنة وأقواها بالجهة كلّها. وإنّا لنجد الحسن بن محمد الفاسيJean Léon l'Africain لا يزال يتغنّى في أواسط القرن السادس عشر بمحاسن الأربص، التي لم يبق منها اليوم سوى آثار خربة على نحو ثلاثين كيلومترا شرقيّ الكاف، في حين أغفل ذكر هذه المدينة تماما.ولم يتحدث عن الكاف أيّ واحد من الرحّالة والجغرافيين العرب قبل البكري (المتوفّ حوالي سنة 461 هـ / 1068 م)، على أن البكري نفسه لم يذكرها إلاّ عرضا في سياق الحديث عن أسطورة دارت أحداثها في العهد المسيحي القديم، وكان ضحيتها أحد الشمّاسين من البربر. أما ياقوت الحموي (سنة 574ـ626هـ / 1178ـ1229م) فإنّه قد أقرّ بجهله إذ قال، (**معجم البلدان**، ج Z354. III) : « شقّة بنارية : أماكن بافريقية » .

هذا وقد ظل الأمر كذلك حتى جاء ابن الشبّاط (سنة 618ـ681 هـ / 1221 ـ1282م) فقدّم لنا وصفا لمدينة الكاف في العصر الوسيط، كان الوصف الأوّل والوحيد من نوعه. وممّا تجدر الإشارة إليه أن هذا الكاتب قد قصر اهتمامه في هذا الحديث على أطلال المعالم القديمة بالمدينة، التي تشهد بما كان لها في الماضي من عظمة وعلوّ شأن .

وقد كانت الكاف، رغم كسوفها وخمول ذكرها، تعود من حين الى آخر لتساهم في أبرز أحداث العصر الوسيط. ففي سنة 171 هـ / 788 م مني فيها الخوارج الإباضيون بهزيمة ساحقة في ولاية داود بن يزيد المهلّبي. وفي 21 من شهر جمادى الثانية سنة 296 هـ / 17 مارس 909 م كان سقوطها بدون قتال في قبضة الداعي الفاطمي ممهّدا للانكسار النهائي للجيوش الأغلبية التي تمّ سحقها بالأربص. وفي أيام الدولة الصنهاجية كان لمدينة الكاف دور في ما قام بين الأمير باديس (386 ـ 406 هـ / 996 ـ 1016) وبين عمّه حمّاد من صراع وفتن. وفي زمن زحفة بني هلال على البلاد (سنة 443هـ/ 1052 م) استولى على مدينة الكاف شخص يدعى عياد (أو عباد أو عماد) ابن نصر الكلاعي كان على رأس مجموعة من المغامرين، وجعل منها قاعدة لإمارة صغيرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

استطاعت أن تثبت طويلا في وجه مناوئيها. وفي سنة 554 هـ / 1159 م، فتحها الموحّدون وأطردوا منها أخلاف الكلاعي، وذلك في نطاق سعيهم الشامل لتحقيق وحدة المغرب. هذا ولم يرد ذكر الكاف في أيام الدولة الحفصية إلاّ بمناسبة الحديث عن معركة دارت بجوارها فيما يبدو خلال صيف سنة 724 هـ / 1324 م .

وينبغي أن ننتظر العهد التركي لنشهد مدينة الكاف تعود من جديد إلى صفحة الأحداث وطليعتها. فقد عهد إليها بمهمة الدفاع عن الإيالة التونسية من الغارات الجزائرية والوقوف في وجه قسنطينة. وهكذا شاركت مدينة الكاف، في كلّ الحروب والمعارك، سواء منها تلك التي تجابه فيها التونسيون والجزائريون (سنوات 1628 و 1685 و 1694 و 1705 و 1746 و 1756 و 1807)التي تصارع فيها الأمراء المتنازعون على الحكم بتونس، وقد تمّ بناء قصبة بالكاف سنة 1675، وجرى تعهدها بالزيادة في التحصين باستمرار وقام علي باشا سنة 1739 ـ 1740 بإقامة سور حول المدينة. وفي سنة 1806 عمد الباي حمودة باشا (1782 ـ 1813) الى تجديد بناء القصبة وتحصين سور المدينة. وأثناء مدة حكم هذا الباي كانت مدينة الكاف ـ مع تونس والقيروان وباجة ـ رابعة أربع من المدن المحصّنة الرئيسية بالمملكة، كانت كلّ واحدة منها تملك حامية عسكرية قارّة لا يقلّ عدد جنودها عن 500 رجل يقودهم آغا. على أن المدينة لم تلبث أن فقدت كل قيمة استراتيجية، وفعلا فبنزول الفرنسيين بقسنطينة سنة 1837 لم يبق لتحصينات الكاف جدوى ولا مبرّر.

ومنذ ذلك التاريخ أخذت المدينة في التقهقر والتدهور وقد قال عنها غيران V.Guérin الذي زارها بين 8 و 10جوان من سنة 1866 ما يلي : « منها حيّان في شبه خراب، وهما خاليان من السكّان إلاّ في القليل النادر، ممّا يجعل عدد سكان المدينة نصف ما قد يذهب المرء إلى تقديره لأوّل وهلة. وجملة عدد ساكنيها 4500 من المسلمين يضاف إليهم 600 من اليهود وبعض المالطيين، وكذلك الأعوان الحاليون لجهاز التلغراف الفرنسي» (**الرحلة**، ج II ص 53-54). وفي سنة 1864 امتدّت إلى مدينة الكاف ثورة علي بن غذاهم. ولم تسلم أيضا من ويل المجاعة ووباء الكوليرا سنة 1867 وقد زاد في تقهقر المدينة مدّ السكة الحديدية بين تونس وسوق الاربعاء (جندوبة حاليا) فجرّدت الكاف من دورها التقليدي كمحطة للتبادل

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

التجاري بين البلاد الجزائرية والبلاد التونسية. واستمرّ تناقص عدد سكّان المدينة، كما ذكر مونشيكور Monchicourt في كتابه **منطقة التلّ العالي**، ص 408 إذ قال إن « مساحتها البالغة 45 هكتارا في سنة 1881 والتي كانت تحتضن فيما مضى 8000 شخص، لم تعد تؤوي سوى 3500 نسمة» وقد تمكن الجنرال لوجرو Logerot إبّان انتصاب الحماية الفرنسية على البلاد التونسية من الاستيلاء على المدينة بدون قتال يوم 26 فيفري 1881. وبعد مرور ثلاث سنوات على ذلك أقيمت بها في شهر جوان 1884 أوّل مدرسة فرنسية خارج العاصمة. وفي 8جويلية من نفس العام تمّت ترقية المدينة إلى مرتبة منطقة بلديّة. وانطلاقا من سنة 1886 أصبحت الكاف مقرّا لمراقب مدني فرنسي إلى جانب «العامل» أو «القايد» التونسي. وهذا الاحصاء البلدي لسنة 1911 يكشف لنا عن ملامحها الجديدة وعن التحسّن الذي بدأت تشهده. فقد كان عدد سكانها حينذاك 6312 وكانوا موزعين على النحو التالي : 4462 مسلما منهم 269 جزائريا، و 650 يهوديا، و 1200 أوروبي منهم 800 إيطالي و 340 فرنسيّا. وخلال الحرب العالمية الثانية أصبحت الكاف مقرّا لمقيم عامّ مساعد يدير شؤون المنطقة التي لم يقع احتلالها من قبل قوّات المحور.

هذا ولا تزال توجد عدّة مقامات للأولياء الصالحين بمدينة الكاف التي كانت تعدّ في الماضي معقلا من معاقل الطرق الصوفية. لكنّ التأثير السياسي والاجتماعي لهذه الطرق لم يبق اليوم منه شيء ممّا كان له في الماضي من قوّة وشأن .

ثبت المراجع

ـ **مصادر** (مرتبة ترتيبا زمنيا) : المقدسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ. مع ترجمة جزئية لشارل بلاّ Ch. Pellat بعنوان **وصف المغرب** Description de l'Occident. الجزائر 1950، ص 18 / 19؛ المالكي، **الرياض**، تحـ. حسين مؤنس، القاهرة، 1951، ج I . ص 30 ؛ البكري، **المسالك**، تحـ. وترجمة دي سلان De Slane باريس 1965، 33 / 74 ، ياقوت، **معجم البلدان**، مادة الكاف؛ ابن الشباط **صلة السّمط**، مخطوط رقم 3208 بالمكتبة الوطنية بتونس، الورقتان 82 (ظهر) و 83 (وجه)؛ صفي الدين البغدادي، **مراصد الاطلاع**، تحـ. علي محمد البجاوي، القاهرة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

1954، ج II ، ص 305؛ **كتاب الاستبصار**، الاسكندرية 1958، ص 165؛ الرقيق القيرواني (منسوب) **تاريخ افريقية والمغرب**، تحـ. م. الكعبي، تونس 1968، ص 68، 169؛ ابن خلدون، **كتاب العبر**، بيروت 1959، ج V، ص842 ج VI ،228 ، 349 ، 401 ، 494، جان ليون الافريقي Jean léon l'Africain (= الحسن بن محمد الفاسي)، **وصف افريقيا**، ترجمة الى الفرنسية عن اللاتينية، أ ـ ابيولار A. Epaulard باريس 1956 ، ج I، ص 229، التعليق 270 ، ج II ص 373؛ ابن أبي الدينار، **المؤنس**، تحـ. م. شمام. تونس 1967، الفهارس؛ الوزير السرّاج، **الحلل**، تحـ.م. ح. الهيلة . تونس 1970 . ج ا، ص 2 ، 525 ـ 526، ج . ديبون G; Dupont ، **قصة رحلة من تونس الى الكاف سنة** 1944، في مجلة افريقيا الفرنسية، عدد 50 (اكتوبر1888)، ص 341ـ344و عدد 51 (اكتوبر 1888)، ص 352ـ360؛ ابن أبي الضياف، **إتحاف أهل الزمان**، ط. تونس 1963 ج II ، ص 33، 48، 51، 53، 58ـ 60 ، 83 ، 123 ، 129 ، 148ـ 149، ج III 39، 41ـ 42 45 - 46 ، 85؛ ف، غيران V.Guérin **رحلة أثرية في الايالة التونسية**، باريس 1862، ج II ص 53 ـ 54 ـ 57؛ ر. كانيا وصالادان R.Cagnat et Saladin، **رحلة بالبلاد التونسية**، باريس 1894، ص 200- 219 ،

ـ دراسات : ر. برانشفيك R.Brunschvig، **الدولة الحفصية**، ج I، ص 145 ، 302 ؛ ب .ل. كامبيزا P. L. Cambuzat ، **تطوّر مدن التلّ بإفريقية من القرن السابع الى القرن ـ الحادي عشر** (أطروحة مرحلة ثالثة) ج I، ص 173، 227، 247، 322، ج II ، ص 337 ـ 343؛ ب. سنطاس P. Cintas، **عناصر لدراسة التاريخ البدائي للبلاد التونسية**، ط. باريس 1961، ص 8 ، 25 ، 125؛ ش. ديل Ch. Diehl، **افريقيا البيزنطية**، ط. باريس 1896، الفهرس؛ أ.اسبراندي E. Espérandieu ، **النقوش الأثرية بنواحي الكاف**، ط، باريس 1984 ؛ نفس المؤلف، **دراسة عن الكاف** ط، باريس 1889؛ ج. غانياج (J. Ganiage)، أصول الحماية الفرنسية بتونس (1861 ـ 1881). ط.باريس 1959، الفهارس؛ س. غزال (S. Gell) **التاريخ القديم لافريقيا الشمالية**، ط. باريس 1913ـ1928، ج II، ص 96، ج V. ص 31ـ 192، 266، ج VI، ص 156، 249، ج VII، ص 190، 197؛ ج VIII، ص 168، 197؛ هـ، ر، ادريس (H.R.Idriss) **الدولة الصنهاجية**، ص 110، 232، 235، 399، 471؛ ش. أ. جوليان (A. Julien) **تاريخ شمال افريقيا** باريس 1956، ج I، ص 116، 157، 170، 209 ؛ ع. مخلوف **الهياكل الزراعية وتعصير الفلاحة في سهول الكاف** :

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الوحدات التعاضدية للانتاج، في مجلة كراسات مركز الدراسات والبحوث الاقتصادية والاجتماعية، سلسلة الجغرافيا، العدد I، تونس 1968؛ أ. مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسية للبلاد التونسية** (1881-1911)، ط. باريس 1965، الفهارس؛ ب . مونصو P.Monceaux **التاريخ الأدبي لافريقيا المسيحية من البدء الى الفتح العربي**، ط. باريس 1905، ج ص 241 - 286؛ س. مونشيكور C.Monchicout **منطقة التلّ العالي بالبلاد التونسية**، ط. باريس 1913، ص 403 - 414 ب رومانيلي P.Romanelli، **تاريخ المقاطعات الرومانية بافريقيا**، ط. رومة 1959 ، الفهارس؛ م. سبايت M. Speight **شهادة المصادر الاسلامية على الوجود المسيحي بالمغرب العربي من سنة 26 / 747 الى سنة 184 / 800** ، في مجلة IBLA، تونس 1972، العدد 129، ص 83-86؛ محمد الطالبي، **الدولة الأغلبية**، ص 678، 680 ؛ ع. التميمي **بحوث ووثائق عن تاريخ المغرب العربي**، ط. تونس 1971، ص21 ، 24 ، 93 ، 212 ؛ ر.فوفراي R.Vaufrey، **عهد ما قبل التاريخ بافريقيا**، ط. باريس وتونس 1965-1969، فهارس المجلدات I و II

(*) تعداد سنة 1984 لسكان الكاف : 34.509 نسمة (المرجع «هذه تونس». نشر كتابة الدولة للإعلام - سنة 1990- التحرير).

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

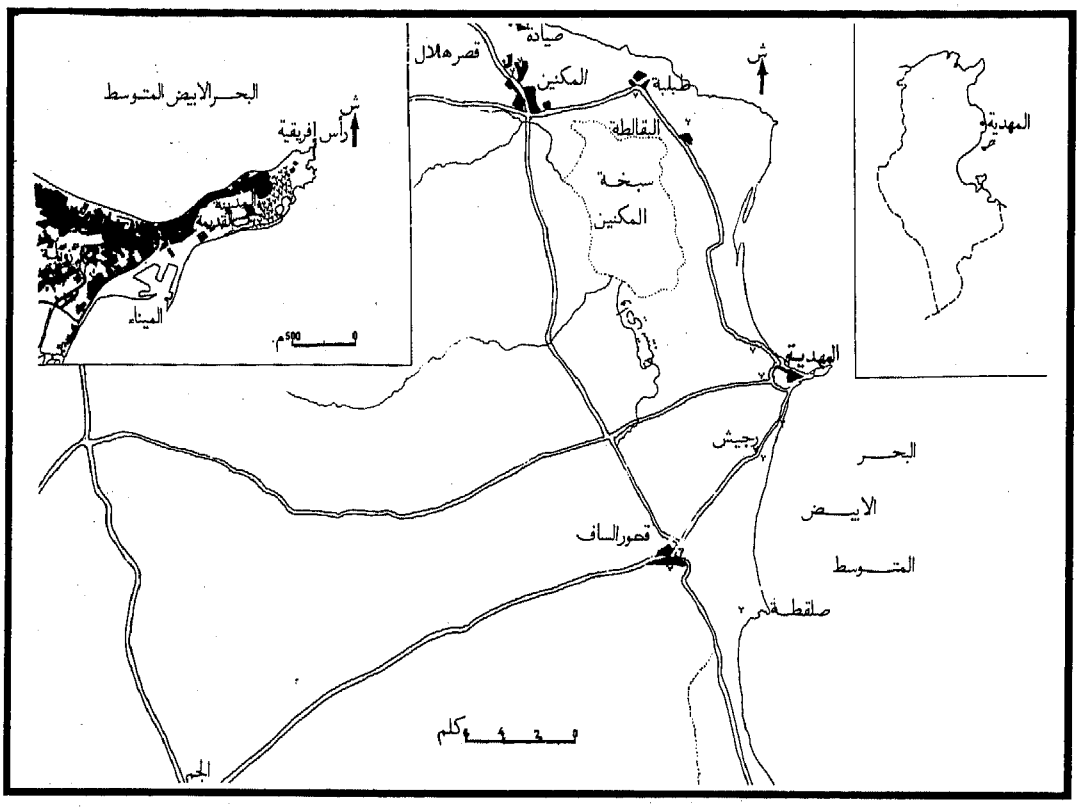

المهدية

المهدية، مدينة بالبلاد التونسية استمدّت اسمها من مؤسسها عبيد الله المهدي (سنة 297 ـ 322 هـ / 909 ـ 934 م). وتقع هذه المدينة على ساحل البحر، على مسافة 200كيلومتر جنوبي مدينة تونس. وهي مركز لولاية بلغ عدد سكانها 218,000 نسمة في إحصاء سنة 1975، وأصبح يقدر بـ 247,000 ساكن سنة 1980. وقد تطوّر عدد سكّان المدينة ـ الذي كان يقدّر بحوالي 12000 سنة 1905ـ إلى 14,937 (في إحصاء سنة 1946)، ثم إلى 18,494 (سنة 1956)، وإلى 21,788 (سنة 1966). (*)

تأسيسها : تمّت إقامة مدينة المهديّة من قبل الفاطميين بداعي الاستجابة إلى حاجة ملحّة حصل الشعور بها منذ أواخر أيّام الدّولة السابقة، وهي دولة الأغالبة. فقد كان الأمراء على آخر عهد هذه الدولة غادروا القيروان

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

فعلا وانتقلوا الى مدينة تونس. وكان عبيد اللّه المهدي، إمامُ الشيعة الإسماعيلية، اثناء ارتياده ساحل البلاد انطلاقا من مدينة تونس ـ التي لم تصادف هوى في نفسه ـ ووصولا الى الموقع الذي اختاره لإقامة عاصمته الجديدة، يخضع لنفس الدوافع ، بالإضافة الى اهتمامه بأمور أخرى لها علاقة بضمان الأمن. وقد نسب إليه في زمن لاحق التنبّؤ بحدوث ثورة أبي يزيد النّكّاري وزحفته العارمة الهوجاء التي لم تحطّمها إلاّ أسوار المهديّة وحصونها. وقد حمل ذلك أنصار الإمام على اعتبار هذه النبوءة المعجزة سببا في تأسيس المدينة. إلاّ أن الدوافع والشواغل الحقيقية التي كانت تسيطر على فكر الإمام كانت أقرب من كلّ ذلك وأوكد. فبصرف النظر عن الاعتبارات المتعلقة بانتشار الصيت وعلوّ الشأن بين الملوك وعن حرص مؤسسي الدّول والممالك عبر مختلف مراحل التاريخ الإسلامي على تجسيم قيام كلّ نظام سياسي جديد ببعث عاصمة جديدة للحكم، كانت غاية المهدي العاجلة تتمثل في إقامة سدود منيعة تتميّز بما ينبغي من بُعد الشّقّة ومن حصانةالموقع، لتكون حاجزا دون عاصفة محتملة تقوم بها جموع أهل السنّة الذين يقفون ضدّ الشيعة بكلّ ما أوتوا من ثبات وإصرار. وهذه الزوبعة لا يمكن أن تنطلق أعاصيرها وموجاتها إلاّ من محور مركزيّ هو القيروان. أمّا خطر الخوارج فقد كان أبعد من أن يتمّ توقّعه آنذاك .

وكان الموقع الذي تمّ اختياره يتميّز بضمانات أمنية مثالية بالنسبة إلى دولة تملك أسطولا بحريّا قويّا ورثته عن دولة الأغالبة. فتمّت إقامة المدينة فوق نتوء صخري داخل في البحر بنحو 1400 متر « لا يمكن الجواز إليه إلاّ عبر ممرّ ضيّق كشسع نعل » ، (انظر المقدسي، **أحسن التقاسيم**، تحـ .شارل بلاّ Ch.Pellatمع ترجمة جزئية، الجزائر، 1950، ص 17)، ممّا يجعل منالها عن طريق البرّ أمرا مستحيلا. وإنّ في ذلك ما يفسرّ اختيار عبيد الله المهدي الذي فشل في تحقيق مطامحه في الدخول الى مصر فلم يسعه غير الاقتصار على تأمين قواعده بإفريقية إلى أجل غير مسمّى .

وتوجد علامات عديدة من النقوش والكتابات ومن الآثار تشير إلى أن مدنا قديمة بونية ورومانية قد سبقت الفاطميّين في الارتكاز بتلك الجهة. وقد احتفظت النصوص العربية بذكرى « جُمة » التي يذهب الباحثون غالبا إلى أنهّا مدينة «قُمّي» Gummi العتيقة.لكن ليس هناك ما يسمح بالاعتقاد أن شبه الجزيرة الداخلة في البحر « قد كانت محلاّ لتجمّع عمراني قبل القرن العاشر م.» (انظر أ.ليزين A.Lézine **المهدية**،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

باريس 1965، ص 17). قام عبيد الله المهدي إذن في سنة 300 هـ / 912-913م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، تحـ. كولان وليفي بروفنصال Colin et Lévi-Provençal، ليدن، 1948، ج I، ص 169) بارتياد موقع بكر، وعند الفراغ من أشغال بناء المدينة قام بتدشين عاصمته الجديدة يوم 8 شوال من سنة 308 هـ. الموافق 20 فيفري سنة 921 م. (انظر ابن عذاري، **البيان**، ج I، ص 184؛ والقاضي النعمان، **الافتتاح**، تحقيق وداد القاضي، بيروت، 1970، ص 275؛ وتحـ . فرحات الدشراوي، تونس، 1975، ص 327- 328). كانت مدينة المهدية إذن مخبأ وملجأ. فتمّ تحصينها وإحاطتها بسور ذي كثافة غير معهودة (8 أمتار و30 سنتيمترا) مساير لساحل لا تزال آثاره ماثلة للعيان في جزء طويل منه بناحية الشمال. وكان يسدّ مدخل البرزخ المؤدي إلى المدينة من جهة البرّ سدّ طوله 175 مترا مسبوق على مسافة 40 مترا بسور تمهيدي متقدّم. وكان الجواز إلى المدينة يتم من خلال باب من الحديد تزينه صور أسود من النحاس الأصفر عبر رواق معقود السقف طوله 33 مترا وعرضه 5,10 أمتار. ولم يبق اليوم قائما سوى هذا الرواق المسمّى « السقيفة الكحلاء » .

وكانت المدينة تحتوي على قصرخاص بالإمام المهدي، وقصر آخر لابنه ووليّ عهده القائم، وعلى مبان إدارية ومخازن تحت الأرض لادّخار الحبوب، وعلى آبار ومواجل للمياه. وكان بها مسجد جامع، وقد نخره البحر فيما بعد وأبلاه، وشوّهته البناءات الطفيلية التي ألصقت به عبر السنين، فأصبح خرابا. وقد تمّ مؤخّرا ـ خلال سنوات الستين ـ ترميم هذا الجامع وإعادته تماما إلى حالته الأصلية الأولى بإشراف الباحث ليزين Lézine. هذاوقد تمّ أيضا تجهيز العاصمة الجديدة بترسخانة للأسلحة، وأقيم بالناحية الجنوبية منها ميناء داخلي محصّن ومحمّي. وهو ليس بالضرورة ـ كما ذهب إليه بعضهم ـ بناء قديما أعيد استعماله، لكنّه مستوحى بدون شكّ من مثال ميناء بوني محتفر ومحصّن، أو «قطوف» Cothon.

تاريخها ـ المهدية مدينة ملكية وقلعة حصينة محصورة في نطاقها الضيّق داخل أسوارها. فهي لم تكن يوما تعجّ بالسكّان.أمّا جمهرة الأهالي فقد استقّروا بأنشطتهم الاقتصادية في ربض زويلة. وعمد الخليفة القائم (322 ـ 334هـ / 934 ـ 946م) إلى إحاطة هذا الربض بخندق. وفي سنة 332هـ/ 943 م. قامت ثورة أبي يزيد الخارجي النكّاري، الملقّب بصاحب الحمار. وبعد أن استولى هذا الثائر عنوة على مدينة القيروان، انتقل فضرب الحصار على المهديّة (من جمادى الثانية سنة 333 الى صفر سنة 334 هـ / جانفي ـ أكتوبر 945م.) وقد كانت أسوار المهدية وتحصيناتها سببا

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

في نجاة الفاطميّين من هلاك كان يبدو محقّقا. إلاّ أنّ الخليفة إسماعيل المنصور (334 ـ 341 هـ / 946 ـ 953 م). قد تخلّى، بعد القضاء نهائيا على الثورة، عن مدينة المهديّة التي فقدت بذلك منزلتها كعاصمة، واستقرّ في أواخر صفر من سنة 337هـ / سبتمبر 948 م، بقاعدته الجديدة « المنصوريّة » التي أقامها بجوار القيروان « في نفس المكان الذي انتصر فيه على صاحب الحمار» (انظر فرحات الدشراوي، **الدولة الفاطمية بالمغرب**، تونس 1981، ص 217) .

ولم تسترجع المهديّة دورها كعاصمة لآخر مرّة إلاّ بمناسبة زحفة بني هلال التي دفعت بالأمير المعز بن باديس إلى اللجوء إليها والتحصّن بها. ومنذ ذلك الحين أصبحت المدينة عاصمة مهدّدة بالأخطار المحدقة بها من كل صوب، بل وحتى من البحر أيضا. ففي سنة 480 هـ / 1087 م. استولى على المهديّة وزويلة جماعة من رجال مدينتي « بيزا » و« جنوة »، وقاموا بنهب ما فيها وبإحراقها. (راجع هـ.ر.إدريس، **الدولة الصنهاجية** باريس، 1962، ج I، ص 288). وفي سنة 517هـ / 1123 م. هاجم النورمانديّون المدينة بدون طائل. وفي سنة 529 هـ / 1134 م تعرضت المدينة إلى هجمة بني حمّاد برّا وبحرا. وأخيرا فرض النورمانديّون الحاكمون في صقلية شروطا قاسية على مدينة المهدية بواسطة معاهدة سنة 536 هـ / 1140 م. فكان ذلك تمهيدا لاحتلالها من طرف روجار الثاني ملك صقليّة (في 2 صفر 543 هـ/ 22 جوان 1148م). وقد كان في ذلك نهاية الدولة الصنهاجية .

وفي 12 رجب 554هـ / 30 جويلية 1159 م. ضرب أسطول عبد المؤمن بن علي وجيوشه الحصار على المدينة بحرا وبرا، فلم يكن بوسع النورمانديّين غير الاستسلام يوم 10 محرّم 555هـ / 21 جانفي 1160 م. وسمّى الموحّدون واليًا لهم على المدينة. وبعد ذلك بأربعة عقود من السنين تحالف محمد بن عبد الكريم الرّجْراجي الكومي ـ وهو من قبيلة عبد المؤمن بن علي ـ مع بني غانية، فاستقلّ بأمر المدينة في أوائل خلافة الناصر 595-610 هـ / 1199 – 1213م. وتلقّب بالمتوكّل على اللّه، لكنّ الخليفة الموحّدي استرجع المهدية وكامل إفريقية سنة 602 هـ / 1205 م. وقام بترميم تحصيناتها .

وفي عهد الدولة الحفصية، وخلال سنتي 685 و 686هـ / 1286- 1287 م. قام قائد البحر روجير دي لوريا Roger de Lauria الموفد من قبل مملكة أراغون بتدمير العديد من مدن الساحل بمافي ذلك المهدية ثمّ استقلّ بها من سنة 718 الى سنة 723هـ / 1318 ـ 1323م. أبو ضربة أحد أبناء ابن اللّحياني. وفي سنة 739هـ / 1338 - 1339 م. تمّ استرجاع المهدية من يد رجل استولى عليها يدعى ابن عبد الغفّار. وتمّ سنة 761هـ 1360/م. ادخال ترميمات جديدة على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

أسوارها وحصونها على يد ابن تفراجين وزير الدولة الحفصية. وفي سنة 1390 م وبين يوم 20 جويلية و يوم 20 سبتمبر تعرّضت المهديّة إلى حملة صليبيّة بأتمّ معنى الكلمة قامت بها عساكر جنوة يساندهم فرسان فرنسا وانقلترا. وصمدت المدينة في وجه المغيرين لكنّها اضطرت أخيرا إلى دفع جزية حتى تتمكّن من رفع هذا الحصار.

وفي آخر أيام الدولة الحفصية تنازع الأتراك والاسبان مدينة المهدية بشدّة وعنف. وعمد الإسبان إلى محاصرتها سنة 1509، ثمّ ركّزوا بها حامية قارّة سنة 1539 بعد استيلاء كارلوس الخامس Charles Quint امبراطور اسبانيا على مدينة تونس . لكن القائد درغوث استولى على المهديّة في السنة الموالية. وقد تمّ بعد ذلك إجلاؤه مؤقتا عن المدينة. ثمّ عاد فاستقرّ بها من جديد إلى يوم 8 سبتمبر 1550، تاريخ تغلّب قائد البحر أندريا دوريا Andréa Doria على هذا الموقع المحصّن والاستيلاء عليه باسم كارلوس الخامس المذكور. وقد أمر هذا الأخير بتخريبها وتهديم تحصيناتها قبل مغادرتها والتخلّي عنها نهائيّا.

وفي سنة 1689 ابتليت المدينة وأهلها بوباء الطاعون. وفي سنة 1740 غادرها أهلها وهجروها بسبب ما أصابهم من قسوة علي باشا عليهم عقابا لهم على وفائهم لعمّه ومناصرتهم إيّاه. وفي سنة 1848 أصبح عدد السكّان المسيحيّين بالمدينة من الأهمية بحيث استوجب تركيز كنيسة خوْرنيّة. وفي سنة 1856 تسبب وباء الكوليرا في هلاك عدد من الضحايا بالمدينة. وبالرغم عن تحسّب أهل المدينة واحتياطهم خلال انتفاضة سنة 1864 التي قامت بسبب مضاعفة ضريبة المجبى بالبلاد، فإنّ «المهدية، باعتبارها مدينة مجرّدة من الأسوار، قد تمّ نهبها من قبل سكان القرى المجاورة » (انظر ج. غانياجJ.Ganiage، **أصول الحماية الفرنسية بالبلاد التونسية** (1861 ـ 1881)، باريس ، 1959، ص 228 ، وتردّت في حالة من الافلاس المالي ـ كما كان الشأن بالنسبة إلى منطقة الساحل جميعها ـ بسبب التأثيرات المزدوجة لحملة الوزير زرّوق من جهة، ولتشدّد أصحاب الديون والمرابين وشططهم في المطالبات من جهة أخرى .

وإثر انتصاب الحماية بالبلاد التونسية ، افتتحت أوّل مدرسة فرنسية بالمهدية في سنة 1884، وأصبحت المدينة مركز إداريا لعامل أو « قايد » سنة 1885. ولم تلبث المهدية أن ساهمت بقسط وافر في الحركة الوطنية. ففي 6 مارس 1906 جرت بها مظاهرة للاحتجاج على غلوّ الأسعار آلت إلى أعمال عنف وشغب. وفي 21 مارس 1925 استجابت المهديّة إلى تعليمات الاضراب العام الذي أعلنه حزب الدستور في كامل أرجاء البلاد احتجاجا على

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

اصلاحات اعتبرت غيرموفية بالغرض. كما دارت بها من 18 إلى 20 أفريل 1933 مظاهرات أخرى دعا إليها نفس حزب الدستور قصد منع دفن التونسيّين المتجنّسين بالجنسية الفرنسيّة داخل المقابر الإسلامية .

وقد خضع تطوّر شكل المدينة وعمرانها بطبيعة الحال لما عاشته وشهدته من أطوار وتقلبّات عبر تاريخها. فقد آل الأمر بربض زويلة إلى الاندثار شيئا فشيئا تحت ضغط زحفة بني هلال، ثمّ عاد إلى الحياة والظهور حوالي سنة 597 هـ / 1200 م. وفي نفس الفترة بدأ الناس في ناحية الشمال الغربي يذكرون اسم قرية هيبون. ثم أخذت ملامح المدينة تتغيرّ تماما ابتداء من القرن السادس عشر بسبب تأثير العنصر التركي المتمثل في جند الحاميات العسكرية الجديدة بالمدينة. وقد انضاف إلى هذا العنصر، انطلاقا من سنة 1609 عنصر الأندلسيّين المهاجرين من إسبانيا. هذا وإن نسبة تساوي 60 بالمائة من العائلات البورجوازية من أهالي المهدية اليوم تنحدر من «الكُولُوغْلِيّة » [جمع كُولْ ـ أوُغْلُو]. وهذه أعلى نسبة بالبلاد التونسية في هذا الباب ، ممّا يؤدي إلى تأثير واضح وملموس في الأسماء والعادات والتقاليد .

وأهمّ ثروات المهديّة هما زراعة الزيتون والصيد البحري. أما مزارع القطن التي حصلت الإشارة الى وجودها في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، (انظر لوسيت فالنزي Lucette Valensi، **الفلاّحون التونسيّون**...، 1975، ص 219)، فإنها قد اندثرت اليوم تماما. وقد شهدت الصناعات المتصلة بالزيتون والصيد البحري ــ وخاصّة تصنيع سمك السرّدين ــ ازدهارا كبيرا ونتج عنها تركيز تجهيزات حديثة في مجال صناعة الزيوت وتكريرها وصناعة الصابون وصناعة التصبير وغير ذلك .

أما اليوم فإن المدينة قد تجاوزت حدود برزخها الأصلي الضيّق وتوسعت في اتجاه الطريقين الرئيسيّتين نحو مدينة صفاقس وخصوصا نحو مدينة سوسة .

وقد اشتهر من بين أُدبائها في أوائل عهد الدولة الحفصية شاعران، هما : أبو عمرو عثمان القيسي المعروف بابن عُرَيْبة (المتوفّ سنة 659 هـ / 1260 م). وابن السّمَاط (المتوفى سنة 690 هـ / 1291 م). كما اشتهر بها في ميدان التصوّفَ « القطبُ » الدهماني (المتوفى سنة 621 هـ / 1224 م). وهو من أصحاب الوليّ الصالح أبي مدين .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ثـبـــت المراجـــع

يضاف إلـــى المؤلّفـــات المذكورة في صلب هذا البحث مـــا يلـــي: حسن حسني عبد الوهاب، **ورقات**، ط . تونس . 1972، ج III ، ص 355 ـ 387؛ ت. البشروش، **التكوين الاجتماعي البربرسكي والسلطـة بتونس في القرن السابع عشر**، ط.تـونس، 1977، ص 34 ، 154؛ ر.بـرانشفيك R.Brunschvig، **الدولة الحفصية**، ط. بـاريس، 1940 ، 1947، الفهـــارس؛ خ . شاطـــر، **محلّـة زروق بالساحـــل** (1864)، ط.تـونس، 1978؛ ج. ديبـــوا J.Despois، **تونس الشرقية، الساحـــل والســـهـــوب السفلـى**، ط. باريس، 1955، الفهارس ؛ أ.ف. غوتيي E.F.Gauthier، **ماضي إفريقيا الشمالية**، ط. باريس، 1952؛ ط. قيقـــة، **درغوث رايـــس**، ط . تـــونس، 1974، ص 8167 ؛ م، الجديـــدي، **نمّـــو المـدن بالساحـــل التونسي**، بمجلـــة الجغرافيا، تونس، 1979، العدد 4 ص 41ـ59 ؛ ش.أ.جوليان Ch.A.Julien، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، ط. بـاريس، 1956، الفهارس؛ علي المحجـوبي، **أصول الحركـة الوطنية بتونـس** (1904ـ1934). ط . تونس، 1982؛ ج. مارسي G.Marçais **الفن المعماري الإسلامي بالمغرب العربي**، ط. باريس 1955؛ أ. مارتال A.Martel **التخوم الصحراوية الطرابلسيـة للبلاد التونسية** (1881ـ1911) ، ط. باريس، 1965، الفهارس ؛ أ.المصمودي، **الوظائف الحضرية لمدينة المهديّة** (أطروحة مرحلة ثالثـة ، جامعـــة باريس I) ؛ س. م. زبيـس، **المهدية وصبرة المنصورية** في مجلة Journal Asiatique، 1956، ص 79 ـ 93 ؛ أمّا كتـاب ط.الفقيه **المهدية عبر التاريخ** فهو غير ذي قيمة .

فـالمصادر هي عمليّـا مصـادر كامل تـاريخ إفـريقية في العصر الـوسيط وتاريخ تونس في العصر الحدي. والمؤلّفات المذكورة آنفا تحيل القارىء على هذه المصادر.ويضاف إلى ذلك القاضي النعمان،**كتاب المجالس والمسايرات**، تحقيق ح. الفقيه و إ. شبّوح و م. اليعلاوي، تونس، 1978، الفهارس .

(*) 36.828 ساكن حسب تعداد سنة 1984.

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

قضايا

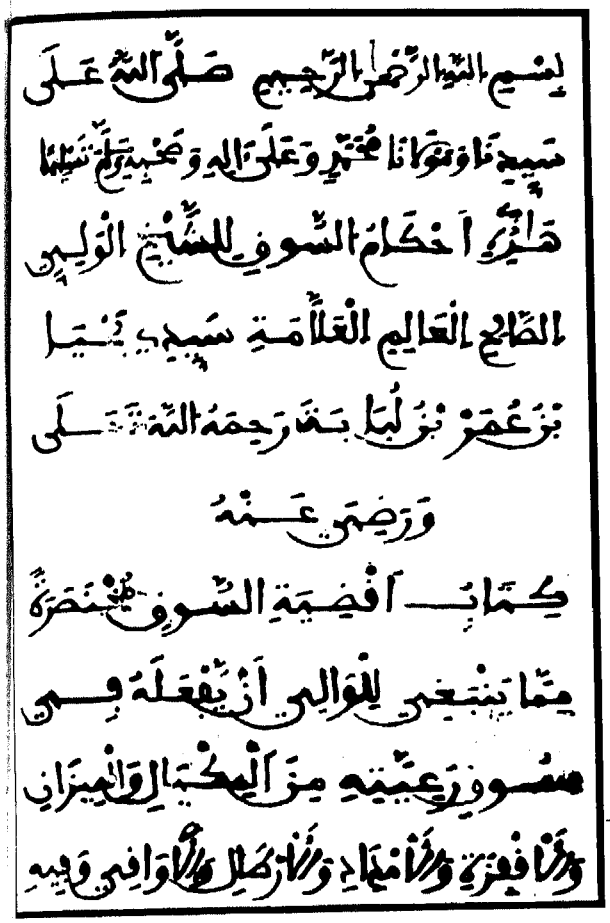
بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على
سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما
محاضرة أحكام السوق للشيخ الوليد
الصالح العالم العلامة سيدي يحيى
بن عمر بن لبابة رحمه الله تعالى
ورضي عنه
كتاب أفضية السوق ينتصر
مما ينبغي للوالي أن يفعله في
سوره وعيبته من المكيال والميزان
وذرع قفزه وذرعه وما يتصل بذلك وافي وبيع

الحسبة

الحسبة لفظ غير قرآني يجري استعماله للدّلالة على الواجب المفروض على كل مسلم في « الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»من وجه أوّل، ولتسمية خطّة الشخص المكلّف فعلا داخل المدينة بتطبيق هذا المبدإ في مجال السّهرعلى التزام مكارم الأخلاق وعلى توخّي النزاهة والأمانة في التعامل التجاري بالأسواق، من وجه ثان. وهذا الشخص الذي يقوم بأعباء خطّة الحسبة يسمّى **المحتسب**. وليس يوجد - فيما يبدو - أي نصّ يضبط لنا بصورة واضحة ومدقّقة السبب الداعي إلى اختيار هذا اللّفظ، ولا الطريقة التي تمّ توليد المعْنَيَيْن المذكورين واستخلاصُهما من مفهوم « الحساب » أو « الحسب » - بمعنى الكفاية - الموجود ضمن الجذر اللّغوي للكلمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ معطيات عامّة

المصادر والأصول والوظائف : إنّ الازدواجيـة التي يتضمّنهـا مفهوم الحِسْبَـة هي السبب في تنوّع المصادر التي تفيدنا بمعلومات عنها. فبصَرف النظر عن التلميحات العديدة إلى المحتسبين التي نعثر عليها في كتب الأخبار والسّير وطبقات أعلام الرجال وغيرها، فإنّ كلّ ما كتب من التآليف عن الأخلاق العامّة وضدّ البدع، مثل **المدخل** لابن حاجّ، وكل ما ألّف كذلك في باب البيع والشراء وفقه المعاملات التجارية يفيدنا بوجه من الوجوه في التعرّف على الحسبة. وسوف نقتصر في هذا المبحث على الحديث عن المؤلّفات التي اتخذت من الحسبة ـ في أيّ واحد من معَنَيْيهـا ـ موضوعـا التزمت بـه ووقفت عند حدوده. ويمكن تصنيف هذه المؤلّفات ـ بصورة تقريبية جدّا ـ في صنفين ليس بينهما حدود فاصلة حاسمة. فبعض هذه الكتب يدرس بوجه عامّ محتوى فضيلة الحسبة، والواجبات المترتّبة عنها بالنسبة الى المحتسب، وما تكتسي خطّته من صبغة دينية وفقهية. كما يوجد من بين هذه المؤلّفات ما تكون الغاية منه أساسا إنارة المحتسب بخصوص التفاصيل والجزئيات الملموسة والفنيّة من جوانب عمل المراقبة الذي ينبغي أن يقوم به. وبما أن هذه الرقابة إنّما تجري أساسا على الصناعات والحرف، فإنّ مثل هذه الكتب تكوّن دليلا حقيقيا لأصول الرقابة الإدارية على المهن. وانّنا سوف نسعى إلى تقديم قائمة مفصّلة في مؤلّفات هذا الصنف الأخير. أمّا الصنف الأوّل فسوف نكتفي بإيراد معطيات عامة حوله .

فالمؤلّفات التي تتضمّن نظرة عامّة في الحسبة هي عديدة فعلا، لكنّ الغريب في أمرها هو أنّنا لا نجد أيّ كتاب منها قبل القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، أي قبل فترة متأخّرة بقرنين عن ظهور خطّة الحسبة.و أهمّ هذه المؤلّفات كتابان هما : **الأحكام السلطانيّة** للماوردي، الباب العشرون، وهو كتاب فقه وتشريع بالخصوص، (إلاّ أن هذا الكتاب يذكر أحيانا، على سبيل الأستشهاد أو على سبيل الإنكار والنقض، مؤلّفا سابقا لأبي سعيد الإصطخري المحتسب الشافعي ببغداد في أوائل القرن الرابع هـ / التاسع م)، **وإحياء علوم الدين** للغزالي، المجلّد II، ص 296 وما بعدها، وهوكتاب تبرز فيه الصبغة الأخلاقية بصورة أوضح. ومن بين المؤلّفين الآخرين يجب أن نذكر ابن حزم، وهو من الأندلسيين

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

القدامى (في كتابه **الفصل بين الملل والنحل**، ج IV ، ص 171 وما بعدها). ثمّ ابن تيميّة الحنبلي الذي عاش في عصر متأخّر في عهد المماليك، (في مؤلّفه **الرسالة في الحسبة**، انظر هنري لاوست H.Laoust ، دراسة ... عن ابن تيميّة Essai sur ... Ibn Taymiyya، الفهارس)، والنويري (كتاب **النهاية**، ج VI وابن جماعة، والسّبكي (كتاب **معيد النّعم**)، والقلقشندي، والمقريزي، وغيرهم. أمّا في بلاد أسيا الوسطى فقد ظهر كتاب **النّصاب في الاحتساب** للسّنامي (؟)، الذي يشير عنوانه إلى خطّة مؤلّفه كمحتسب (القرن السابع هـ / الثالث عشر م ؟). ويبدو أنّ هذا الكتاب قد لاقى إقبالا عظيما ببلاد الأعاجم والتّرك بناء على وفرة نسخه المخطوطة (انظر ك. عوّاد في مجلّة M.M.I.A، المجلّد XVII (السنة 1942) ، ص 433 وما بعدها. وأمّا ببلاد المغرب، فهناك **المقدّمة** لابن خلدون، ج III، ص 31.

أمّا مؤلّفات الصنف الثاني فهي من قبيل مخالف لكلّ ما ذكرناه . ذلك أنهّا تنصرف إلى الاهتمام بالجزئيات الفنيّة للرقابة الواجب القيام بها، لاسيّما على الحرَف والمهن، بل وتبرز أيضا في شكل كتيّبات أو رسائل مؤلّفة للمحتسبين خاصّة. ولئن كانت هذه المؤلّفات موافقة بطبيعة الحال للشريعة الإسلامية فهي تكتسي مع ذلك صبغة إدارية بعيدة عن الطابع الفقهي. ويعتبر كتاب **أحكام السّوق** لفقيه إفريقيّة المالكي يحيى بن عمر(النصف الثاني من القرن الثالث / التاسع م) أقدم مؤلّف من هذا النوع. (نشر أهمّ قسم من هذا الكتاب اعتمادا على ما عثر عليه منه في مجموع متأخّر . وقام بهذا النشر محمود علي المكّي في مجلّة RIEEI المجلّد IV ، (سنة 1956). وترجمه إلى الإسبانية غارسيا غومز E. Garcia Gomez في مجلّة **الأندلس** al-Andalus، المجلّد XXII (السنة 1957). ويوجد منه مخطوطان أصليّان كاملان بالبلاد التونسية، أحدهما بمكتبة الزيتونة، رقم 3137 ، والثاني بإحدى المجموعات الخاصة). وبالإضافة إلى أنّ كلمة الحسبة لم ترد في هذا المؤلّف، فإنّ هذا الكتاب أقرب إلى باب من مجموع فتاو فقهية حول موضوع السوق وما أشبهه، منه إلى رسالة في الأحكام الخاصّة بالمحتسب.ـ أمّا **كتاب الزيديّة** Zaydi Manual الذي نشره سرجان Serjeant بمجلّة RSO المجلّد XXVIII (السنة 1953) (التاريخ التقريبي : حوالي سنة 300هـ/ 910 م) فهو أقرب إلى صنف التأليف الذي نحن بصدده، وقد ورد فيه هذه المرّة ذكر

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

لفظ الحسبة. وليس من قبيل الاتفاق والصدفة أن ظهر مثل هذا الكتاب داخل بيئة الشيعة الزيدية المتمسكين بالتثبّت والتدقيق في الشريعة، لكنّ حالة التأخّر الاقتصادي والاجتماعي بمنطقة طبارستان التي تمّ تصوّره وتأليفه بها قد أثّرت بالنقص في محتواه .

أمّا المصنّفات الحقيقيّة في فنّ الحسبة بالمعنى الدقيق الذي نقصده فإنها سوف لن تظهر إلاّ ابتداء من أواخر القرن الخامس هـ / الحادي عشر م. بالمغرب الإسلامي (ولا سيما بالأندلس)، وابتداء من القرن السادس هـ / الثاني عشر م. بالمشرق (بالشام و مصر)، ولم يعثر على شيء منها فيما سبق ذلك زمانا ولا فيما عدا ذلك مكانا. والمؤلّفات المعروفة المذكورة في هذا الباب هي التالية :

1 ـ **بالمغرب الإسلامي: كتاب في أدب الحِسْبَة.** للسّقطي المالقي (حوالي سنة 500هـ / 1100م .، نشر أ . ليفي بروفنصال وج. س. كولان E. Lévi-Provençal et G.S. Colin في مجلّة J.A سنة 1931 ، **ورسالة في القضاء والحسبة** لابن عبدون الإشبيلي (القرن السادس هـ / الثاني عشرم، نشر ليفي بروفنصال في مجلّة J.A سنة 1934، وقد أعاد نشرها في كتابه **ثلاث رسائل أندلسية في الحِسْبَة**، سنة 1955، مع ترجمة فرنسية لنفس الباحث في كتابه **إشبيلية الإسلامية في أوّل القرن الثاني عشر**، سنة 1947، و ترجمة إسبانيّة بالتعاون مع غارسيا غومز، **إشبيلية المسلمة** ...، سنة 1948؛ ترجمة إيطاليّة لـ :ف. غابريال F.Gabrielli في نشريات Rend.Accad. Lincei، المجموعة السادسة، المجلّد XI،(السنة 1935).

ـ ثمّ يأتي بعد ذلك، في نفس **الثلاث الرسائل الأندلسية** ...، ابن عبد الرؤوف والجرسيفي ترجمة فرنسية لراشال أريي Rachel Arié في مجلة Hespéris -Tamuda المجلّدا (السنة 1960)، ترجمة انجليزية للأوّل قام بها ج.م. ويكنس G.M.Wickens في مجلّة I.Q ـ المجلّد III، (السنة 1965) راجع ما كتبه ج. د. لاثام J.D.Latham في مجلّة الدراسات السامية J. Sem.St. المجلّدV ، (السنة 1960)، ص 124 وما بعدها) ـــ وينتسب بقدر مشترك إلى كلّ من فنّ التأليف في الحسبة وفنّ الكتابة في القضايا أو الفتاوى الشرعية، الباب الخاص بالحسبة في كتاب **تنبيه الحكّام في الأحكام** لابن المناصف (سنة 563ـ620 هـ / 1168ـ 1223 م) مكتبة الزيتونة، رقم 1917 و وكتاب **التحفة**، لمحمد العقباني التلمساني، مكتبة الزيتونة رقم 2978 ورقم 6234، ومكتبة الجزائر، رقم 1353،

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الذي قدّم حوله محمد الطالبي تحليلا بمجلّة ARABICA، المجلّد I ، (السنة 1954) بعنوان بعض معطيات عن الحياة الاجتماعية بالمغرب الإسلامي في القرن الخامس عشر .

2ـ **بالمشرق** : ألّفت عدة كتب مشرقيّة في الموضوع، وهي أكمل وأغزر مادّة من مؤلّفات المغرب الإسلامي. وقد كان المثال الأنموذجي الأوّل الذي نسجت سائر هذه الكتب على منواله هو كتاب **نهاية الرّتبة في طلب الحسبة** لعبد الرحمان بن نصر الشيزري (المتوفّ سنة 589 هـ / 1193 م). وطبع مع ترجمة فرنسيّة (لبرنهاور †Bernhauerمنذ سنة 1860 ـ1861، في مجلّة J.A ، منسوبا إلى النبروي بعنوان **مؤسسات الشرطة عند العرب**...، ثم نشر في طبعة عصرية طيّبة للعريني، القاهرة، 1946؛ ومن هذه الكتب مؤلّف يحمل نفس العنوان لكنّه أوسع وأشمل، كتبه ابن بسّام (الذّي عاش في القرن السابع هـ / الثالث عشر م. بالشّام أو بمصر)، وقد قام بتحليله الأب شيخو في مجلّة المشرق، المجلّد X السنة1907)؛ ومنها أيضا كتاب أغزر مادّة وأوسع تحليلا من سابقيه، وهو كتاب **معالم القُربة في أحكام الحسبة** لابن الأخوّة المصري (أوائل القرن الثامن هـ / الرابع عشر م)، طبعة مع ترجمة مختصرة باللّغة الانجليزيّة لروبن ليفيReuben Levy، نشرت في سلسلة Gibb Mem. Serie الجديدة المجلّد XII (السنة 1938)؛ ثمّ هناك عدد من الكتب الأخرى معظمها فيما يبدو إعادات محوّرة للمنشورات السابقة، منسوبة، أحيانا، إلى غير أصحابها (مثل الماوردي) ويتعذّر تصنيفها بسبب بقاء مخطوطاتها بدون نشر ولا دراسة؛ راجع أيضا فصول ودراسات م. غود فرواـ ديمونبين. M. Gaudefroy-Demombynes في مجلّة J.A. المجلّد CXXIII (السنة 1938)، و ك. عوّاد في مجلّة M.M.I.A، المجلّد XVIII (السنة 1943)، وراجع كذلك بالنسبة إلى كتاب **الحسبة** لابن عبد الهادي (المتوفّ سنة 905 هـ / 1503 م) تعليق حبيب الزيّات في **الخزانة الشرقية**. المجلّد II (السنة 1937)، ص112. أمّا بخصوص الزيدية فانظر ر.شتروثمان R. Strothman, Das Staatsrecht der Zayditen، ط. ستراسبورغ سنة 1912، ص 90 وما بعدها .

وتضاف إلى هذه المؤلّفات من ناحية أخرى بعض وثائق تسمية المحتسبين التي لم تلق بعد ما تستحقّه من العناية. فمنها وثيقة من القرن الرابع هـ/

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

العاشر م. موجودة ضمن **ديوان الإنشاء** للصاحب بن عباد، ص 39 ،ومنها وثائق أخر إيرانية تركيّة من القرن الرابع هـ / العاشر م. ضمن رسائل رشيد الدين الوطواط، ص 80 ، وفي **عَتَبة الكَتَبة** (الفارسي) لمنتجب الدين بديع أتابك الجويني، طهران 1329 . p ، ص 82 ، ووثائق أخيرة من الشام ومصر ترجع إلى عهد الأيوبيّين والمماليك موجودة في مراسلات ضياء الدين بن الأثير (راجع مجلّة BSOAS، المجلد XIV / 1، ص 38) وفي كتاب **صبح الأعشى** للقلقشندي ، ج X، ص 460 (من إنشاء القاضي الفاضل)، وج XII، ص 339 ، ومقتطفات أخرى في مواضع مختلفة من الكتاب. ويمكن العثور بدون شكّ على العديد من الوثائق الأخرى المماثلة .

هذه إذن هي المصادر التي يمكننا الاعتماد عليها في دراسة الحسبة، والحسبة في مفهومها الواسع هي حينئذ الواجب المكتوب مبدئيا على كل مسلم في الإعانة على الخير ومقاومة الشرّ، ويستطيع المسلم أن يقوم بذلك بواسطة الإرشاد والتقريع في الحالات العادية، وبتحكيم سلطة القضاء في حالات أخصّ. أمّا في أقصى الحالات، وعند فقدان السلطة العامة، فإنّه يستطيع اللّجوء إلى استعمال الجبر ــ إن أمكنه ذلك ــ بل والخروج تماما عن طاعة الحكّام والثورة عليهم ـ حسب رأي ابن حزم ـ إذا ما تبيّن عدم صلاحهم .

وفي الحقيقة فإنّ هذا الفرض هو واجب نظري خاضع لاستطاعة صاحبه أن يقوم به على أفضل وجه، وإنّه من المحجّر الحلول محلّ السلطة العامة ما دامت قائمة. هذا وانّ مفهوم الحسبة، لئن كان بوسعه أن يساهم ببعض الدورفي استعراض أصناف السلوك داخل المجتمع، فإنّه لا يكتسي عمليّا سوى فعالية محدودة القيمة والتأثير. فلا بدّ حينئذ، من السعي إلى تفهّم الظروف التي نشأت وتطوّرت فيها ـ مع ذلك ـ هذه النظرية .

إن ظروف النشأة الأولى لخطّة الحسبة في المجال العملي ــ وهي سابقة فيما يبدو ظهور النظرية ـ محاطة أيضا بالغموض . فنحن لا نجد في أوّل الأمر حديثا عن الحسبة أو المحتسب، بل نرى بخصوص الخطّة التي سوف يشغلها المحتسب حديثا عن **صاحب (أو عامل) السّوق**. فهناك حينئذ مسألتان : مسألة أصل ظهور صاحب السوق، ومسألة تحوّله إلى محتسب. والرأي السائد عند الباحثين هو أنّ صاحب السوق قد حلّ